
مطبوعات
كتابي
حب .. أم شفقة ؟
BEWARE OF PITY
ترجمة : حلمى مراد
روع قصة طويلة للكاتب العالمى
ستيفان زفايج

التراث العالمي للقارئ العصري

ستيفان زفايج

حُبّ .. أم شفقة ؟

ترجمة : حلمي مراد

BEWARE OF PITY

BY

STEFAN ZWEIG

الثمن ١٥ قرشا

لوحة الغلاف

واللوحات الداخلية

بريشة الفنان : **جمال قطب**

مطبوعات

كتابى

الترجمة العربية لشوامخ الكتب العالمية

صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد

الكتاب الخامس والسبعون

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ،
القاهرة – تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب – ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة
تليفون ٣١٨١٠

شخصيات الرواية

Anton Hofmiller	الملازم انطون هوفميلر
Herr Von Kekesfalva	هر فون كيكسفالفا
Edith Von Kekesfalva	اديث فون كيكسفالفا (آنسة
Ilona	ايلونا (آنسة)
Dr. Emmerich Condor	دكتور كوندور (طبيب)
Leopold Kanitz	ليوبولد كانيتز
Princess Orosvar	الأميرة أوروزفار
Annette Beate Dietzenhof	آنيت بيات ديتزينهوف
Professor Viennot	البروفيسور فيينو
Josef	جوزيف
Toni	تونى
Jozsi	جوسى
Ferencz	فيرينز
Dr. Goldbaum	دكتور جولد باوم
Balinkay	بالينكاى

مقـدمة المؤلف

● **ليس** هناك ما هو أبعد عن الحقيقة ، من الظن السائد بأن خيال الروائى دائب النشاط فى رأسه ، وان قدرته على الخلق والابتكار لها رصيد من القصص لا ينفد ، ومعين من الحوادث لا ينضب .. فالواقع أن كاتب القصة ليس فى حاجة الى أن يبحث عن موضوع لها ، بقدر حاجته الى أن يدع الشخصيات والوقائع تبحث عن هذا الموضوع ، كما تفعل دائما اذا ما توافرت للمؤلف ملكة الملاحظة والاصغاء ! .. **فهى تسعى اليه من تلقاء نفسها ، باعتباره وسيلتها الى الذيوع والانتشار .. وهكذا يحدث أن يفضى الكثيرون بقصصهم ـ طائعين ـ الى الشخص الذى طالما حاول أن يتعقب مصائر البشر !**

والقصة التالية قد رويت لى بأكملها تقريبا فى القالب الذى أقدمها به هنا : ففى ذات ليلة ـ خلال فترة اقامتى الأخيرة بمدينة « فيينا » ـ شعرت بالتعب ، فى أعقاب يوم حافل بالعمل ، فمضيت الى مطعم فى ضواحى المدينة خيل الى أنه فقد ـ منذ أمد ـ جدته وشهرته ، وقل الاقبال عليه . لكننى لم أكد أخطو الى داخله ، حتى تبينت على الفور خطأ هذا الظن ، فقد خف الى تحيتى شخص ممن أعرفهم ، وعلى وجهه علائم السرور والبهجة ، ثم دعانى الى الجلوس معه ! .. غير انى لم أستجب لتحيته ودعوته بمثل حماسته . ولست أزعم أنه كان مخلوقا بغيضا ، يضيق المرء بصحبته ـ فالواقع أنه كان من ذوى النفوس المحبة للأنس والمخالطة .. **أو ، بعبارة أخرى ، من أولئك الذين « يجمعون » الأصدقاء**

الجدد بمثل المثابرة والحماسة اللتين يجمع بهما الأطفال طوابع البريد ، ويفخرون بكل نموذج يضيفونه الى مجموعاتهم ، سيما اذا كان نموذجا نادرا أو مشهورا !

والذين يعرفون شخصا من هذا الطراز يلمسون طيبة قلبه ، وحرصه على ادخال السرور على نفوس أفراد « مجموعته » . ومن ثم يقدرون مدى « القسوة » التى ينطوى عليها عدم الاستجابة لحفاوته وترحيبه . وهكذا استسلمت لقدرى ، وجلست الى جوار صاحبى . وانقضى نحو ربع ساعة فى ثرثرة تافهة ، ثم دخل المطعم رجل طويل القامة ، يصدم الناظر اليه مبلغ التناقض بين الشباب النضير الذى يلوح على طلعته وبشرته ، والشيب المبكر الذى ألم بعارضيه ! .. وكان فى مشيته طابع ينم على أنه « ضابط سابق » . ولم يكد جارى يلمحه ، حتى هب يحييه فى لهفة ـ باشارة من يده ـ فرد له الرجل التحية فى فتور وعدم اهتمام ، ثم جلس الى مائدة غير بعيدة ..

.. ومال جليسى على أذنى هامسا : « أتعرف من يكون ؟ » . فأجبته فى اقتضاب ، كى أتجنب اسهابه فى الايضاح : « كلا ! » .. ثم انهمكت فى تشريح قطعة اللحم التى أمامى . لكن « بلادتى » هذه ضاعفت من حماسة صاحبى « صياد الشخصيات » ، فوضع يده على فمه وهمس بصوت خافت : « كيف ؟ انه « هوفميلر » موظف القوميسيرية ، ذاك الذى فاز بوسام (ماريا تريزا) لحسن بلائه فى الحرب . »

واذ رأى محدثى أن هذه المعلومات لم تثر انفعالى كما قدر ، اندفع يصف لى جانبا من الأفعال الباهرة التى أداها الكابتن هوفميلر فى الحرب ، والتى لا أرى معنى لتصديع رأس القارىء بتفصيلاتها ، فلم يسعنى الا أن التفت فى حركة غير ارادية الى ذلك « البطل » المقصود بالحديث ، واذا به



ستيفان زفايج

قد ارتسمت على وجهه نظرة سخط صارمة ، ثم أدار مقعده بحيث أعطانا ظهره فى حركة عدائية ، فشعرت بشىء من الخزى ، وما لبثت قليلا حتى استأذنت محدثى الثرثار فى الانصراف .. وفيما أنا أغادر المطعم ، لمحته ينتقل الى مائدة بطله المرموق ، كى يرسم له — ولا شك — صورة لامعة عنى مثلما رسم لى عنه !

.. وكان يمكن أن أنسى كل شىء عن هذا اللقاء العابر بالضابط السابق ، لولا أن شاءت المصادفة أن أجد نفسى واياه وجها لوجه ، فى حفلة صغيرة حضرتها فى الليلة التالية ! .. وبدا لى — فى ثياب السهرة — أكثر أناقة ووجاهة منه فى سترته العادية التى كان يرتديها فى الليلة السابقة .

ووجد كلانا بعض الصعوبة فى قمع ابتسامة خفيفة سعت الى شفاهنا فى وقت واحد : تلك الابتسامة ، ذات المعنى ،

التى يتبادلها – فى مكان عامر بالناس – شخصان يتقاسمان سرا خفيا !.. لقد عرفنى هو ، كما عرفته ، لكن كلا منا تجنب التحدث مع الآخر . ولو حاولنا ذلك لتعذر علينا الأمر فى تلك الساعة ، فان نقاشا حاميا كان محتدما حولنا . ويستطيع القارىء أن يستنتج موضوع ذلك النقاش ، لو علم أن تاريخ هذه الحادثة يرجع الى سنة ١٩٣٧ ، حين كان كل حديث يجرى فى أى بلد من بلاد أوربا الحائرة لا يكاد يخرج عن موضوع واحد ، هو : الحرب العالمية الجديدة ، وهل نشوبها محتمل أو غير محتمل ؟ !

وبدأ مضيفنا المناقشة – وهو محام معتز برأيه – فسخر من فكرة احتمال نشوب الحرب ، فى جيل لم ينس ابناؤه أهوال الحروب السابقة .. وضايقتنى هذه المغالاة فى استبعاد خطر الحرب ، فأعلنت رأيى المضاد – فى حزم وقوة – قائلا : « انه لا ينبغى ترك الرغبة تتحكم فى الفكرة ، والأمنية تغير الأمر الواقع . فلا شك أنه فى اللحظة التى يذاع فيها نبأ التعبئة العامة ، لن يجرؤ معارض على رفع صوته ، ولا يعود لحياة الانسان – المخلوق من التراب – أى قيمة أو وزن فى اعتبار الحكام والساسة . »

وانحاز الحاضرون جميعا الى الرأى الأول ، المضاد لرأيى ، انصياعا لتأثير غريزة خداع النفس التى تجعل البشر يحاولون أن ينفوا من أذهانهم المخاطر التى يحسون بوجودها فى أعماقهم ، فضلا عن أن تحذيرا كالذى جاهرت به ، ضد التفاؤل الرخيص السائد ، كان خليقا ألا يلقى ترحيبا فى وقت كان فيه عشاء شهى فاخر معدا فى انتظارنا ، فى الحجرة المجاورة ! .. وأدهشنى أن فوجئت فى تلك اللحظة بتدخل الضابط السابق فى النقاش ، مؤيدا رأيى بقوله : « ان ارادة الشعوب لن يكون لها وزن فى ترجيح كفة الاشتباك فى حرب

أو الاحجام عنها ، وان النصيب الأكبر من القتال فى الحرب القادمة سوف يكون نصيب الآلات . ولن يكون الانسان أكثر من جزء من أجزاء تلك الآلات ، ومتى نشبت الحرب فسوف يندفع الى القتال عشرات ومئات الألوف من الرجال ، اما هربا من أنفسهم وظروفهم السيئة ، واما خوفا من معارضة التيار الجارف والتصدى له ! »

ثم أضاف الكابتن هوفميلر الى ذلك قوله : « أن اللون الوحيد من الشجاعة الذى صادفنى فى الحرب هو شجاعة الجماعات ، تلك الشجاعة التى تنبع من شعور الشخص بأنه واحد من قطيع جرار ، **وهى شجاعة تتألف من عناصر عجيبة مختلطة ، منها : الغرور ، والاستهتار ، والضجر .. ومنها ، قبل ذلك كله : الخوف من التخلف عن موكب المحاربين ، والخوف من سخرية الناس ، أو الخوف من اتخاذ موقف مخالف لموقف المجموع ، ولحماسة الزملاء والاخوان !** .. ولم أدرك الا فيما بعد ، عقب تسريحى من الجيش وعودتى الى الحياة المدنية ، ان الكثيرين من الذين اشتهروا بأنهم من أشجع المحاربين فى الميدان ، كانت بطولتهم موضع شك .. ولست أستثنى منهم نفسى ! »

وأعجبتنى طريقته فى الكلام ، وكدت أتقدم لأحييه ، ولكن مضيفنا دعانا الى قاعة الطعام ، حيث أجلسنا فى مقعدين متباعدين .. وهكذا لم تتح فرصة اللقاء الا بعد انفضاض الحفلة ، فى حجرة المعاطف « الأمانات » حيث ابتدرنى قائلا وهو يبتسم : « أعتقد أن صديقنا المشترك قد تولى تقديمنا — بصفة غير مباشرة — أحدنا الى الآخر » .. فأجبته بعبارة مناسبة ، وأنا أبتسم بدورى .. وعندئذ أردف قائلا : « يخيل الى أنه قد خلق منى « بطلا » .. فانه جد فخور بوسامى ، كما هو فخور بكتبك ! »

ثم خرجنا معا . وفى أثناء سيرنا التفت الى فجأة قائلا :

« صدقنى .. انى لا أغالى اذا قلت ان شيئا لم يثقل على صدرى ويضايقنى خلال السنوات الأخيرة مثل وسام (ماريا تريزا) هذا الذى أحمله ! .. صحيح أنى فرحت به حين منحته ـ من فرط ما سمعت عنه أثناء دراستى الحربية ، مما يدخله فى باب الأساطير ـ وصحيح أنه لا يمنح لأكثر من اثنى عشر شخصا فى كل حرب .. واننى يوم منحته كنت شابا فى الثامنة والعشرين ، ووقفت ـ مرموقا من الفرقة بأسرها ـ وهو يلمع على صدرى كالشمس الصغيرة ، وصاحب الجلالة الامبراطور يهز يدى مصافحا مهنئا ! .. لكن هذه الأوسمة الحربية تنتهى نشوتها بانتهاء الحرب .. وبالفعل ، بدا لى من السخف ـ بعد استقرار السلام ـ أن أظل طيلة حياتى مكللا بالغار ، باعتبارى بطلا ، لا لشىء الا لأنى فى مناسبة ما تصرفت تصرفا ينطوى على الشجاعة لمدة عشرين دقيقة ، وقد لا أكون فعلت أكثر مما فعل آلاف غيرى من المحاربين ، وانما كان من حسن حظى أن تنبه الرؤساء الى صنيعى ، كما كان من حسن حظى أن عدت من الحرب حيا !

« .. ولكن لم ينقض على ذلك عام حتى كنت قد ضقت ذرعا بنظرات الفضول التى يرمق بها الناس الوسام المعلق على صدرى ، ثم ينتقلون بها ـ امعانا فى الاعجاب ـ الى وجهى ! .. وقد كان حنقى عليهم ، من أجل هذا ، أحد الأسباب التى جعلتنى أترك الجيش عند نهاية الحرب كى أعود الى الحياة المدنية . »

وسكت قليلا ، ثم استأنف كلامه فقال : « أما السبب الرئيسى الذى دفعنى الى اتخاذ تلك الخطوة فقد يكون أولى بتقديرك : ذلك أننى أنا نفسى صرت أنظر الى بطولتى المزعومة نظرة تشكك ، فقد كنت أعرف الناس بأن الرجل الذى ظفر

بهذا الوسام هو أبعد ما يكون عن استحقاق لقب البطل ، بل لعله يستحق عكسه تماما ! اننى لم أكن غير واحد من أولئك الذين هرعوا الى الحرب كى ينجو بأنفسهم من موقف تعس ، وهكذا بدت لى حياتى وسط « هالة من المجد » ، حياة غير طبيعية ، ولا تكاد تطاق .. حتى لقد تنفست الصعداء حين أعفيت من أن أسير فى الطريق حاملا دليل بطولتى محفورا على سترتى الرسمية ! .. **وما يزال يضايقنى الى اليوم أن ينبش الناس ماضى المجيد ، فيرمقوننى بتلك النظرة المفعمة خشوعا واعجابا ، كما رمقتنى أنت حين أشار صديقك الى بالأمس .**

انك لا تستطيع تصور مبلغ الحنق الذى تملكنى اذ ذاك ، حتى لقد فكرت فى أن أجبرك على أن تسمع من شفتى مدى العذاب الذى تكبدته ، وفداحة الضريبة التى دفعتها ، ثمنا لتلك البطولة المزعومة ! .. انها قصة غريبة للغاية ، تظهر كيف أن الشجاعة كثيرا ما تكون ضعفا وجبنا ! .. وليس يضيرنى أن أقصها عليك الآن ، فان الجرح الذى يرجع تاريخه الى ربع قرن مضى لا يعود ملمسه حساسا .. فهل لديك الوقت ؟ .. وهل لا يضجرك الأمر ؟ »

وقد كان لدى الوقت والصبر .. فمضينا نذرع الشوارع ، التى بدت مهجورة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وصاحبى ماض فى سرد قصته هذه .. ولست فى حاجة الى القول بأنها استغرقت أكثر من حديث واحد .. كما تغنينى فطنة القارىء عن الاشارة الى أنى لم أدخل عليها غير بضع تغييرات تافهة ، اقتضتها ضرورة اخفاء شخصيات أبطالها ، ومعالم الأمكنة التى جرت فيها وقائعها .. أما فيما عدا ذلك فلست أنا ـ بل بطل القصة الفعلى ـ الذى يرويها فيما يلى :

ستيفان زفايج

الفصل الأول

تعارف

● **بدأ** الأمر كله بهفوة من جانبى ، سقطة خرقاء غير مقصودة .. ثم تلت ذلك محاولة لاعادة الأمور الى نصابها . **لكنك لو حاولت أن تصلح ساعتك فى عجلة زائدة ، فانك خليق أن تزيد حالتها اضطرابا وفسادا !..** وانى حتى اليوم ، وقد انقضت على الأمر أعوام ، مازلت عاجزا عن أن أقرر جازما : متى وأين كان الحد الفاصل بين حماقتى غير المقصودة ، وفعلتى الآثمة ! .. وأغلب ظنى أننى لن أهتدى قط الى يقين يخلصنى من حيرتى هذه !

كنت وقتئذ فى الخامسة والعشرين ، أعمل ضابطا برتبة « ملازم ثان » فى فرقة (...) بجيش الامبراطور . ولست أزعم بأننى كنت يوما شغوفا بالجندية ، أو مؤمنا بأنها مستقبلى المرسوم ، **ولكنك حين تكون واحدا من أربعة أولاد ذوى شهية ضارية ، وبنتين ، فى أسرة ضابط نمسوى لا يملك ما يكاد يقوم بأودهم ، فانك لن تلوم أباك اذا لم يعبأ كثيرا بنوع المهنة التى يختارها لك ، فألقى بك الى أية مهنة تخلصه من الانفاق عليك !** .. وهكذا اختار أبى لأخى الأكبر ، الذى كان ضعيف البصر ، مدرسة اللاهوت .. بينما قذف بى ، أنا القوى البنية ، الى الكلية الحربية ، حيث تتكفل الدولة بكل شىء لمدة سنوات ، حتى تخرج الفتى المراهق ضابطا ذا شارب وقور ، ثم تسلمه الى الجيش « معدا للاستعمال ! »

وهكذا جاء اليوم الذى تخرجت فيه فى الكلية — وكان يوم عيد ميلاد الامبراطور ، كما جرت التقاليد — ولم أكن قد أكملت بعد عامى الثامن عشر .. وبعد فترة وجيزة لمعت على سترتى النجمة الأولى ، وصار لى مرتب ، الى جانب الرتبة !

وفى نوفمبر من عام ١٩١٣ – الذى تبدأ فيه حوادث هذه القصة – صدر الأمر بانتقال فرقتنا من بلدة (ياروسلو) الى بلدة صغيرة أخرى على الحدود الهنغارية ، لا يهم ذكر اسمها ، فأن الزرين فى السترة الواحدة لا يمكن أن يتشابها أكثر من تشابه قرى الريف النمسوى (التى تعسكر فيها فرق الجيش) ، الواحدة بالأخرى .. ففى كل منها ما فى الأخرى من مؤسسات عسكرية ، وثكنات للجنود ، ومدرسة للفروسية ، وساحة للاستعراض ، ومطعم للضباط ، يضاف الى ذلك ثلاثة فنادق ، ومقهيان ، وحانوت للحلوى ، وحانة للخمر ، وصالة موسيقى قذرة فيها بضع نسوة رخيصات يقسمن أنفسهن بالعدل والقسطاط بين رواد الصالة من الضباط والمدنيين . وأينما حل العسكريون فى معسكرات الأقاليم تكون حياتهم نهبا للملل والسآمة والتشابه الرتيب ، سواء فى أوقات عملهم أو فراغهم ، ففى « ميس » الضباط تجد الوجوه نفسها ، والأحاديث نفسها ! .. وفى المقهى تجد العاب الورق والبلياردو وما اليها ، هى هى فى كل حين !

على أن القرية التى عسكرنا فيها هذه المرة كانت تمتاز عن سابقتها بميزة كبيرة ، هى وقوف القطارات السريعة بمحطتها الصغيرة ، القريبة من (فيينا) ومن (بودابست) فى وقت واحد ، بحيث يستطيع كل من يملك مالا – وما أكثر أبناء الأغنياء فى سلاح الفرسان – أن يستقل قطار الساعة الخامسة مساء الى فيينا ثم يعود فى قطار الثانية صباحا ، وهى فترة تكفى لأن يذهب الى المسرح أو يتسكع فى حى (رنجستراس) ، أو يستمتع باحدى مغامرات الهوى العابرة ! .. بل أن بعض الزملاء كان له حظ استئجار مسكن دائم فى العاصمة لمثل هذه الأغراض !

على أن هذه الرحلات المروحة عن النفس كانت فوق

طاقة ايرادى الشهرى ، لسوء الحظ ، فلم يكن فى استطاعتى غير ارتياد المقهى أو حانوت الحلوى ، ولعب البلياردو أو الألعاب الأرخص منها كالشطرنج .. أما ألعاب الورق فكانت باهظة التكاليف ، فلم يكن لى بد من تجنبها !

وفى ذات مساء – حوالى منتصف مايو سنة ١٩١٤ – كنت جالسا فى حانوت الحلوى مع صيدلى القرية ونائب العمدة ، وكنا قد فرغنا من مبارياتنا الثلاث التقليدية فى الشطرنج ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . لكن حديثنا كان قد بدأ يفتر ويتباعد ، كما يتضاءل عقب السيجارة ! **وفجأة فتح الباب ودلفت منه لفحة هواء ، أعقبتها فتاة جميلة سمراء ، ذات عينين لوزيتين ، ترتدى ثوبا أنيقا لا يدع مجالا للشك فى أنها من غير سكان الأقاليم !**

كانت « وجها جديدا » بالنسبة لنا فى ذلك المنفى اللعين ، لكنها لم تتعطف علينا بنظرة حين رفعنا أعيننا نحوها فى اعجاب ورهبة ، وانما سارت فى خطى رشيقة عبر الموائد ، متجهة رأسا الى صاحب المحل . وهناك راحت توصى على كميات كبيرة من أصناف الحلوى وزجاجات « الليكير » والمشروبات الفاتحة للشهية .. وأدهشتنى الطريقة التى انحنى بها الرجل لها تأدبا واحتراما ، فضلا عن نهوض زوجته من مقعدها خلف الخزانة ومسارعتها اليها لتتلقى توصياتها وهى تكاد تذوب توقيرا .. وطبعا لم تحمل الشابة الفاتنة يديها الجميلتين شيئا من المشروبات ، ولا دار بخاطرها أن تدفع الثمن نقدا كما يفعل أمثالنا .. فأدركنا توا أنها ولا شك عميلة ممتازة ، رفيعة المقام !

وحين همت بالانصراف ، خف « هر جروسماير » ليفتح لها الباب ، كما نهض صديقى الصيدلى وانحنى تحية لها وهى مارة بنا ، فردت له التحية فى جلال فاتن ! .. يا لله ! **ما أجمل رقعتى القطيفة السمراء المدعوتين عينيها ! وانتظرت**

في صبر نافد حتى خرجت محملة بتحيات الوداع المعسولة ، ثم انهلت على صاحبي الصيدلي استفسارا عن هـذه ((البجعـة)) الممتازة في بركة ((البـط)) التي نعيش فيها ، فهتف لى قائلا فى دهشة : ((أتعنى أنك لا تعرفها ؟ انها ابنة أخت الهر فـون كيكسفالفا .. أنت تعـرف طبعـا أسرة كيكسفالفا ؟))

وقد ألقى الى بالاسم وكأنه يلقى قطعة نقود ذات رنين فضى أو ذهبى ، متوقعا أن أجيبه بالايجاب .. فلما ذكرت له اننى حديث عهد بالنقل الى البلدة ، اندفع يفيض فى امدادى بالمعلومات عن الأسرة الـكبيرة صاحبة ذلك الاسم المرموق ، فقال ان الهر كيكسفالفا أغنى رجل فى المنطقة ، ويكاد يمتلك كل شيء فيها ! .. وهو الى جانب ضيعته الواسعة وقصره الأصفر الشامخ ذى البرج المسطح والحديقة الغناء ، يملك مصنعا ضخما للسكر ، ومطحنا للغلال ، ومزرعة لتربيـة الجياد ، وهذا عدا ما يملك من المبـانى الضخمة فى كل من فيينا وبودابست ! .. وهو يعيش فى الشتاء فى قصر آخر له فى العاصمة ، ويقضى أشهر الصيف متنقلا بين مدن المياه المعدنية والشواطىء المختلفة .. أما قصره الريفى هنا فلا يفتح فى غير أشهر الربيع المعدودة .. وحـدث ولا حرج عن المعيشة المترفة الفاخـرة التى يحياها . أنه ـ باختصار ـ ينعم بأحسن شيء ، فى كل شيء !

ثم أضاف محدثى الصيدلى الى ذلك أنه ـ بحكم مهنته ـ على صلة طيبة بهذا الثرى الـكبير ، وفى استطاعته ، بكلمة واحدة منه ، أن يجعلنى أتلقى من الرجل دعوة الى احـدى سـهراته ، ولا سيما أن ((الهر كيكسفالفا)) يرحب دائمـا باستقبال الضباط فى بيته .

وتلقيت هذا العرض مغتبطا شاكرا ، ولا عجب فى ذلك ، فان الأشهر القليلة التى قضيتها فى تلك القرية كانت كافيـة

للالمام بكل ملاهيها المحدودة ، ولرؤية جميع نسائها اللواتي يتنزهن فى الطرقات ، حتى لقد كدنا نعرف ثياب كل واحدة منهن ، وقبعاتها المختارة للصيف والشتاء ، بل كدنا نعرف كلابهن ، وخادماتهن ، وأطفالهن ! .. هذا الى تبرمنا جميعا بألوان الطعام التى يعدها فى « الميس » طاهيه البوهيمى البدين ، والى تشابه الألوان التى تقدم بالفندق .. وحفظنا عن ظهر قلب أشكال واجهات العرض فى كل متجر ، فى كل شارع ، وشكل كل مبنى من مبانى البلدة التى لا تزيد على ستمائة بيت أو سبعمائة !

وعدا ذلك كله ، كان كل منا قد عرف على وجه الدقة ـ مثله مثل « يوجين » رئيس السقاة ـ فى أى موعد يحضر كل واحد من رواد المقهى الدائمين ، وعلى أى مقعد يجلس ، وأى شراب يطلب .. كما خبر كل وجه ، وكل جواد ، وكل حوذى ، وكل متسول ، فى المنطقة كلها .. بل لقد خبر كل منا نفسه حتى ملها وسئمها ! .. فلم لا أفر من هذه الطاحونة الرهيبة ، ولو مرة ؟ .. ثم هناك تلك الفتاة الجميلة ، ذات العينين اللتين تشبهان القطيفة السمراء ! .. ومن ثم قلت لمحدثى ، فى فتور متكلف : « انه يكون من دواعى سرورى أن أتعرف الى أسرة كيكسفالفا ! »

.. ولم ينقض يومان حتى أنجز صاحبى الصيدلى وعده ، فأعطانى بطاقة دعوة مطبوعة كتب عليها أسمى بخط دقيق أنيق ، وكتب تحته بالخط نفسه : **« الهر لايوس فون كيكسفالفا ، يلتمس متعة رفقة الملازم الثانى الهر انطون هوفميلر على مائدة العشاء ، فى الساعة الثامنة من مساء الأربعاء القادم »**

ولما لم أكن جاهلا ـ والحمد لله ـ بآداب اللياقة ، فقد توجهت فى صبيحة يوم الأحد ، فى أبهى حلة وأنظف مظهر ، كى أؤدى لمضيفى زيارة التعارف التقليدية .. وناولت رئيس

الخدم هناك بطاقتى ، فتناولها فى أدب واحترام ، ثم غمغم قائلا : « ان الأسرة كلها سيكون أسفها شديدا على أنها لم تحظ باستقبال « سيدى الملازم » ، فان أفرادها جميعا ذهبوا الى الكنيسة ! » .. وهكذا عدت من هناك وأنا أغبط نفسى على خلاصى من حرج الزيارة الأولى التقليدية !

● ●

ذهبت الى المعسكر فى صبيحة يوم الثلاثاء ، فوجدت فى انتظارى بطاقة معقوفة الطـــرف تركها لى « الهر فون كيكسفالفا » ، ردا لزيارتى .. فسرنى هذا الاهتمام الذى ما كان ليلقاه من مثله « جنرال » فى الجيش ـ لا ملازم ثان ! ـ وبدأت أتطلع الى سهرة الأربعاء المرموقة فى لهفة شديدة ، أخذت تزداد من ساعة لأخرى !

على أن القدر القاسى بدأ يناوشنى منذ البداية ! ففى منتصف الساعة الثامنة من مساء الليلة الموعودة ، كنت قد أكملت ارتداء أفخر ما عندى من ثياب ، بعد أن عنيت عناية مضاعفة بحلاقة ذقنى ، وأمرت « المراسلة » بتلميع حذائى ، وسكبت بضع قطرات من ماء الكولونيا على شاربى ، وارتديت بنطلونا مكويا كحد الموسى ! .. وفجأة طرق باب حجرتى أحد الجنود ، ثم دخل مضطربا لينبئنى بأن صـديقى الضابط النوبتجى يلتمس منى أن أهرع لنجـدته ، فقد تشاجر ضابطان ثملان وضرب أحدهما الآخر بقبضة البندقية على رأسه فألقاه على الأرض مغشيا عليه والدم ينزف من فمه المفتوح . ولما كان طبيب المعسكر متغيبا ، وكذلك قائد الفرقة ، فان صديقى المسكين ـ لعنة الله عليه ـ يطلب منى معاونته فى الخلاص من المأزق والعثور على طبيب من المدنيين فى أسرع وقت ممكن لاسعاف المصاب !

ونظرت فى الساعة فاذا بموعد الحفـلة لم يبق عليـه الا ربع ساعة ! .. وأدركت استحالة وصولى الى قصر مضيفى

فى الموعد المحدد اذا تأخرت عن الخروج خلال خمس دقائق ! لكنى فى الوقت نفسه أدركت أن الواجب ، المتغلغل فى عروقنا نحن العسكريين ، يأتى فى المرتبــة الأولى قبل أى التزام شخصى .. ومن ثم لم يسعنى الا أن التمس المخرج الوحيد من مثل هذا المأزق السمج ، فأرسلت جندى المراسلة فى سيارة استأجرتها بأربعة ريالات ، كى يعتذر لمضيفى عن اضطرارى الى التأخر عن الموعد قليلا ، لظرف طارىء خطير !

وعددت من حسن حظى بعد ذلك أن استطعت نفض يدى من المهمة التى عاقتنى ، بعد دقائق معــدودات ، على أثر وصــول الطبيب وقائد المعسكر على غير انتظار . لـكنى فوجئت بعقبة أخرى جديدة ، اذ لم أجد سيارة فى الموقف القريب ، فاضطررت الى طلب عربة بالتليفون ! .. وهكذا وصلت أخيرا أمام بوابة القصر الرائعــة وقد بلغت الســاعة منتصف التاسعة تماما ، ورأيت حجرة المعاطف وقد اكتظت بمحتوياتها ..

وقادنى الى صالون القصر الكبير خادم أنيق وقور يرتدى سترة رسمية ، ويداه فى قفــاز أبيض . وكانت قاعة هــذا الصالون غاية فى الفخامة وحسن الرواء ، ولهــا أربع نوافــذ كبيرة أسدلت عليها ســتائر من الحرير الأحمر ، وتوهجت فى سقفها وأركانها الثريات البللورية الثمينة ! .. وقد تبينت فى قلق واضطراب أن القاعة خالية تماما من الضيوف ، ووصلت الى سمعى أصوات الأطباق وأدوات المائدة منبعثة من القاعة المجاورة ، قاعة الطعام ! ومضى الخادم ففتح الباب الداخــلى المؤدى الى هذه القاعة الأخرى ، **فحزمت شجاعتى ودلفت الى عتبتها ، حيث طرقت الأرض بكعبى وانحنيت محييا . وسرعان ما صوبت الى وجهى عشرات من العيون ، وكلها غريبة على ، تتساءل من يكون القادم المتأخر ، الذى تسمرت قدماه على عتبة الباب ! ثم نهض سيد متقــدم فى السن ، رجحت أنه**

صاحب الدار ، فألقى منشفته على عجل وهرع نحوى ، مادا يديه الى فى ترحيب بالغ !

وصدمنى أن أراه على غير الصورة التى توقعتها : فبدلا من أن يكون بدينا مستدير الوجه ، مفتول الشارب ، تبين عليه نعمة الثراء والمعيشة المترفة ، ألفيته ـ على العكس ـ نحيلا ، محنى الظهر قليلا ، متعب العينين ، يضع على عينيه نظارة ذهبية الاطار ، وفى صوته بحة متخلفة من سعال ، وله لحية بيضاء هزيلة توحى لمن يراه ، بالاضافة الى قسماته المرهفة ، أنه أمام أستاذ فى جامعة !.. واذ شرعت فى تكرار اعتذارى ، قاطعنى الشيخ النبيل مؤكدا تقديره لعذرى ، شاكرا لى عناء ارسال رسول خاص يوضح ذلك العذر .. ثم أردف قائلا : « سوف يسعدنى أن أقدم السيد لكل من حضرات الضيوف على حدة بعد العشاء ، لكن ابنتى سيسعدها ـ كما يسعدنى ـ أن أقدمك لها الآن بلا ابطاء ! » .. ثم قادنى اليها ، فرأيت فتاة دون العشرين ، شاحبة ، مرهفة ، واهنة الجسم مثله ، ترفع نحوى عينيها الغبراوين فى خجل .. فانحنيت محييا اياها تحية خاصة ، أعقبتها بتحية سريعة شاملة للمدعوين جميعا .. ثم جلست فى المقعد الذى قدم لى .

وخلال الدقائق الثلاث الأولى ، كان شعورى بالحرج مازال يلازمنى !.. لم يكن حولى شخص واحد من زملائى فى الفرقة ، أو ضابط واحد فى الجيش ، أو أى انسان أعرفه من أهل البلدة أو غيرهم ! وانما كانت جميع الوجوه غريبة على ، ولم يكن بينهم من يرتدى سترة رسمية سواى ! يا الهى !.. كيف أستطيع أنا الخجول أن أتحدث الى كل هؤلاء الغرباء ؟

وتلفت الى يمينى ، فاذا بالجالسة الى جوارى هى تلك الحسناء الرائعة ، ابنة أخت مضيفى !.. ويبدو أنها لاحظت نظرة الاعجاب التى رمقتها بها فى حانوت الحلوانى قبل أيام ،

فقد ابتسمت لى ابتسامة ودية كما لو كانت تعرفنى منذ زمن . **كانت عيناها مثل حبات البن ، وحين تضحك كأننا كأنما تحدثان صوت البن أثناء « تحميصه » على النار !.. وكانت لها اذنان صغيرتان تكادان تكونان شفافتين ، تختبئان تحت ثروة كبيرة من الشعر الفاحم الغزير ، ولها ذراعان عاريتان خيل الى أن ملمسهما لابد يشبه ملمس الخوخ المقشور !**

كان جميلا أن أجلس بجانب مثل هذه الحسناء ، ولاسيما أنها كانت تتحدث بلهجة هنغارية ناعمة .. كما كان جميلا أن أتناول العشاء فى قاعة تتألق أنوارها الباهرة ، حول مائدة حافلة بأطيب الطعام وأفخره ، وقد وقف ورائى ساق خاص يخف الى عند أول اشارة !.. حتى جارتى الأخرى التى تجلس الى يسارى ، وكانت تتكلم بلهجة بولندية ، لم تكن تنقصها الفتنة !.. أم لعل الخمر هى التى أوحت الى بذلك ؟

وكانت الخمر نبيذا دمويا قاتما ، و « شمبانيا » ذهبية براقة ، راح السقاة ذوو القفازات البيضاء يصبونها فى سخاء عجيب من أباريق فضية جميلة .. حقا ! ان صديقى الصيدلى الطيب لم يكن يهذى حين قال لى أن « آل كيكسفالفا » يعيشون معيشة الأمراء !

وبعد انتهاء الطعام ، الذى بدا كأنه بلا نهاية ، سال فى الكؤوس « قوس قزح » من المشروبات الخفيفة « الليكير » : خضراء ، وحمراء ، وبيضاء ، وصفراء .. وأعقبها السيجار السميك الفاخر ، ثم القهوة الشهية !

●●

وتولانى انشراح عجيب ، لم أدر أكانت علته أن الآخرين ــ الذين الى يمينى ويسارى وأمامى ــ قد بدت عيونهم ملتمعة ببريق النشوة ، وارتفعت أصواتهم فى الحديث ، وطرحوا الوقار جانبا ، كما ألقوا بالتحفظ الى الرياح الأربع وأخذوا

يصخبون بملء حريتهم ؟.. على أية حال ، فانى وجدت حيائى الفطرى قد تبخر ، فشاركت فى الصخب بغير أدنى اجفال . وبدأت أتودد الى كل من جارتى الجميلتين ، فى نشاط لا يعادله غير نشاطى فى الشرب والضحك !.. ثم أخذت أنظر حولى بعينين طائشتين نزقتين ، وبرغم ان المصادفة وحدها قد تكون المسئولة عن احتكاك يدى فى خفة - بين الحين والحين - بذراع ((ايلونا)) العارية الرائعة (فقد كان هذا اسم ابنة الأخت الحسناء الشهية) ، فانها لم تبد أية بادرة من بوادر الاستياء أو الضيق .. بل تركت هى الأخرى نفسها على سجيتها ، فتحررت مثلنا جميعا من أكثر القيود !

وأثر تتابع المشروبات الجيدة المعتقة فى جوفى ، فأحسست - تدريجا - شيئا من الخفة يكاد يغرينى بالاندفاع والصخب لتكتمل نشوتى ، وشعرت كذلك بالحنين الى شىء لم أدر على التحقيق ما هو ، ثم فتحت الأبواب المؤدية الى قاعة ثالثة خلف الصالون ، فانسابت الينا موسيقى ناعمة ، ذات الموسيقى التى كان يتوق اليها قلبى ، ويتحرق كيانى شوقا اليها : موسيقى رقصة الفالس السماوية ، تشارك فى عزفها الكمان والبيانو معا !

ونهضنا عائدين الى الصالون ، أزواجا أزواجا ، فأعطيت « ايلونا » ذراعى . ومرة أخرى أحسست ببشرتها الباردة الناعمة المثيرة ، ووجدنا القاعة قد أخليت مناضدها ، فبدأ خشب الأرض « الباركيه » الناعم كالمرآة المجلوة ، يدعو الى الرقص ويغرى به .. فالتفت الى ايلونا ، فضحكت ، وقرأت فى عينيها أنها موافقة على الرقص معى . وسرعان ما كنا نطير فى الهواء دائرين حول أنفسنا فى حلقات واسعة ، ثم تكاثر الراقصون تدريجا ، بينما جلس الشيوخ والمتحفظون يتفرجون ويثرثرون . وكنت أعشق الرقص وأتقنه ، لكنى لم أرقص من قبل بمثل البراعة التى أبديتها فى تلك الليلة !..

وفى الرقصة التالية شاركت جارتى الثانية ، فانتشت حواسى وأنا منحن عليها أتنفس عطر شعرها ، وشعرت بسعادة لم أتذوقها منذ سنوات ، وازددت احساسا بشبابى ، ثم استخفنى ميل قوى الى أن أقبل كل شخص حولى ، ومضيت أراقص الحاضرات واحدة بعد أخرى .. وثرثرت ، وضحكت ، وفقدت كل احساس بالزمن !

الفصل الثانى

سقطة خرقاء

● **وفجأة** حانت منى نظرة الى الساعة ، فاذا هى العاشرة والنصف ، فأدركت أن قد انقضت على ساعة وأنا أرقص وأمزح وأضحك ، دون أن أدعو ابنة مضيفى للرقص ! وأخذتنى الحيرة ، ولم أدر كيف فاتنى هذا الواجب الذى تفرضه اللياقة .. ثم درت ببصرى باحثا عنها بين الحاضرات ، كى أتدارك ما فاتنى ! **ولكنى تذكرت أنى لا أكاد أعرفها ، فكل ما أذكره عنها ـ من النظرة الخاطفة التى رمقتها بها حين قدمنى لها والدها على المائدة ـ انها شاحبة الوجه ، نحيلة الجسم ، ذات عينين غبراوين ! ولم أجد الفرصة الكافية للتحديق فى كل واحدة من عشرات المدعوات ، وهكذا كدت أيأس من تمييز فتاتى المنشودة !** .. وأخيرا خطر لى أن أتجه الى القاعة الثالثة ، حيث كانت جوقة الموسيقى تعزف من وراء ستارة من الطراز الصينى . وما كدت أدخل هذه القاعة حتى تنفست الصعداء ، فقد وجدتها هناك ، بقوامها المرهف النحيل وثوبها الأزرق الفاتح ، جالسة بين سيدتين عجوزين ، وراء منضدة خضراء عليها آنية مليئة بالأزهار .. وكان رأسها منحنيا قليلا ، كأنما هى تصغى بجماع روحها الى الموسيقى . ولم أضيع وقتا فى التأمل ، بل اتجهت رأسا الى حيث تجلس وانحنيت لها فى تأدب ، انحناءة الدعوة الى

الرقص ، فرفعت نحوى عينين اختلطت فيهما الدهشة بشيء من الذعر ! وظلت شفتاها منفرجتين قليلا ، كمن قطع الاستغراب حديثها ، لكنها لم تبد أدنى حركة تنم عن تأهبها لأن تتبعنى الى حلبة الرقص ! .. ومن ثم انحنيت لها مرة أخرى وأنا أقول : « هل لك أن تمنحينى شرف هذه الرقصة يا آنسة ؟ »

.. وكان جوابها مروعا حقا ! فسرعان ما ارتد رأسها مع كتفيها الى الخلف فى عنف وذعر ، كأنها تتجنب صدمة ، واندفع الدم الى وجنتيها الشاحبتين ، وتلاصقت شفتاها فى قوة و حدة .. ولم يبق بلا حراك فى وجهها غير عينيها اللتين ارتسمت فيهما نظرة رعب لم أصادفها من قبل فى حياتى !

وفى اللحظة التالية هزت جسمها المنفعل قشعريرة قوية ، وبكلتا يديها اتكأت على المنضدة ورفعت نفسها بقوة جعلت آنية الزهر تهتز فى مكانها بشدة ، فى الوقت الذى سقط فيه من مقعدها على الأرض شيء صلب ـ من الخشب أو المعدن ـ محدثا فى ارتطامه بالأرض صوتا قويا !.. وظلت متعلقة بالمنضدة المتأرجحة على هذا الوضع نحو نصف دقيقة ، وجسدها يهتز وينتفض بشدة ، من أخمص قدميها الى جذور شعرها ، من فرط المجهود اليائس الجبار الذى بذلته .. وفجأة انفجرت تنشج باكية ، فى حرقة ضارية بهيمية !

وكانت المرأتان المسنتان قد أحاطتا بها تحتضنان جسمها المرتعش وتدللانها ، محاولتين تهدئتها ونزع يديها ـ المتشبثتين بالمنضدة ـ فى رفق .. حتى سقطت بين أيديهما وغاصت فى مقعدها من جديد .. لكن بكاءها استمر ، بل ازداد حدة ، فى نوباته المتقطعة الشبيهة بنزيف من الدم ، أو نوبة من قيء شديد ، بحيث لو توقفت الموسيقى لحظة لبلغ صوت النشيج مسامع الراقصين !

ووقفت فى مكانى مشدوها ، ورحت أسائل نفسى : ترى

ماذا حدث ؟! ونظرت فى قلق وحيرة الى المرأتين ، والى الفتاة الباكية التى مازالت تنتحب ، مخفية وجهها بين يديها فوق المنضدة ، وجسمها يهتز فيهز معه آنية الزهر ، مما زاد فى قلقى ، حتى لقد أحسست فى أطرافى برودة كالثلج ، وخنقتنى ياقة قميصى كما لو كانت حبلا محرقا يلهب رقبتى .. وأخيرا وجدت صوتى لأقول متلعثما : « أرجو المعذرة ! » ، ثم انسحبت متعثرا الى الصالون !

.. وكان الرقص محتدما فيه كما كان ، وقد بدا أن أحدا لم يلحظ شيئا مما حدث ، فانزويت فى ركن أسائل نفسى فى حيرة : « هل ارتكبت حماقة ما ؟! لابد أنى ثملت بحيث فعلت شيئا رهيبا ، دون أن أشعر ! » .. ولم يكد الرقص يتوقف ، وتنفصل « ايلونا » عن مراقصها ، حتى جذبتها من ذراعها ـ فى شىء من الخشونة ـ الى ركن قصى ، وأنا أهتف بها : « بربك ساعدينى .. أناشدك .. أوضحى لى ! » .. وتدافعت نبضات قلبى وأنا أروى لها القصة بحذافيرها .. وشد ما أذهلنى أن ارتسم فى عينيها مثل الذعر الذى رأيته فى حدقتى ابنة خالها ، ثم صاحت بى :

ـ هل جننت ؟.. ألا تعلم ؟.. ألم ترها ؟

فقلت لها وقد غاص قلبى جزعا من نظرتها :

ـ كلا !.. لم أر شيئا ، ولست أفهم شيئا .. انها أول مرة أدخل فيها هذا البيت !

فأردفت : « ألم تلحظ أن « أديث » كسيحة ؟ أما رأيت ساقيها المشلولتين العاجزتين ؟ انها لا تستطيع أن تخطو خطوتين بغير عكازيها ! وأنت .. أنت تذهب فتدعو الطفلة المسكينة الى أن ترقص !.. أوه !.. هذا فظيع ! يجب أن أذهب اليها من فورى ! »

وأمسكت « ايلونا » من ذراعها وقلت لها فى توسل :

ـ على رسلك هنيهة ، أرجو أن تحملى اليها اعتذارى .

لم يكن فى وسعى أن أعرف .. لم أرها الا لحظة واحدة أثناء العشاء !.. أرجو أن توضحى الأمر لها ! »

لكن ايلونا انتزعت ذراعها من يدى غاضبة وهرعت الى القاعة المجاورة ، بينما وقفت أنا على عتبة الصالون الذى يموج بالصخب ، وقد بدا لى فى تلك اللحظة سمجا لا يحتمل ، وجعلت أحدث نفسى وقد غص حلقى وجف لعابى : **« لن تنقضى خمس دقائق حتى يعرف الجميع أمر هفوتى الشنعاء، وحينئذ يغمروننى بنظرات الازدراء والسخرية .. وغدا تصبح غلطتى موضوع أحاديث أهل البلدة جميعا ، طعاما دسما لمئات الألسنة الخبيثة ، يوزع على الابواب مع لبن الصباح !.. وغدا تعرف الفرقة بأسرها قصتى ! »**

وفى تلك اللحظة لمحت والد الفتاة مقبلا ، فاشتد خفقان قلبى ، وساءلت نفسى حائرا قلقا : « ترى هل علم بما حدث ؟ وهل هو مقبل نحوى ؟.. كل شىء أهون عندى من أن ألقاه ! »

وتملكنى بغتة خوف قاتل منه ، ومن الحاضرين جميعا ! .. ودون أن أعرف ما أنا فاعل مضيت متعثرا نحو الباب المؤدى الى البهو ، ومنه الى خارج البيت .. الذى تحول فى نظرى الى قطعة من الجحيم !.. وسألنى حارس الباب مستغربا ، فى لهجة تنطوى على الاحترام : « هل يزمع سيدى الملازم أن يغادرنا هكذا مبكرا ؟ » .. فأجبته من فورى : « نعم » .. لكن الكلمة لم تكد تخرج من فمى ، ويتأهب الرجل لمعاونتى على ارتداء معطفى ، حتى أدركت بوضوح أننى أرتكب بالفرار على هذه الصورة المنطوية على الجبن حماقة جديدة لا تغتفر ! على أنى لم أستطع التراجع ـ وقد فات أوانه ! ـ ولم يسعنى ، والحارس يفتح لى الباب ، أن أكر راجعا وأعيد اليه المعطف ثم أعود الى الصالون !

وهكذا وجدت نفسى فجأة واقفا خارج ذلك البيت اللعين ، تسفح الريح الباردة وجهى ، ويحرق الخجل قلبى ،

وأنفاسى اللاهثة تتردد متقطعة بصعوبة ، كأنى أوشك أن أختنق !

●●

تلك هى السقطة الخرقاء التى كانت بداية الأمر كله !.. والآن ، حين أعود بخيالى الى الوراء ، فى هدوء الذكرى البعيدة التى مرت عليها أعوام طويلة ، وأستعرض الحادث البسيط الذى أدى الى سلسلة من الأحداث المفجعة ، لا أملك غير أن أقرر - انصافا لنفسى - أننى كنت بريئا كل البراءة من مسئولية ذلك الحادث .. ان أذكى البشر ما كان له فى مثل موقفى أن يتفادى دعوة الفتاة الى الرقص ، ما دام لا يعلم أنها مشلولة ، لكنى فى غمرة الفزع الأولى عددت نفسى أحمق متهورا ، بل وغدا مجرما ! شعرت كما لو كنت قد جلدت طفلا بريئا بسوط !

ولا شك أن الأمر كله كان يمكن أن يعالج بشىء من حضور البديهة ، أما أن أفر من المكان ، كالمجرم الجبان ، دون أن أحاول الاعتذار أو الاعراب عن أسفى ، فهذا ما أفسد الأمر كله .. وقد تبينت ذلك بوضوح فى اللحظة التى وطأت فيها قدماى أرض الطريق ولفح الهواء البارد وجهى !

لست أستطيع أن أصف حالتى النفسية وأنا واقف خارج الدار ! كانت الموسيقى وراء النوافذ المضاءة قد توقفت ، كى يأخذ العازفون قسطا من الراحة دون شك ، **لكنى من فرط شعورى المحموم باثمى حسبت أن الرقص قد توقف بسببى ، تصورت أن المدعوين جميعا قد تقاطروا الى حيث جلست الفتاة الباكية كى يخففوا عنها مصابها ، وراحوا يستمطرون اللعنات على الفاجر الأثيم الذى دعا فتاة كسيحة الى الرقص ، ثم انسحب عقب فعلته الشنعاء فى جبن ونذالة !** .. وكان هذا التصور وحده كافيا لتصبب العرق البارد من جبينى ! ولم أشك فى أن فضيحتى هذه ستصبح موضع تندر

أهل البلدة جميعا ، ولن تتعب ألسنة زملائى فى الجيش من أن تلوك سيرة زميل لهم متى سمعوا بسقطته الطريفة هذه !

وليس فى وسعى أن أتذكر الآن كيف بلغت مخدعى فى تلك الليلة ! .. كل ما أذكره أننى ما كدت أدخله حتى هجمت على خزانة كنت أحتفظ فيها بزجاجة من الكونياك لأقدم منها لمن يزورنى من الأصدقاء ، فتجرعت أكثر من نصفها جرعة بعد جرعة ، بغية التخلص من شعور الغثيان الفظيع الذى كنت أحسه ... ثم ارتميت على الفراش بثيابى كاملة ، ورحت أسترجع الأمر كله فى ذهنى !

وكما تنمو الأزهار نموا سريعا حين توضع فى منابت من الزجاج ، كذلك تزدهر الأفكار الضارية المجنونة فى الظلام !.. ومن ثم أخذت تطوف بذهنى المكدود أغرب الرؤى والخيالات، فيما يشبه الحلم المخيف أو الهذيان السخيف !.. وتتابعت على مخيلتى أحداث المستقبل المتوقعة : التحقير مدى الحياة، والنبذ من المجتمع ، والسخرية من الزملاء ، والثرثرة من أهل البلدة .. وهكذا لن أستطيع الخروج الى الطريق ، خشية الالتقاء بواحد من الذين يعرفون بجريمتى !

وحين دهمنى النوم أخيرا ، كان نوما خفيفا متقطعا ، تتخلله الرؤى المفزعة . ولم أكد أفيق منها حتى عاودتنى صورة الوجه الصبيانى الباكى ، والشفتين المختلجتين ، واليدين المتشبثتين بالمنضدة فى تشنج عصبى .. وخلتنى أسمع صدى سقوط ذلك الشىء الصلب على الأرض ، الشىء الذى أدركت فيما بعد أنه عكاز الفتاة ! .. وتملكنى رعب جنونى من أن يفتح بابى فجأة ويدخل منه رجل نحيل طويل ، بسترة سوداء ونظارة باطار مذهب ، هو والد الفتاة !.. فقفزت من فراشى فزعا .. واذ نظرت الى نفسى فى المرآة ، ورأيت عرق الندم والخوف على وجهى ، راودتنى رغبة ضارية فى أن أحطم ذلك الوجه الغبى الأحمق : وجهى !

لكن النهار الرحيم طلع أخيرا .. وبدأ صدى الخطى العسكرية يتردد فى الممر .. وحين يشرق ضوء النهار من نافذتك ، تصفو أفكارك أكثر منها وأنت غارق فى الظلمة الخبيثة التى يلذ لها أن تخلق لك الأشباح .. فوجدتنى أهون على نفسى وقع الحادث : من يدرى ، ربما لم يتنبه اليه أحد ! لكنها هى ، تلك المخلوقة البائسة الكسيحة ، انها حتما لن تنساه ، ولن تصفح يوما !.. وفجأة ، برق فى ذهنى خاطر فيه شىء من العزاء ، فسارعت الى اصلاح هندامى وتهذيب شعرى ، واندفعت من غرفتى كالسهم المنطلق ، غير عابىء بتابعى « المراسلة » الذى راح ينادينى صائحا : « سيدى الملازم .. « هر لفتننت » .. القهوة معدة ! » . لكنى مضيت أنهب السلالم نهبا ، وأصطدم بكل من يعترض طريقى .. حتى خلفت المعسكر ورائى ورحت أعدو صوب أقرب حانوت تبيع صاحبته الخضروات والأزهار معا ، وكانت أمامه عربة بطاطس قد أفرغ نصفها .. فاختلقت للمرأة عذرا كاذبا يبرر عجلتى وأوصيتها باعداد سلة من أحسن ما عندها من زهور ، غير عابىء بأن ثمنها يستنفد كل ما تبقى لى من مرتبى الشهرى .. بل انى وجدت لذة غامضة فى أن أعاقب نفسى ، وأكفر عن فعلتى تكفيرا غاليا !

وبعد أن غادرت الحانوت وسرت مبتعدا ، لحقت بى المرأة لاهثة متسائلة : « الى أين .. الى من ترسل الأزهار ؟ » . وكنت قد نسيت ــ فى غمرة انفعالى ــ أن أترك لها الاسم والعنوان ، فقلت لها : « الى فيلا كيكسفالفا .. الى الآنسة اديث فون كيكسفالفا » . فقالت المرأة فى اعتذار : « آه ، آل كيكسفالفا .. انهم خير عملائنا ! » . وهممت بالانصراف ، لكن المرأة عادت فسألتنى : « ألست تريد أن تكتب كلمة الى الآنسة المهدى اليها ؟ » .. فدخلت الحانوت من جديد ، وأخرجت من جيبى بطاقة كتبت عليها : « مع خالص

اعتذارى » . لكننى لم ألبث أن مزقتها ، قائلا لنفسى : « كلا ! هذه حماقة ثالثة ، لماذا أذكر الفتاة بسقطتى الشنعاء ؟ »

ماذا أكتب اذن ؟ .. هل أكتب « مع الأسف الخالص ؟ » .. كلا ! .. ولا هذه أيضا ، فقد تحسبنى أرثى لحالها ! .. ورأيت أخيرا ألا أكتب شيئا على الاطلاق ، فقلت لبائعة الزهور : « حسنا ! ضعى بطاقة باسمى فقط ! » .

وشعرت بالارتياح .. فعدت الى المعسكر ، حيث احتسيت قهوتى وانهمكت فى واجباتى العسكرية ، وان ظللت أحس كأن قطعة من الأسفنج المغموس فى المر تسد حلقى !

وعند الظهر ، وفيما أنا أتهيأ للذهاب الى مطعم الضباط ، أقبل تابعى يحمل الى خطابا : ظرفا أزرق ، تفوح منه رائحة عطر خفيف ، كتب عليه اسمى وعنوانى بخط رقيق ، خط امرأة ! .. ففضضته على عجل ، وقرأت فيه : **« خالص شكرى ، يا عزيزى الملازم ، من أجل هدية الزهور الجميلة التى لا أستحقها ، والتى اغتبطت – ومازلت مغتبطة – بها .. فأرجو أن تحضر لتناول الشاى معنا فى عصر أى يوم يناسبك ، ولا تكلف نفسك مشقة اخطارنا بموعد حضورك مقدما ، فانى – وا أسفاه – مقيمة دائما بالبيت . »**

« اديث ف . ك . »

قرأت الخطاب مرة ثانية وثالثة ، ثم تنفست الصعداء .. ما أحصف وألبق اللهجة التى بها مسحت الفتاة على جرحى ، ومنحتنى غفرانها ! .. وانتابنى شعور المتهم الذى وطن نفسه على صدور الحكم عليه بالسجن المؤبد ، حين يفاجئه القاضى بحكم البراءة !

وكان لابد من أن أزور الفتاة فى أقرب فرصة ، لأشكرها ، وكنا فى يوم الخميس .. اذن فلأذهب يوم الأحد .. كلا ، بل السبت ! .. ولم أطق صبرا على الانتظار ! كانت تطاردنى اللهفة على الاطمئنان الى أن اثمى قد محى الى الأبد ، وعلى

وضع حد للقلق الذى يساورنى ، والشك الذى يكتنف الموقف .. وكانت نتيجة هذا الانفعال النفسى أننى بينما كنت أتنزه مع أعز صديقين لى فى اليوم التالى ـ الجمعة ـ وجدتنى أصمم فجأة على تأدية زيارتى المرموقة فى اليوم نفسه ! فاستأذنت منهما على حين غرة ، ثم انطلقت فى سبيلى اليها .

كانت المسافة التى تفصلنى عن قصر كيكسفالفا تستغرق مسيرة نحو نصف ساعة مشيا على الأقدام ، فمضيت أغذ السير لا ألوى على شيء ، وما لاحت لى أسوار القصر البيضاء وبوابته الحديدية حتى بدأت شجاعتى تتبخر تدريجا ، فوددت لو أعود أدراجى قبل فوات فرصة الفرار .. ودون وعى منى أخذت أبطىء فى سيرى ، ثم تعمدت اطالة الطريق ، وافساح الفرصة ، بالالتفاف حول أسوار القصر من الخارج ، والقاء نظرة عليه من خلال الثغرات التى تتخلل السور .

كان القصر صرحا منيفا من طابقين ، مطليا باللون الأصفر ، على الطراز النمسوى القديم ، عدا نوافذه التى طليت أخشابها خضراء . وكان أقرب الى القصور الريفية التى رأيت بعضها فى أقاليم « بوهيميا » ، منه الى (الفيلات) العصرية !

وبلغت فى طوافى بوابة الدار ، للمرة الثانية ، فحزمت شجاعتى وسرت بين صفين من الأشجار السامقة الى الباب الأمامى ، ورفعت الطارق البرونزى الثقيل الذى يقوم فى الدور العتيقة مقام الجرس . وبعد لحظة أقبل كبير الخدم ، ولم يبد أنه فوجىء بزيارتى غير المتوقعة ، بل لقد تجاهل البطاقة التى أمسكتها فى يدى . ودون أن يوجه الى سؤالا ما ، دعانى بانحناءة مؤدبة الى الانتظار فى الصالون ، قائلا : « ان السيدات مازلن فى حجرتهن ، لكنهن سيحضرن فى خلال لحظات » .. ثم قادنى الى الداخل ، كما لو كانت زيارتى متوقعة !

وتذكرت فى شيء من الحرج وعدم الارتياح معالم الصالون

الذى قضيت فيه سهرتى الأولى المشئومة ، وذكرتنى مرارة فمى بأن الباب الذى فى مواجهته يقود الى القاعة التى كانت الفتاة تجلس فى ركن منها وقت « الحادث » !.. **ولكن ، أيقظنى من تأملاتى وذكرياتى صوت مقاعد تجر وراء الباب ، وهمسات مكتومة ، وحركة أقدام ذاهبة وآيبة ، تنم عن وجود بضعة أشخاص .. ثم ضجيج أطباق وأدوات للمائدة .. وأخيرا خيل الى ــ وقشعريرة باردة تسرى فى نخاعى ــ أنى أسمع صوت عكازين !**

ثم فتح الباب وبرزت منه ايلونا ، فبادرتنى قائلة : « كم هو ظريف منك أن تحضر يا هر لفتننت (سيدى الملازم) ! » ، ثم قادتنى رأسا الى الغرفة المجاورة .. وهناك ، فى الركن نفسه ، وعلى المقعد نفسه ، ووراء المائدة الخضراء بعينها ، جلست الفتاة المشلولة ، وقد غطت ساقيها بغطاء من الفراء الأبيض .. وابتسمت لى ابتسامة تحية ودية ، ورغم ذلك فانها كانت لحظة حرجة أليمة بالنسبة لكلينا ! ولم ينجح أحدنا فى أن يجد الكلمة الأولى التى تحطم الموقف الثلجى الذى اكتنفنا .. حتى قطعت « ايلونا » الصمت الخانق بقولها تسألنى :

ــ ماذا نقدم لك يا هر لفتننت ؟ الشاى أم القهوة ؟

ــ أوه ، أى شىء يروق لكما ..

ــ بل ما يروقك أنت ، ولا تدع للكلفة مقاما بيننا !

ــ اذن فلتكن القهوة ..

كانت ايلونا بارعة فى ازالة حرج اللحظة الأولى ، بذلك السؤال العملى ، ولكن لم يكن جميلا منها أن تترك الغرفة بعد ذلك كى تأمر باعداد القهوة ، فقد أدى ذلك الى تركى وحيدا مع « ضحيتى » !.. وكان لا بد من أن أقول شيئا ، أستأنف به الحديث ، بأى ثمن ! لكنى شعرت بجفاف فى حلقى وارتباك فى نظرتى .. فتنفست الصعداء حين ابتدرتنى

مضيفتى قائلة : « هلا جلسـت يا هر لفتننت ؟ هيا ، تناول هذا المقعد ذا الذراعين .. ولم لا تخلع سيفك .. أحسبنا لن نشتبك فى الحرب !.. ضـعه على المنضـدة أو على حافة النافذة .. حيثما تشاء ! » .

وجررت مقعدى ، وأنا ما أزال أحس بقيـة من حرج ، أنقذتنى منه الفتاة مستطردة : « أجد من واجبى أن أشكرك مرة أخرى من أجل أزهارك اللطيفة .. انها رائعة كما ترى .. ثم ينبغى أن أعتذر أيضا عن حماقة أجهاشي بالبكاء . كان مسلكى مخجلا حقا ، فلم أستطع النوم طيلة الليل من جرائه .. لقد كنت أنت حسن النية ، وما كان يمكن أن تكون لديك أدنى فكرة عن الحقيقة !.. ثم انك ــ وأطلقت ضحكة عصبية مباغتة ــ قد توصلت الى قراءة أعمق أفكارى فى تلك اللحظة ، فانى لم أحن الى شىء وقتئذ قدر شوقى الى المشـاركة فى الرقص .. انك لا تتخيـل كم أنا شـغوفة بالرقص ، حتى لأستطيع أن أظل ساعات طويلة أرقب الراقصين ، بلا ملل ، حتى أشعر كأنى أنا التى ترقص ، وتطير على أجنحة الأنغام !.. وقد كنت فى صباى أجيد الرقص ، ولعل ما أصابنى كان خيرا بالنسـبة لأبى ، فلولاه لفـررت حتما من البيت وأصبحت راقصة !.. فليس أروع من أن تثير الفنانة المئات والألوف من الناس بجسـدها ، وحركاتها ، وكيانها كله ، ليلة بعد ليلة ! .. انه مجد رائع حقا .. وانى أحتفظ لأعظم الراقصات ــ مثل بافلوفا ، وكارسافينا ، وساهاريه ــ بصور تمثلهن فى جميع رقصاتهن .. اليك هذه الصور ، انها فى الصندوق الصغير القريب من المدفأة .. لا ، لا ، الى اليسار ، بجوار المكتب .. نعم ، هذا بالضبط (وكنت قد عثرت عليه أخيرا وحملته اليها) .. أنظر هذه مثلا ، انها صورتى المفضلة : بافلوفا فى دور « البجعة المحتضرة » .. آه لو استطعت أن أراها فقط ، انه يكون أسعد يوم فى حياتى ! »



«.. وهناك ، فى الركن نفسه ، وعلى المقعد نفسه ، جلست الفتاة المشلولة ، وقد غطت ساقيها بغطاء من الفراء.. ولم ينجح أحد فى أن يجد الكلمة الأولى التى تحطم الموقف الثلجى الذى أكتنفنا ..»

وكان الباب الذى خلفنا بسبيل أن يفتح ، فسارعت « اديث » الى اغلاق صندوق الصور بحركة مفاجئة عنيفة ـ شأن من ضبطت ترتكب جرما ! ـ وهمست الى بلهجة آمرة : « ولا كلمة أمام الآخرين عما حدثتك بصدده .. ولا كلمة ! »
.. ثم دخل الخادم يجر عربة شاى محملة بأطيب المأكولات والحلوى ، تتبعه ايلونا ، التى أفرغت محتويات العربة على المنضدة ثم عادت الى مجلسها معنا .. وتشعب بيننا الحديث فى موضوعات مختلفة ، ووجدتنى أسترد تدريجا هدوئى وأثرثر معها على سجيتى .. بل انى استطعت أن أختلس ـ بين الحين والآخر ـ نظرات جانبية الى الفتاتين ، وأقارن برغمى بينهما : كانتا جد مختلفتين فى مظهرهما ، فاحداهما ـ ايلونا ـ امرأة ناضجة ، ممتلئة بالحيوية المثيرة ، مكتملة الصحة والنشاط .. بينما الأخرى ـ اديث ـ تبدو الى جانبها نصف طفلة ونصف امرأة ، فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، بينها وبين النضج مرحلة طويلة !.. كان التناقض بينهما صارخا ، يغرى المرء بأن يراقص الأولى ، ويقبلها !.. أما الأخرى فحسبه أن يلاطفها ـ بصفتها كسيحة ـ ويدللها ويحميها .. وقبل ذلك كله يصانعها ويجاريها ، فقد كانت عصبية الحركة ، لا تكاد تستقر على وضع ، كأنما تعوض بذلك جمود ساقيها !.. وكانت ـ بأسئلتها الكثيرة ولهجتها الخفيفة ـ تركز الانتباه فى شخصها دون غيرها ، وتضفى على الحديث جاذبية خاصة !

واستمرت جلستنا نحو ساعة ونصف ساعة ، ثم اطل من القاعة المجاورة شبح متلصص ، كأنما يخشى أن يزعجنا .. وكان هو الهر « كيكسفالفا » والد الفتاة ، ولما رآنى أهم بالوقوف تأدبا ، رجانى مخلصا أن أبقى حيث أنا ، ثم مال على جبين ابنته فطبع عليه قبلة ، واتخذ مجلسه بجانبها كما لو كان طبيبا يجلس الى مريضته . وحين لحظ أن جو

الحديث اعتراه شيء من الفتور والتحفظ ، حاول أن يعيد اليه طابع الألفة السابقة فتبسط فى سؤالى عن الفرقة وعن رؤسائى ، السابقين والحاليين ، وخيل الى أنه يتعمد أن يظهر لى مبلغ اختلاطه وقوة صلاته بهم جميعا ..

ورأيت أن زيارتى قد استنفدت هدفها ، وفقدت جاذبيتها ، فاعتزمت أن أبقى عشر دقائق أخرى ثم أنصرف .. **ولكن ، حدث فى تلك اللحظة أن أقبل رئيس الخدم وهمس فى أذن اديث بشيء ، فانفجرت صائحة فى وجهه : « دعه ينتظر .. بل قل له أن يتركنى اليوم وشأنى .. قل له أن يذهب . لست فى حاجة اليه ! »**

وأحسسنا جميعا بالحرج ازاء عنف لهجتها ، فنهضت وقد أدخل فى روعى أنى أطلت البقاء ، لكنها هتفت بى على الفور : « كلا !.. بل ابق .. لا تلق بالا الى الأمر . انه لا شيء ! » .. وكانت لهجتها الآمرة تنطوى على الخشونة ، الأمر الذى أشعر أباها بالحرج ، فصاح بها لائما : «أديث !» .. وكأنما أحست الفتاة بخروجها عن طورها ، فالتفتت الى معتذرة : « اغفر لى .. انه العذاب اليومى المألوف ، المدلك الذى يجرى لى تدليكا طبيا .. انها آخر مبتكرات طبيبنا العزيز ، وهو علاج عقيم ، كغيره ! » .. ونظرت الى أبيها فى تحد ، كأنما تعتبره المسئول .. فانحنى الشيخ المحطم عليها فى اضطراب ، وقد شعر بالخجل ولا ريب لوجودى ، وقال لها فى مذلة : « ولكن يا طفلتى العزيزة .. أتعتقدين حقا أن دكتور كوندور .. ؟ » ، واذ ذاك احمر وجهها وغمغمت فى رضوخ : « حسنا ، سأذهب ، رغم أنه أمر لا جدوى منه .. أرجو المعذرة يا سيدى الملازم ، وأرجو أن تأتى لزيارتنا ثانية فى القريب » .. فانحنيت لها وأنا أهم بالانصراف ، لكنها عادت تقول لى : « كلا ! بل ابق مع أبى حتى أعود ! » ، ثم هزت الجرس اليدوى الصغير الموضوع على المنضدة ، والذى

رأيت مثله على كل منضدة فى البيت ، وحين أقبل رئيس الخدم قالت له وهى تلقى الفراء عن قدميها : « ساعدنى على الوقوف ! »

.. وكان ما حدث على الأثر مفجعا للغاية ، فقد رفع الرجل جسمها الهزيل تحت ابطيه بحركة ألفها ولا شك ، فوقفت الفتاة لحظة متكئة على مسندى المقعد ، وهى تحدجنا بنظرة تحد ، ثم تلمست العكازين اللذين كانا تحت الفراء .. ورفعت جسمها عليهما وهى تزم شفتيها فى انفعال ، ثم سارت تنقل عكازا بعد الآخر فى حذر واناة ، والخادم خلفها ، مادا ذراعيه على قيد شبر منها ، كى يتلقاها اذا أوشكت أن تسقط !

واعتصرت قلبى يد ثقيلة وأنا أرى المنظر المؤثر ، وأدركت لماذا أبت أن تعاونها « ايلونا » على المسير أو تجلسها فى مقعدها ذى العجلات .. **لقد أرادت ـ بدافع من الرغبة الغامضة فى الانتقام ، التى ولدها فى نفسها اليأس ـ أن ترينى ، أنا بالذات ، أنها كسيحة .. أن تعذبنا بعذابها !..** وأخيرا ، بعد زمن خلته دهرا ، بلغت الباب منهوكة من فرط المجهود الذى بذلته وهى تلقى بثقل جسمها كله على كل عكاز بدوره .. وكانت طرقات العكازين الجافة على الأرض ، وصرير الحوامل المعدنية المربوطة فى قدميها ، قد أثارت أعصابى بحيث أحسست بدقات قلبى تكاد تهز سترتى العسكرية هزا !

ولم أسترد بعض هدوئى الا حين ابتعدت خارج الحجرة ، فخفتت الأصوات الرهيبة رويدا رويدا .. حتى تلاشت !

.. عندئذ فقط جرؤت على أن أرفع عينى ، فاذا الأب التعس قد وقف بالنافذة ، يطل على الفضاء السحيق .. ولمحت كتفيه تهتزان . ان المسكين قد عجز بدوره عن احتمال عذاب طفلته !.. ومضت دقائق مفعمة بالصمت الثقيل ، قبل

أن يستدير الى قائلا : « أرجو ألا يغضبك مسلك ابنتى يا سيدى الملازم .. انك لا تعلم كم قاست خلال هذه السنين .. وفى كل حين يجرب معها علاج جديد .. لكن الأمر يسير ببطء شنيع . انى لا ألومها على نفاد صبرها ، ولكن ماذا نفعل ؟ لا بد أن نجرب كل وسيلة ، أليس كذلك ؟ » . ثم وقف بازاء مائدة الشاى المهجورة ، بما عليها من شراب وطعام ، وتناول ملعقة صغيرة ، ثم قال دون أن ينظر الى ، كأنما يحدث الملعقة : « انك لا تتصور كيف كانت فى الماضى .. لم تكن تكف عن الحركة طيلة اليوم ، تجرى هنا وهناك ، وتصعد السلم وتهبطه .. وفى سن الحادية عشرة فقط كانت تركض بجوادها عبر الأحراش بسرعة لا يجاريها فيها أحد ، فى خفة واستهتار ومرح ، حتى ليشعر من يراها بأنها ليست فى حاجة الى أكثر من أن تفتح ذراعيها كى تطير !.. من كان يتخيل أن يحدث هذا لها ، هى دون الناس جميعا ! »

وراحت يده القلقة تتناول الأشياء ثم تدعها ، وترسم بملقط السكر دوائر ورسوما على غطاء المائدة !.. كان المسكين يخشى أن يلتقى بصره ببصرى ، من فرط خجله واضطرابه !.. ثم استطرد فقال : « ومع ذلك فما أيسر ادخال السرور على قلبها ، حتى فى هذه الأيام .. بعد كل ما أصابها ! انها تجد سعادة « صبيانية » فى أتفه شىء ، تضحك من أبسط نكتة ، ويستثير حماسها أى كتاب . ليتك رأيت مبلغ غبطتها حين وصلت سلة أزهارك وطرحت عن ذهنها عبء الظن بأنها قد أساءت اليك .. أنك لا تعلم مدى حدة حساسيتها نحو كل شىء . انى واثق بأن أحدا منا ليس أكثر منها أسفا على ما بدر منها منذ برهة من تصرف ينقصه ضبط النفس .. ولكن كيف يمكن أن تتحكم البائسة فى أعصابها وهى لا تكاد تلمس تحسنا فى حالتها ، أو أملا فى

شفائها من الكارثة التى ابتليت بها ، هى التى لم تفعل فى حياتها شرا ، ولم تؤذ أحدا ! »

وكأنما أفاق الرجل من استرساله ، وأدرك انه يتكلم أمام شخص غريب ، فقال معتذرا بلهجة من استيقظ من سبات : « اغفر لى يا سيدى الملازم !.. لست أدرى لماذا أصدع رأسك بمتاعبنا .. لقد أردت أن أوضح الأمر لك كى لا تسىء الظن بها ! » .. ولا أعلم كيف واتتنى الشجاعة على أن أقاطع الشيخ الحائر ، ولكن فجأة وجدتنى أقترب منه وأتناول يده ، ثم آخذها بين يدى .. ولم أقل شيئا ، **كل ما فعلته أنى تناولت اليد الباردة المعروقة — التى حاول أن يسحبها من يدى خجلا — وضغطتها . فنظر الى فى دهشة وقد لمعت خلف منظاره نظرة حائرة ، خشيت معها أن يقول شيئا ، لكنه لم يتكلم ، بل اتسعت حدقتاه السوداوان ، كأنما يوشك أن يبكى !..** وانتابنى أنا الآخر تأثر عميق لم أشعر بمثله من قبل .. ولكى أفر منه ، انحنيت على عجل وغادرت الحجرة !.. وحين بلغت البهو ، شعرت — والخادم يعيننى على ارتداء معطفى — بأن الرجل قد تبعنى ، كى يشكرنى ، فتجاهلت احساسى به ، بغية تجنب المزيد من الحرج .. وبارحت البيت المفجوع وقلبى يدق صدرى بشدة !

الفصل الثالث

سحر الشفقة !

● **كان** ضباب الفجر ما يزال يغطى مبانى البلدة . حين خرجت على رأس فيلق الفرسان فى اليوم التالى لنقوم بجولة الصباح ، وفيما نحن نركض بجيادنا بأقصى سرعتها ، ونسيم البكور الندى يحمل الى أنفاسنا عطر الحقول المزدهرة ، فنعب منه جرعات تملأ صدورنا انتعاشا وحبورا ، ودماء الشباب الدافئة تتدفق فى أجسامنا النابضة بالحياة .. لاحت

لنا من بعيد أسوار قصر « كيكسفالفا » البيضاء وقبابه العالية ، وللفور طعن قلبى احساس مباغت بالرثاء للفتاة الكسيحة ، المحرومة من نشوة الصحة والحرية ، والفرحة بقوة الشباب ! .. خيل الى أنه قد يجرح شعورها أن ترانى هكذا منطلقا كالسهم المارق أو الطائر السعيد ، وشعرت بالخجل من سعادتى الجسمانية ، كما يخجل المرء من امتياز لا يستحقه !.. لكن ذهنى تصدى لعاطفتى بالحجة المقنعة والمنطق السليم ، فلم ألبث أن تبينت سخافة اذلال النفس على هذه الصورة . ادركت أنه لاجدوى فى أن ينكر الانسان على نفسه متعة ما ، لا لشىء الا لأن غيره محروم منها ! ويأبى على نفسه السعادة ، لأن غيره شقى ! .. ففى الوقت الذى نضحك فيه ، ونتبادل النكات ، يوجد اناس — فى أماكن مختلفة من العالم — راقدين على فراش الموت .. وآخرون ، خلف ألف نافذة ونافذة ، يعانون البؤس ، أو يتضورون جوعا .. وهناك المستشفيات المليئة بالمرضى والجرحى .. والسجون العامرة بالمعذبين .. والمصانع والمناجم والمكاتب التى يشقى فيها الملايين من البشر ، فى كل ساعة من ساعات النهار .. ولن يخفف من شقاء انسان واحد أن يشقى انسان آخر نفسه بنفسه ، بغير مبرر ! .. بل لو حاول شخص أن يفكر فى مآسى الغير ، ويصور لنفسه صنوف البؤس التى تنطوى عليها الدنيا فى كل وقت ، لاستعصى عليه النوم ، وماتت البسمات على شفتيه الى الأبد !

لكن منطق الحجة والاقناع لم يفلح طويلا فى ازالة أثر الكآبة التى اعترتنى فى ذلك الصباح ، والتى كانت أول أعراض ذلك السم الغريب الذى بدأ يسرى فى كيانى : سم « الشفقة » ! .. أحسست أن شيئا غير عادى قد حدث لى ، فقد عشت حياتى قبل ذلك لا أبالى شيئا غير مطالب يومى . كان هناك من يدبر لى شؤونى العائلية ويرسم لى مستقبلى

ويختار مهنتى ، بغير أن أحمل هما أو أفكر فى أمر ! وكان هذا التحرر الكامل من المسئولية جد مريح لى ، دون أن أشعر ــ فانى لم أشعر بمتعته الا الآن ! ــ الآن حين أدركت فجأة أن شيئا قد حدث لى ، شيئا داخليا لايبدو على السطح ! .. لم أكد أطالع فى عينى الكسيحة تلك النظرة المنطوية على أعمق معانى الألم الانسانى ، حتى أحسست شيئا يشطرنى شطرين ! .. لكنى شعرت الآن بدفء مفاجىء يسرى فى كيانى ويبعث فيه ما يشبه « حمى » غامضة ، أدركت معها أنى قد خرجت من الدائرة التقليدية التى عشت فيها آمنا من قبل ، الى محيط جديد ، مثير ومقلق فى آن معا ! .. ولامرة الأولى رأيت هوية عاطفية تفغر فاها فى وجهى ، وتغرينى بأن ألقى بنفسى فيها .. لكنى فى الوقت ذاته سمعت هاتفا غريزيا يحذرنى من هذا الفضول النزق ، صائحا : « **كفى !.. لقد قدمت لهما الاعتذار الكافى وكفرت عن حماقتك ، فقف عند هذا الحد !** » .. ثم أعقب هذا الصوت صوت آخر يهمس لى : « **اذهب لتراها مرة أخرى ، وتشعر بتلك الرجفة من الخوف والترقب تسرى فى نخاعك** » .. لكن الصوت الأول عاد يحذر : « **ابتعد عن طريقها .. ولا تفرض وجودك على مشاعرها .. فان هذه الانفعالات الحادة لأكثر مما تحتمل هى ، أو تحتمل أنت ، والا فان سذاجتك سوف تورطك فى حماقة أبشع من الأولى !** »

على أن زمام الاختيار لم يلبث أن افلت من يدى ، حين تلقيت بعد أيام ثلاثة خطابا من الهر كيكسفالفا يدعونى فيه الى تناول العشاء فى داره مساء الأحد ، برفقة أحد كبار رجال وزارة الحرب ، وآخرين ، ثم يضيف أن أبنته و « ايلونا » سوف يسرهما بصفة خاصة أن أحضر ! .. ولا أنكر انى شعرت ، تلقاء هذه الدعوة ، بشىء من الزهو ، كما تبينت

بوضوح ما يبذله كيكسفالفا من جهد كى يعرفنى ببعض ذوى النفوذ !

● ●

ولاحاجة بى الى القول بأنى قبلت الدعوة على الفور ، ولم أندم على ذلك قط ، فقد كانت السهرة ممتعة حقا . حظيت فيها بما لم أحظ به فى حياتى من التفات كبار القوم الحاضرين الى ، واحترامهم لى ، وسألنى موظف وزارة الحرب عما اذا كنت راضيا عن الفرقة التى انتسب اليها ، وعن آمالى فى الترقية ، ثم طلب منى ألا أتردد فى زيارته اذا احتجت الى مساعدة أو هبطت (ڤيينا) فى أى وقت ! .. وكما فى المأدبة السابقة ، أديرت علينا أطباق الطعام الفاخر والشراب الشهى ، وتملكنى زهو صبيانى وأنا أرى نفسى أستمتع بذلك الترف فى صحبة هؤلاء القوم البارزين ! .. ووددت لو يرانى زملائى فى الفرقة وموظف وزارة الحرب يشرب نخب صحتى ، ومدير شركة السكر يبدى اعجابه بسعة اطلاعى !

وبعد أن دار علينا السقاة بالقهوة و « الليكير » والسيجار الفاخر ، مال كيكسفالفا على أذنى ليخيرنى بين الانضمام — بعد العشاء — الى الرجال فى لعب الورق ، وبين البقاء لأثرثر مع الفتاتين . وكان طبيعيا أن اخترت البقاء مع الفتاتين ، **فما كنت لأخاطر باللعب مع الموظف الكبير ، معرضا نفسى لاستيائه — لو ربحت — ولافلاسى أنا ، لو خسرت !.. فضلا عن أن جيبى لم يكن يحوى ليلتئذ غير عشرين ريالا ، هى كل ما تبقى لى من مرتب الشهر !**

وهكذا بقيت مع الفتاتين . وبدت لى كلتاهما أبهى جمالا ورواء منها فى المرتين السابقتين ، وبخاصة « اديث » ، التى لم أرها هذه المرة شاحبة سقيمة كالمرة السابقة . ترى هل وضعت شيئا من المساحيق الحمراء ، اكراما لضيوفها ؟ .. أم أن بهجة السهرة قد أرسلت الحمرة الى خديها ؟ على أية

حال لم يكن ثمة أثر للتجاعيد حول شفتيها ، و للدوائر السوداء المحيطة بعينيها ! .. أما ((اليونا)) فقد خيل الى أنها كانت ثملة قليلا ، من فرط التماع عينيها .. وحين ألقت كتفيها المستديرتين الرائعتين الى الخلف ، وهى تبتسم ، لم أجد بدا من التراجع الى الوراء بدورى ، كى أتجنب اغراء لمس ذراعيها العاريتين !

وبعد عشاء كهذا ، وخمر طيبة أشاعت الدفء الممتع فى بدنى .. وفى صحبة حسناوين رائعتين الى جانبى ، م كنت لأجد أدنى صعوبة فى الثرثرة المرحة الطليقة ! صحيح أنها كانت حكايات ونوادر تافهة تلك التى رويتها ، لكنى سريت بها عن الفتاتين الى حد أثار دهشتى أنا نفسى ، فلم تكفا لحظة عن الضحك ، ولا سيما اديث ، التى علت ضحكاتها الفضية ذات الجرس الرنان ، واحمرت وجنتاها النحيلتان الشفافتان — كالبلور — وأضاءت وجهها مسحة من الصحة والجمال المشرق ، كما التمعت عيناها الغبراوان بمرح صبيانى .. بصورة أيقنت معها أن انشراحها حقيقى ، ينبع من أعماقها ! وكم كان جميلا أن يراها الانسان تنسى عاهتها وتترك نفسها على سجيتها ، فتضحك ، وتشرب ، وتميل بجسمها الى الخلف فى مرح ، وتجذب « ايلونا » اليها فتحيط كتفيها بذراعها ! .. وشجعنى « نجاحى » فعادت الى ذاكرتى عشرات النوادر الطريفة التى كنت قد نسيتها منذ زمن ، وهكذا لبثنا ثلاثتنا نصخب ونهرج فى ركننا القصى ، كأطفال المدارس ! .. على أننى برغم استغراقى فيما أنا فيه ، لم يفتنى أن الحظ — بنصف وعى — عينين تراقباننى طيلة الوقت من خلف منظاريهما ، من مائدة اللعب القصية ، وترمقاننى بنظرة دافئة سعيدة ، ضاعفت من سعادتى .. وحين التقت أعيننا مرة ، أثناء ذلك ، أومأ كيكسفالفا الى ايماءة ودية وقد أشرق وجهه ! واستمرت حالنا على هذا

المنوال حتى قرب منتصف الليل ، حين أدير علينا مدد جديد من الشطائر الشهية والمشروبات المعتقة والمرطبات ، فأكلنا جميعا وشربنا فى حرية وانطلاق . وأخيرا حان أوان الانصراف ، فهزت الفتاتان يدى كما لو كنت صديقا قديما عزيزا . وكان على أن أعدهم بالعودة الى زيارتهم فى أقرب فرصة ، فى اليوم التالى أو الذى يليه .. وفيما أنا أهم بارتداء معطفى ، أقبل مضيفى يعاوننى على ذلك ، فاحتججت فى خجل وحيرة ، ولكنه أصر هامسا لى : ((**أوه ، يا سيدى اللازم .. انك لا تستطيع تصور مبلغ سعادتى بسماع ابنتى تضحك ثانية ، من أعماقها ! أنها لا تظفر من الحياة بغير فرص نادرة للمتعة ، وقد كانت الليلة كعهدى بها فى الأيام الخوالى !**))

وكان فى لهجته من اللطف والدماثة والشكران ، ما ملأ نفسى سعادة ويأسا فى وقت واحد ، حتى كاد تأثرى يفضحنى أثناء عودتى الى المعسكر فى سيارة موظف وزارة الحرب ، بدعوة كريمة منه !

● ●

لم أستطع النوم فى تلك الليلة — لفرط انفعالى — الا بعد محاولات طويلة .. فقد شعرت ، للمرة الأولى فى حياتى ، بأننى كنت مصدر نفع لمخلوق ما على الأرض ! .. ولم يكن ثمة حد لدهشتى وعجبى من كونى — وأنا الضابط البسيط الخامل — يمكن أن يكون لى من السلطان ما يدخل السعادة القصوى على قلب انسان آخر ! .. ولكى أصور مدى نشوتى باستكشاف هذه الحقيقة ، ينبغى أن أشير الى أمر قد يكون فيه شىء من الايضاح : ذلك أنى منذ طفولتى كان يسيطر على نفسى شعور دائم بأنى مخلوق تافه ، لا يثير احتفال الناس أو اهتمامهم بأمره .. وخلال سنوات دراستى بالكلية الحربية لم يطرأ ما يغير هذا الاعتقاد ، فلم اكن فيها

اكثر من طالب عادى متوسط الذكاء ، لايدخل فى عداد الطلبة الموهوبين أو المحبوبين . وظلت هذه حالى حين تخرجت وعينت فى فرقتى ، فما كان اختفائى أو موتى ليثير فى نفوس زملائى غير شعور وقتى بالرثاء ، ثم ينسى الجميع أمرى ! .. وكما كنت فردا تافها فى نظر اخوانى ، كنت فى نظر الفتيات القلائل اللواتى عرفتهن فى القريتين السابقتين اللتين عسكرت فيهما الفرقة .. ففى الأولى كانت صديقتى ممرضة فى عيادة طبيب أسنان .. وفى الثانية تعرفت الى خياطة بسيطة الحال كنت أخرج للنزهة معها ، وفى يوم العطلة آخذها الى غرفتى .. وقد أهديتها يوم عيد ميلادها عقدا صغيرا من المرجان . وحين نقلت ، تبادلنا الرسائل العاطفية المألوفة فترة من الزمن ، ثم نسى كلانا صاحبه !

فماذا حدث اليوم ؟ .. هل يعقل أن شابا بسيطا هذا شأنه ، وليس فى جيبه خمسون ريالا يستطيع ان يدعى ملكيتها ، يدخل على قلب رجل واسع الثراء نصيبا من السعادة عجز عن اغداقه عليه جميع أصدقائه ؟ .. وهل يعقل أن أكون - أنا الملازم هوفميلر - مصدر نفع وعون وراحة لنبيل عريق فى المجد مثل كيكسفالفا ؟ .. أو أننى اذا قضيت أمسية أثرثر مع فتاة كسيحة معذبة ، يشرق الهناء فى عينيها ، وتدب الحياة فى وجنتيها ، ويغمر البيت الذى كان مأوى الكآبة فيض من النور والحبور ، بسبب وجودى .. أنا ؟ !

.. وفى غمرة نشوتى وانفعالى ، رحت أذرع الشوارع المعتمة بخطى سريعة أشاعت الدفء فى كيانى ، وأنا أستمرىء استعراض المراحل القصيرة التى أدت الى ظفرى بصداقة هؤلاء القوم الكبراء بمثل هذه السهولة ! .. فماذا فعلت حتى بلغت هذه المكانة ؟ .. لم أفعل أكثر من أنى أظهرت شيئا

من العطف ، وقضيت ليلتين ممتعتين ضحكت فيهما وثرثرت ، وأكلت وشربت .. وكفى ! .. واذن فما أحمق وما أغبى أن يبدد المرء أوقات فراغه يوما بعد يوم فى المقهى ، فى ألعاب سخيفة ، مع أناس سخفاء .. أو يتسكع فى الطرقات كالبلداء !

.. وانتهيت من تفكيرى ، أنا الشاب الذى بعث فجأة الى الحياة ، الى وجوب احداث « انقلاب » تام فى أسلوب معيشتى : الى الاقلال من التردد على المقهى ، وتطليق تلك الجلسات البليدة التى تؤدى الى تراكم الصدأ على الذهن .. على أن أكثر من زياراتى لتلك المريضة البائسة ، وأحاول التجديد فى وسائل تسليتها بمختلف الأحاديث والألعاب ، كالشطرنج مثلا !

وأمدنى تصميمى على أن أكون مصدر عون ونفع للآخرين ، بنوع من الحماسة ، فشعرت بميل شاذ الى أن أغنى ، الى أن أرتكب أية حماقة ! فان الانسان لا يحس أى معنى أو هدف لوجوده حتى يتبين أنه ـ فى نظر غيره ـ مخلوق له وزن ، وأهمية ، واعتبار !

.. وفى الأسابيع التالية ، أخذت أقضى الجانب الأكبر من أمسياتى فى دار كيكسفالفا .. وسرعان ما غدت هذه الجلسات ـ التى ترفع فيها الكلفة ـ بمثابة « عادة » لى ، بل لقد انغمست فيها الى درجة لها خطورتها ! .. لم تكن الساعة الخامسة مساء تجىء حتى أهرع الى هناك ، فيفتح لى الباب « جوزيف » رئيس الخدم مرحبا ، وأقابل من الجميع كما لو كنت فردا من الأسرة .. ثم أجلس فى مقعدى المختار المواجه لمقعد « اديث » ونأخذ ثلاثتنا فى الثرثرة والضحك دون أدنى كلفة !

وثمة عامل هام ضاعف من نشوتى واستمتاعى برفقة الفتاتين ، هو أنى طيلة الأعوام الخمسة عشر السابقة ـ منذ

أرسلت فى سن باكرة الى الكلية الحربية ـ عشت فى بيئة كلها ذكور ، فنشأت وقد ألفت حركاتهم وأصواتهم وخشونتهم ، ورائحة التبغ التى تفوح منهم . **وجـو الذكور ـ مهما تكن شخصيات أفراده ـ ينقصه دائما شىء ما ، فهو أشبه بجوقة موسيقى الجيش « النحاسية » التى مهما يجيد عازفوها ، تظل تنقصها نعومة الآلات « الوترية » !** .. ولست أنسى فى هذا الصدد شعورنا ونحن طلبة فى الرابعـة عشرة ، يوم كنا نخرج فى طوابير للنزهة فى المدينة ، فتأخذنا الحسرة حين نرى أندادنا فى السن يستمتعون بصحبـة الفتيات التى تحرمنا منها ستراتنا العسكرية ذات الأشرطة الذهبية الأنيقة ! .. كنا أشبه بسجناء خلف قضبان حديدية ، ننظر الى هـذه المخـلوقات الناعمة نظرتنا الى جنيات مسحورة ، ونحـلم بحديث واحد مع فتاة ، كما يحلم الانسان بغاية مستحيلة ! .. **مثل هذا الحرمان لا ينسى بسهولة ، وأحلام الصبا العاطفية لا تكفى فى التعـويض عنها تلك المغامرات الرخيصة التى عرضت لنا فيما بعد مع نساء الهوى المحترفات وأمثالهن .. بل أستطيع أن أقول أنى بعد أن قضيت ليالى كاملة فى مخادع نساء من ذلك الطراز ، ظللت كالعهد بى ، أرتبك كلما قدمت الى فتاة فى مجتمع !**

أما الآن ، فان اشتياقى الطويل الى عقـد صداقة مع فتيات من الجنس الآخر ، قد بلغ هدفه فجأة ، وعلى الوجه الأكمل ! .. وصار جلوسى الى الفتاتين كل مساء ، والاستمتاع بأنوثة صوتهما وحركاتهما ، يدخل على قلبى شعورا بالبهجة والانشراح .. وكم أسعدنى أن أجد نفسى ـ المرة الأولى فى حياتى ـ قد تحررت من خجلى الممقوت فى حضرة الفتيات ! .. بل تحررت ، نظرا للظروف الشاذة التى نشأت فيها صلتنا ، من ذلك التوتر أو « التكهرب » الذى يسود الجو عادة كلما خلا رجل وامرأة معا ، لفترات طويلة من الوقت .. وأعترف

بأنى فى البداية لقيت عناء كبيرا فى مقاومة اغراء شفتى «ايلونا» الممتلئتين الشهوانيتين ، وذراعيها البضتين الجميلتين ، والجاذبية الحسية التى تشع من كل حركاتها الناعمة المياسة ، حتى لقد اضطررت اكثر من مرة الى أن أرد يدى قسرا فى آخر لحظة عن الرغبة فى لمس المخلوقة الدافئة الناعمة ، ذات العينين السوداوين الضاحكتين ، واحتوائها بين ذراعى ، وتغطية جسمها بالقبلات !.. ولكن « ايلونا » كانت قد أسرت الى منذ بداية تعارفنا أنها مخطوبة منذ عامين الى طالب حقوق ، وأنها لا تنتظر كى تتزوج منه غير تحسن حالة اديث ، أو شفائها تماما .. وقد فهمت من ذلك أن كيكسفالفا قد وعد ابنة أخته الفقيرة ببائنة سخية ، لو انتظرت حتى ذلك الحين ! .. **وفضلا عن ذلك ، فانه كان من الغدر البين ، والخيانة الآثمة ، أن نتبادل القبلات الحامية — عن غير حب — من وراء ظهر المخلوقة البائسة المقيدة فى قسوة الى كرسيها ذى العجلات !**

وهكذا لم تلبث فتنة « ايلونا » أن صارت لا تثير قلقى واضطرابى ! .. فى الوقت الذى تركزت فيه عواطفى فى الفتاة الكسيحة العاجزة التى قست عليها الحياة .. حتى غدا يسعدنى أن أجلس اليها فأسرى عنها ، وأرى ابتسامة الغبطة على فمها ، ونظرة الشكران فى عينيها ، وأنعم بمختلف متع صداقتنا البريئة .. أكثر مما يمكن أن يسعدنى أى غرام جارف مع امرأة أخرى !

وبفضل هذه الانفعالات الروحية الخفيفة التى سمت بى الى طبقات العاطفة العليا ، اكتشفت مناطق شعورية رقيقة لم أكن أعرفها من قبل ! والانسان بطبعه حين يتذوق متعة عاطفة ما ، فى سنى الشباب ، يعجز عن الارتواء منها ، أو الاكتفاء بقدر .. **وهكذا لم أكد أسمح لشعور الشفقة بأن يتسلل الى أعماقى ، حتى بدا لى كأن سحرا غريبا قد وجد**

طريقه الى دمى ، فزاده حرارة وسرعة ، واحمرارا وتدفقا !..
وجدتنى فجأة استجيب لمائة مؤثر ومؤثر لم يكن لها على فيما مضى أدنى تأثير ، كأنما تلك النظرة الأولى الى آلام الآخرين قد منحتنى عينا جديدة ، أفطن وعيا ، وأذكى بصيرة ! .. ولما كانت دنيانا متخمة بالمآسى العنيفة ، حافلة بالبؤس المفجع والأسى المرير ، فقد بت أقضى أيامى ، ليلى ونهارى ، مرهف الحس ، متفتح الشعور .. **ولأول مرة وجدتنى بغتة أعجز عن أن أقسو على الجواد الحرون بضربة وحشية !.. وأتقزز ألما واشمئزازا حين يفاجىء ضابط جنديا غبيا بلطمة شديدة من قبضة يده ! .. وفى الوقت الذى كان فيه زملائى يضحكون ساخرين من المضروب ، كنت وحدى ألمح دموع الخجل الحارة تلمع على أهدابه ، تحت أجفانه المطرقة !..** بل انى غدوت فجأة أضيق بنكات الزراية والاستهزاء التى يسلق بها بعض الزملاء سيرة من يوقعه حظه السىء تحت السنتهم !

لقد صرت ـ منذ لمست فى شخص أديث المسلوبة الحول والطول عذاب العاجزين التعساء ـ أثور غضبا لأى فعل فيه قسوة ، وأذوب شفقة على المنكوب بأية صورة من صور العجز ! .. وكم من أمور تافهة ـ لم أكن من قبل ألحظها ! ـ غدوت أتنبه لها منذ ألقت المصادفة فى عينى تلك القطرات الأولى الحارة من الاشفاق !

وقلت لنفسى : **« منذ الآن سأجعل رائدى أن أساعد أى انسان . سأكف عن جمودى وعدم مبالاتى .. وليكن مصير كل شخص مصيرى ، ولأجعل شفقتى تتسع لشتى وجوه الألم البشرى .. ولأتوجه بقلبى شاكرا للفتاة الكسيحة أنها علمتنى ـ من خلال آلامها ـ سحر الشفقة وقوتها ! »**

● ●

على انى لم ألبث ان استيقظت من أحلامى العاطفية ، فى شىء من العنف ! كنا نلعب « الدومينو » ذات مساء ، ونحن

نثرثر ونضحك كعادتنا ، فغفلنـا عن مرور الوقت .. حتى حانت منى نظرة الى السـاعة فاذا هى قد بلغت الحادية عشرة والنصف ، واذ ذاك نهضت من فورى أستأذن فى الانصراف .. وبينما كان مضيفى يرافقنى الى الباب ، بلغ مسامعنا صوت كطنين النحل . كان المطر ينهمر فى الخـارج بغزارة ، فأصر كيكسفالفا على تكليف سائق سيارته بأن يوصلنى بها الى المعسكر .. وانطلقت بى السيارة الفاخرة تنهب الطريق فى سهولة ويسر . وقبل المعسكر ببضع مئات من الأمتار طلبت من السائق الوقوف ، وهبطت هنـاك ــ حتى لا يرانى أحد الرؤساء أهبط من السيارة الفـارهة أمام باب المعسـكر ، والسائق ينحنى لى وهو يفتـح بابها ، كأنى نبيل عريق ! ــ لقد كنت أعلم أنهم يمقتون مثل هذه المظاهر . وكنت ، الى جانب ذلك ، قد حرصت خلال الأسابيع السابقة ، بوحى من غريزتى ، على تجنب الخلط بين عالمى المتناقضين : عالم الأبهة والترف فى دار كيكسفالفا ، حيث كنت رجلا حرا مدللا .. وعالم الصرامة والواجب ، حيث لم أكن أكثر من شاب فقير ، يعد نفسه سعيدا حين يكون الشهر ثلاثين يوما ، لا واحـدا وثلاثين !

وما كدت أهبط من السيارة على مسافة من المعسكر ، وأرفع ياقة معطفى تأهبا لعبور المرحلة الباقية مسرعا ، حتى اشتد المطر وهاجت العاصفة ، فرأيت أن احتمى منهما داخل باب احدى الدور حتى تفرغ السماء ميازيبها .. ثم تذكرت أنى على بعد أمتار من مقهاى القديم ، ولمحت النور ينبعث منه ، فرأيتها فرصـة مناسبة للقاء الزمـلاء الذين انقطعت فجأة عن مجالستهم منذ أكثر من أسبوعين ! .. ووجـدت منهم فى ركنهم المألوف : جوسى ، وفيرنز ، وجولدبوم ــ طبيب المعسكر ــ فهتف « فيرنز » حين رآنى من بعيد : « هالو .. ها هو ذا « تونى » ! » ، وأردف الطبيب : « يا له من شرف

لمقهانا المتــواضع ! » .. واستدارت نحــوى ست عيون مستطلعة ، فسرنى ترحيب الزملاء بى ، برغم انقطاعى الطويل عنهم دون ايضاح أو اعتذار ! .. وأقبل الساقى يجر قدميه جرا من فرط النعاس ، فطلبت قدحا من « القهوة السوداء » . وسألت الاخوان عن أخبارهم .. فنفخ فيرنز شدقيه وقال فى لهجة تمثيلية : « أحدث أخبارنا أن سعادتكم قد تنازلتم فشرفتم مقرنا المتواضع بطلعتكم النبيلة ! »

ونظر الى الجميع فى مرح تهكمى ، فشعرت بقلبى يغوص فى قدمى ، وفكرت فى المبادرة بالفرار قبل أن يسألنى الخبثاء أين قضيت الفترة السابقة ، ومن أين جئت الآن ؟ ! .. ولكن قبل أن يستقر تصميمى على شىء ، غمز فيرنز بعينه لجوسى ، وقال : « **أنظر .. ما رأيك فى هذه الظاهرة الغريبة : حذاء لامع نظيف فى هذا الطقس الممطر ! ؟ .. وسيجار فاخر فى الجيب ، سبقه ولا ريب عشاء ممتع ، وكافيار ، ودجاج .. الخ** » . وهنا انضم جوسى الى زميـله فى السخرية ، فقال : « الشىء الذى أعتب فيه على صديقنا العزيز « تونى » أنه بدلا من أن يذكر لمضيفه أن له أصدقاء ظرفاء مهذبين ، يعرفون آداب المائدة ، ثم يأخذهم معه الى هناك ، أبى الا أن يذهب وحده ولسان حاله يقول : « دعهم يملأون بطونهم بمشروبات المقهى القذرة وأطعمته الكريهة ، ولأنعم أنا بكل الطيبات ! » .. فياله من مسلك نبيل ! »

وانفجر الثلاثة ضاحكين ، فى الوقت الذى أحمر فيه وجهى كالقرمز ، وقد ساءنى أن يتنبه الخبثاء الى السيجار الذى اعتاد كيكسفالفا أن يضعه فى جيبى كل ليـلة قبل خروجى ! .. لـكننى لم أجد بدا من تكلف ضحكة مغتصبة لاخفاء ارتباكى ، ثم سارعت الى اخراج علبة سجائرى ومددت يدى بها اليه ، **لكننى أدركت توا أننى بتصرفى هذا حاولت اصلاح الموقف بحماقة أبشع : فقد كانت العلبة هدية من الفتاتين ،**

طاب لهما أن تفاجئانى بها منذ أيام – لمناسبة عيد ميلادى الخامس والعشرين – وقد دستاها لى بين الطبق والمنشفة على مائدة العشاء ! .. وكان طبيعيا أن يتلقف الزملاء هذه « القفشة » الجديدة فيوسعوننى تهكما ، فقد هتف فيرنز من فوره وهو يصفر بفمه ويتناول العلبة كلها من يدى – ولم يكن فى وسعى أن أمنعه ! – ثم يزن ثقلها فى راحة يده : « هو هوه ! .. مظهر آخر من مظاهر الترف ! .. انها من الذهب الخالص فيما أحسب ، أليس كذلك يا جولدبوم ؟ »

وكان الطبيب « جولدبوم » ابن صائغ يهودى من صياغ الذهب ، فتناول علبة السجائر فى يده ووضع منظاره على عينيه ، ثم راح يفحصها فحص الخبير الواعى ، وقال أخيرا : « نعم ، انها من الذهب الخالص ، تحفة يسيل لها لعاب الفرقة بأسرها ، ولا تقل قيمتها عن ثمانمائة ريال ! »

وبعد أن نطق بهذا الحكم الذى أدهشنى أنا نفسى – فقد كنت أحسبها مطلية بمجرد « قشرة » فقط من الذهب – ناولها بدوره الى جوسى ، الذى جعل يقلبها بين يديه فى احترام وتوقير لقيمتها ، ثم فتحها فى حذر .. واذا هو يصيح مهللا : « ياله من اهداء .. اسمعوا يا رفاق : « الى صديقنا العزيز أنطون هوفميلر ، فى عيد ميلاده .. من « ايلونا » و « اديث » ! .. وحملق الثلاثة فى وجهى ! بينما صاح فيرنز : « يا للشيطان ! انك تحسن اختيار أصدقائك فى هذه الأيام ، فاهنئك ! لقد كنت خليقا أن تعد نفسك سعيدا لو أهديتك علبة كبريت معدنية مثلا ! » .. وأحسست بغصة فى حلقى ! غدا تعلم الفرقة كلها بقصة العلبة الذهبية ، بل تحفظ عبارة الاهداء عن ظهر قلب ! .. وسوف يحرجنى « فيرنز » فى نادى الضباط ، ويطالبنى بعرض الهدية على الرؤساء .. فتتناقلها أيديهم ، ويتجاوب المكان بصدى ضحكاتهم الساخرة .. ثم يجىء دور استجوابى عن مصدرها ، وعندئذ

يستحيل على أن أرفض طلب رؤسائى ، أو أكذب عليهم ! !

.. وفى غمرة ارتباكى ، أردت أن أغير مجرى الحديث ، فقلت متسائلا : « هل منكم من يريد أن يلعب مباراة شطرنج أخرى ؟ » .. فصاح جوسى ضاحكا : « أتسمع يا فيرنز ؟ فى الثانية عشرة والنصف ، والمقهى يوشك أن يغلق أبوابه ، يريد أن يبدأ اللعب ! » .. فقال الطبيب معلقا : « ان الرجل السعيد لا يشعر عادة بمرور الوقت ! »

ثم خرجنا ، بعد أن تبادلوا الضحك ، وكان المطر قد انقطع ، فمشينا الى المعسكر .. وهناك تصافحنا وتفرقنا . وقال لى فيرنز وهو يضرب على ظهرى : « اننا مسرورون بعودتك الينا يا صاح .. » . وأعتقد أنه كان مخلصا ، فلم أملك ان ساءلت نفسى ، بعد انصرافهم : « لماذا أحقد عليهم ؟ .. أنهم أصدقاء ظرفاء ، وقلوبهم خالية من الحسد أو الخبث ، وهم لم يقصدوا بدعابتهم غير المزاح ! »

●●

على أن مزاحهم ودعابتهم قد أتلفا فى نفسى شيئا لا يمكن اصلاحه ، ذلك هو ثقتى بنفسى ! .. فحتى تلك الليلة كانت صلتى بأسرة كيكسفالفا قد زادتنى تقديرا لنفسى ، منذ شعرت — لأول مرة فى حياتى — انى مصدر نفع وعون للآخرين .. **ولكن أنى لأولئك الزملاء الماجنين أن يدركوا المعانى السامية التى انطوت عليها تلك الصلة ؟ .. ان كل ما جال بخاطرهم أنى رحبت بضيافة البيت الكريم المترف كى أنعم بثراء القوم ، فأوفر أجر وجبة العشاء ، وأظفر بالطعام والشراب الفاخرين ، والهدايا الثمينة !** .. ولم يكن الخبثاء يلومونني فى قلوبهم من أجل ذلك ، أو يرون فيه أدنى غضاضة ، أو معنى من المعانى المنافية للشرف والكرامة ، بل كانوا يعتقدون أننا — نحن ضباط سلاح الفرسان — انما نضفى على أولئك الأثرياء « الحمقى » شرفا مضاعفا ،

بالجلوس الى مائدتهم !.. ومن ثم كانت نظرة الزملاء الى علبة سجائرى الذهبية منطوية على الاحترام لبراعتى فى ((استغلال)) كرم ((الصيد الدسم)) الذى ظفرت به ! .. وكان هذا ـ بالذات ـ مبعث غيظى وحنقى .. فقد انتهى بى التفكير فى الأمر الى أن بدأت أتشكك فى حقيقة دوافعى النفسية التى تغرينى بالتردد على القصر كل حين ! .. وبدأت أسائل نفسى : ((ترى هل أنا طفيلى حقا ؟ وهل يليق بمثلى أن يتقبل المآدب المتصلة ، والهدايا المتلاحقة ؟ وتذكرت فجأة ملاحظة أبداها كيكسفالفا عن بلادة جوادى الخاص ـ وكنت ما أزال أدفع ثمنه بالتقسيط ـ وكيف انتهى الرجل منها الى التفكير فى أن ((يقرضنى)) من حظائره العامرة جوادا ممتازا من جياد السباق !

وقلت لنفسى : ((كلا ! هذا كثير .. انه انما يحاول أن ((يشترينى)) ، يدفع نقدا ثمن عطفى واشفاقى على ابنته ، وتسليتى اياها .. تماما مثلما وعد ((ايلونا)) ببائنة فى مقابل بقائها لتمريض الفتاة المسكينة والترفيه عنها ! .. وأنا ـ بسذاجتى المعهودة ـ وقعت فى هذا ((الفخ)) دون أن أدرك أننى بذلك قد صرت طفيليا !))

لكنى عدت أقول لنفسى أيضا : ((هذا محض هراء ! ان الرجل يحبنى كما لو كنت ابنا له .. والفتاتين تعاملاننى بكل ترحيب واحترام ، وتسران كلما رفعت الكلفة معهما كأنى فى بيتى !))

ولكن ماذا يجدى أى قدر من الايحاء النفسى ، والتشجيع الذاتى ، اذا كان توازن الشخص الداخلى قد اختل واضطرب ؟ لقد زعزعت عبارات زملائى ثقتى فى حقيقة دوافعى الشخصية ، فجعلت أسأل نفسى ملحا مكررا : ((هل أنا أذهب الى هناك ـ حقا ـ بدافع الشفقة على الكسيحة ؟ .. أم بدافع الرغبة فى قضاء وقت طيب فى رفقة قوم كرماء ؟

.. على أية حال يجب أن اوقف الأمر عند هذا الحد ، كيلا يظن أحد أنى فرضت نفسى على القوم وتطفلت عليهم !»

وهكذا قررت أن أطيل المدى بين زياراتى للقصر فى المستقبل ، وأن أمتنع عن الذهاب اليه فى اليوم التالى ! .. ثم نفذت هذا القرار فلم أذهب فى اليوم التالى الى القصر ، بل خرجت بعد انتهاء عملى فى صحبة جوسى وفيرنز الى المقهى ، حيث قرأنا الصحف واشتركنا فى بعض الألعاب .. لكنى لعبت وأنا شارد الذهن ، فقد كانت على الحائط المواجه لى ساعة كبيرة لم تكف عقاربها عن شغل أفكارى وانتباهى .. الرابعة والثلث .. الرابعة والنصف .. الخامسة الا ثلث .. الخامسة الا عشر دقائق .. وكنت قد عودت آل كيكسفالفا أن أصل الى دارهم فى الرابعة والنصف بالضبط ، فأجد الشاى معدا .. واذا حدث أن تأخرت يوما ربع ساعة ، لأمر ما ، استقبلونى متسائلين فى قلق : « هل حدث شىء ؟ » .. واذن فلا بد أن انظارهم الآن معلقة بالساعة مثلى ، والانتظار يمضهم بدورهم ! .. ومن ثم رأيت لزاما على أن أعتذر لهم بالتليفون ، أو أرسل اليهم تابعى ، ورأيت أن اتخلص من مواجهتى للساعة بابدال مكانى مع أحد اللاعبين ، بزعم أن مقعدى لا يجلب الحظ .. لكن أعصابى ظلت مرهفة ، ولأول مرة أدركت أن العطف الصادق لا يمكن قطع تياره بالسهولة التى يقطع بها « التيار الكهربائى » .. وان كل من يشغل نفسه بمصير انسان غيره فلا بد أن يفقد — الى حد ما — حريته !

لكنى عدت أعنف نفسى على اهتمامى الزائد بتخلفى عن الزيارة اليوم . وبحكم القانون الطبيعى لتسلسل الأفكار ، الذى يجعل الشخص الحانق يصب غضبه عادة على شخص آخر برىء تماما ، ولا صلة له ببواعث ذلك الحنق .. فانى صببت غيظى المكتوم على كيكسفالفا ، لا على جوسى أو

فيرنز ! .. وأخذت أحدث نفسى قائلا : **« فلينتظرونى مرة فى العمر .. سوف أريهم أنى لست بالذى يشرى بالهدايا والطعام والشراب ، وأنى لن أواظب على زيارتهم مواظبة المعلم ، أو المدلك المأجور ! »**

وهكذا بقيت فى المقهى ، متحـاملا على نفسى ، ثلاث ساعات ونصف ساعة .. كى أثبت لنفسى أننى مازلت حرا ، أذهب حيثما أريد ووقتما أريد ، وأن الطعام الفاخر والسيجار الغالى ـ وما اليهما ! ـ لا تهمنى فى كثير أو قليل ! .. وحين غادرنا المقهى ، اقترح فيرنز أن نتنزه مشـيا على الأقدام ، لكنى لم أكد أطأ الرصيف حتى تنبهت الى نظرة خاطفة من عينين مألوفتين لدى ، مر بى صاحبهما مسرعا .. أليست هذه « ايلونا » ؟.. انها هى بلا شك ، ولو لم أعرفها من ثوبها النبيذى اللون ، وقبعتها الخفيفة ذات الشريط العريض ، لعرفتها من اهتزاز ردفيها الرشيقين أثناء سيرها .. ولكن ، ترى الى أين تهرع بهذه السرعة ؟

وودعت صديقى فجـأة ولحقت بالفتـاة .. وحين استوقفتها أخيرا لم يبد عليها أثر للدهشة ، فأدركت أنهـا رأتنى وهى عابرة ، وقلت لها : « يالها من مصادفة رائعة أن أقابلك هنا ! لقد طالما أردت أن أريك معالم مدينتنا العسكرية المقبضـة ، أم تفضلين أن نجلس فى حانوت الحـلوانى بعض الوقت ؟ » .. لكنها اعتذرت بأنها تبغى العودة الى البيت على عجل ، ولما لم تفلح محاولاتى لاقناعها عرضت عليها أن أصحبها الى السيارة التى تنتظرها فى مكان قريب .. وفى أثناء الطريق سألتنى عفوا خلال الحـديث : « على فكرة ، لم لم تأت عصر اليوم ؟ » .. فزعمت لها أن رئيسى أخذنى معه ليرينى حصانا يريد أن يشتريه ، ويطلب منى أن أركبه على سبيل التجربة ـ (وكانت هـذه الواقعـة قد حدثت منـذ شهر كامل !) ـ فقالت وهى تكظم عصبيتها : « ألا تحضر معى الآن على الأقل

للعشاء ؟ » .. **فهمست لنفسي على الفور : « كن حازما ولا تتراجع . اصمد يوما واحدا على الأقل ! »** .. فأجبتها وأنا أتنهد أسفا : « كنت أحب أن آتى ، لولا أن لدينا اجتماعا مهما فى هذا المساء .. » ، فصمتت ولم تعلق بكلمة ، حتى دلفت الى داخل السيارة ، فسألتنى خلال النافذة : « هل ستأتى غدا ؟ » . فقلت : « أوه نعم ، سأحضر بلا شك » .

.. وحين مضت بها السيارة انتابتنى الهواجس ، وسألت نفسى : « لماذا كانت ايلونا متعجلة مرتبكة ؟ .. وهل لم يكن يجدر بى أن أكافها بابلاغ تحيتى الى خالها وابنته ؟» .. لكنى سررت من ناحية أخرى لأنى صمدت ولم أذهب ، كى لا يزعم أحد أنى من المتطفلين !

الفصل الرابع

اغفاءة .. ساعة الغروب

● **وذهبت** فى اليوم التالى الى القصر ، فى الموعد المعتاد ، فاستقبلنى « جوزيف » مرحبا بقوله : « ان الآنسة قد صعدت الى البرج ، وطلبت أن يلحق سيدى الملازم بها فورا متى حضر ! » .. ثم عرض الخادم أن أستقل المصعد الكبير الذى أعده صاحب القصر خصيصا بعد نكبة ابنته ، حتى لا يحرمها من الصعود بمقعدها الى الشرفة الجميلة التى قضت فيها أسعد أوقات طفولتها .. لكنى آثرت الصعود بالسلم ، لأستمتع بالمناظر الخلابة المحيطة بالقصر ، من نافذة كل طابق .. وحين بلغت السطح الفسيح تأهبت للقاء الفتاة ، وكان ظهر مقعدها الى ، والى جانبها منضدة صغيرة عليها بعض الكتب ، و « جراموفون » مفتوح .. فرأيت أن أدور حول مكانها من بعيد حتى لا أفاجئها من الخلف مباشرة فتفزع .. فلما أتممت دورتى وصرت فى مواجهتها ، تبينت أنها

نائمة ! وكانت ساقاها مدثرتين بغطـاء ثقيل ، وقد أراحت رأسها على وسادة بيضاء ، وأحاطت بوجهها الشاحب ـ المفعم طفولة ـ هالة من الشعر الفاتح ، المائل الى الحمرة .. بينما أضفت الشمس الغـارية على وجنتيهـا مسحة من ذهب وكهرمان ، تنم عن الصحة !

وانتهزت الفرصة لأتأمل الفتاة على مهل ـ لأول مرة ـ كما لو كانت صورة .. فانها ـ ككل ذات طبيعة حساسة ـ لم تكن وهى مستيقظة تسمح للعين بأن تراقبها أو تتأملهـا بنظرة طويلة فاحصة . أما الآن فقد أتيحت لى الفرصة كاملة ، وان كنت أحسست كأنى أرتكب أمـرا غير لائق ، بل كأنى أغتصبها بالاكراه ! .. كانت الطفـولة والأنوثة تختلطـان فى معالم وجهها بصورة جذابة .. وراحت شفتاها المنفرجتان قليلا ـ كما لو كانت ظامئة ـ تتنفسان فى هدوء ورقة . ولكن حتى هذا المجهود الضئيل كان يرفع صدرها الواهن ويخفضه فى حركة ملحوظة . أما وجهها الشاحب ، المقيم وسط هالة شعرها كعصفور فى عشه ، فقد غاص فى الوسـادة ، وبدا كالمنهوك الذى امتص منه دمه ! .. واقتربت منها أكثر ، فى حذر بالغ ، فاذا الظلال التى تحت عينيها ، والشرايين الزرقاء على صدغيها ، والشفافية الحمراء لخياشيمها ، تظهر مدى رقة بشرتها التى تحمى لحمها المرمرى الشاحب من العـالم الخـارجى . وحـدثت نفسى قائلا : « ما أرهف احسـاس الشخص الذى تكون أعصابه مكشوفة هكذا ، وملاصقة للسطح الخارجى .. وكم يكون ألم الشخص الذى له مثل هذا الجسد الهوائى الخفيف ، الذى كأنما جعل ليحلق ويرقص ويسبح ، حين يحكم عليـه بأن يقيد ـ فى قسوة ـ الى الأرض الثقيلة الصلبة ! .. مسكينة هذه المخلوقة الكسيحة ! »

ومرة أخرى أحسست فى أعماقى اضطرام تلك الشـفقة الموجعة ، المنهكة ، الضارية ، التى تغمرنى كلما فكرت فى الفتاة

التعسة .. فاضطربت يدى ، وانتابنى حنين قوى الى أن ألمس ذراعها فى رقة ، وأن أنحنى عليها وأقطف ابتسامة من شفتيها ، فى اللحظة التى تستيقظ فيها وتعرفنى !.. وشعرت بشوق جارف الى أن أدنو منها ، وأظهر لها عطفى البالغ ورقتى .. لكنى عدت فقررت أننى ينبغى الا أقطع هذا النعاس الشهى الذى يبعدها عن نفسها وعن بشاعة حياتها الواقعية ! ..
انه لمن أمتع الأشياء أن يكون الانسان قريبا من المرضى خلال نومهم ، حين تعتقل كل أفكارهم المحمومة فينسون تماما علتهم ، حتى لتشرق أحيانا على شفاههم المنفرجة ابتسامة كأنها الفراشة على ورقة واهنة من أوراق الشجر .. ابتسامة غريبة عنهم ، ولاتمت اليهم بصلة .. ابتسامة تطير مجفلة ، لحظة يستيقظون !

على أن أقوى ما حرك أشجانى فى تلك اللحظة أن يديها المعروقتين النحيلتين ، كانتا ممدودتين فوق مسندى المقعد بأظافرهما الشاحبة وعظامهما الرقيقة الواهنة .. وقلت لنفسى : « هاتان اليدان الضعيفتان ، اللتان لا تقويان على أكثر من حمل الحمائم والأرانب والعصافير .. كيف يمكن قهر الألم بهما ؟ » .. واحنقنى أن أتذكر يدى القويتين الثقيلتين ، اللتين تسيطران على زمام أضخم جواد بغير عناء ! .. ودون وعى منى انتقل بصرى على الأثر الى الغطاء السميك الثقيل الذى يغطى ركبتيها الهزيلتين ، والذى تستكين تحته ساقاها العاجزتان ، المجردتان من الحياة ، مقيدتين فى وثاقهما الحديدى أو الجلدى .. وتذكرت كيف تجر الفتاة الجهاز القاسى معها فى كل خطوة ، هى المخلوقة الرقيقة التى جعلت لتطير وتحلق وتقفز ، أكثر مما جعلت لتمشى على قدمين !

ولم أستطع قمع رعشة سرت فى كيانى ، وكانت من القوة بحيث هزت جسمى وجعلت مهمازى يصطكان فيحدثان صوتا فضيا خفيفا ، لكنه كان كافيا لأن يخترق نقاب نعاسها

الشفاف ، فتنفست نفســا طويلا مضطربا ، وبدأت يداها تتحركان ، وأصابعها كأنما تتثاءب ! .. ولم تلبث أن اختلجت أجفانها ، وخفقت أهدابها .. ثم انفرجت .. فوقعت نظرتها على ، جامدة خرساء فى أول الأمر ، وأخيرا استيقظ وعيها ، فعرفتنى .. **واذ ذاك اندفع الدم دافقا قرمزيا الى وجنتيها ، كما يصب النبيذ الأحمر دفعة واحدة فى كأس من البللور !.. وقالت متجهمة : ((ما كان أغبانى حين نمت !)) ، ثم جذبت الغطاء على ركبتيها ــ كأنى فاجأتها عارية تماما ! ــ وأردفت متحدية : ((لم لم توقظنى فورا ؟ لا يليق أن تنظر الى شخص وهو نائم ، فاننا نبدو مضحكين ونحن نيام !))** .. فأجبتهـا محاولا انقاذ الموقف ، بنكتة : ((هذا خير من أن نبدو مضحكين ونحن مستيقظون !)) .. لكن تقطيبتها ازدادت وضوحا ، وبدأت شفتاها ترتجفان فى انفعال ، ثم فاجأتنى بهذه العبارة وهى تحدجنى بنظرة حادة :

ــ لماذا لم تأت يوم أمس ؟ .. لابد أنه كان لديك عـذر قوى يبرر أن تتركنا ننتظر .. والا فقد كان فى استطاعتك على الأقل أن تتصل بنا بالتليفون ! ؟

.. كان الهجوم مفاجئا ، قويا ، زعزع جرأتى على الكذب ــ وجرأتى على ذكر الحقيقة ، فى آن واحد ! ــ فرحت أردد عذرى المختلق فى ارتباك ، وأنا أنقل ارتكاز جسمى من قدم الى قدم ، بينما أصغت هى الى روايتى نافدة الصبر .. وأخيرا قالت فى لهجة صارمة ، باردة : ((آه .. وبماذا انتهت هـذه القصة المؤثرة ؟ هل أشترى رئيسك الحصان آخر الأمر ؟)) .. وقبل أن أجد مخرجا من ورطتى ، استطردت فى حـدة : ((دعك من هذه الأكاذيب المضحـكة ، فما من كلمة واحـدة صحيحة مما تقول ! .. كيف تجرؤ على أن تحاول خـداعى بهذه الأعذار المختلقة ؟))

وألقت بالقفـاز الذى كانت تضرب به ذراع المقعـد على

الأرض فى عصبية ، ثم استطردت : « انها كلها سلسلة من المخترعات ، فلا أنت كنت مع رئيسك ، ولا كانت هناك تجربة للخيل .. وانما الصحيح أنك كنت فى المقهى منذ الساعة الرابعة والنصف ، وفى السادسة رآك سائق سيارتنا ، وكنت ما تزال تلعب مع زملائك ! »

.. وقبل أن تفك عقدة لسانى ، مضت الفتاة فى حملتها التأنيبية ، فاستطردت : « ولهذه المناسبة ، لست أرى داعيا لأن أعاملك بالمثل ، فأكذب عليك بدورى ، لأنى لا أخشى الحقيقة .. **واذن فلتعلم أيضا أن سائقى لم يرك عفوا ، وانما كنت أنا التى أرسلته الى المعسكر ليسأل عما جرى لك ، فقد حسبتك مريضا - سيما وأنك لم تخطرنا بالتليفون مقدما - ثم أنى بطبعى لا أطيق الانتظار .. قد تظننى متهوسة ، لكنى هكذا خلقت ! .. وفى المعسكر قيل للسائق أنك بخير ، وأنك منهمك فى اللعب مع زملائك فى المقهى !** .. وعندئذ طلبت من « أيلونا » أن تذهب لترى سبب معاملتك ايانا بهذا الجفاء ، وهل يمكن أن أكون أنا قد أسأت اليك فى اليوم السابق ؟ - فأنى أتهور فى الحديث أحيانا ، لست أنكر هذا ! - والآن ، وقد عرفت الحقيقة كلها ، أفلا تخجل من أكاذيبك ؟ »

.. وهممت بأن أعترف لها بقصة « جوسى » و « فيرنز » معى .. لولا أنها استطردت دون توقف ، قائلة : « كفانا استماعا للقصص المختلقة ، اذا سمحت ! لا داعى للأكاذيب المتوالية ، فقد ضقت ذرعا بالأكاذيب ، شبعت منها حتى اتخمت ! .. انهم لا يكفون عن محاولة التمويه على كل صباح ومساء ، لايهامى بأنى فى طريق الشفاء ، وان حالتى قد تحسنت كثيرا ، وما من واحد منهم يدرك أن هذا يحنقنى أكثر من الحقيقة ! .. لم لم تذكر لى مساء أمس ، صراحة ، أنه لا وقت لديك ، ولا ميل ، للحضور ؟ كان يسرنى أن تتصل بنا - ولو بالتليفون - لتذكر أنك ستقضى السهرة مع

أصدقائك . **أو تعتقد أنى من الغباء والسخف بحيث لا أقدر أنك تمل أحيانا صحبتنا المستمرة ، وتتوق الى قضاء وقت فراغك فى ركوب الخيل أو المشى على الأقدام ، بدلا من الجلوس بجوار مقعد فتاة كسيحة ؟ .. ان شيئا واحدا هو الذى يثير اشمئزازى وغيظى : الكذب ! انى لست صغيرة ولا غبية ، وفى وسعى تحمل قدر كبير من الصراحة** . منذ أيام جاءتنا خادم جديدة بدلا من العجوز التى ماتت ، وقبل أن ينبهها أحد الى حالتى فوجئت برؤيتى أسير بمعاونة عكازى ، فألقت مكنستها فى ذعر وصاحت : « رباه ، ياللفظاعة .. تصوروا أن سيدة غنية مثلها ، تكون كسيحة ! » .. فهرعت ايلونا نحو المرأة المسكينة كالوحش الكاسر لتطردها فورا ، ولكنى منعتها .. فقد أعجبتنى المرأة ، أعجبنى ذعرها الصادق الطبيعى ، غير المفتعل ، فمنحتها عشرة ريالات أخذتها ومضت الى الكنيسة لتصلى من أجلى .. وطيلة اليوم شعرت بانتعاش وانشراح كبيرين . سرنى أن أعرف أخيرا حقيقة ما يحسه الناس حين يروننى لأول مرة ! .. أما أنت ، أنتم جميعا ، فتحسبون انكم تموهون على برقتكم الزائدة وعطفكم المثير ، بل بعنايتكم الوحشية ! .. ولكن هل تظنون أن ليست لى عينان فى رأسى أستشف بهما من وراء بسماتكم الزائفة وأحاديثكم الضاحكة المرحة ، قلوبكم المنفطرة ونظراتكم الحائرة المنقبضة ، وأنتم ترون حالى ؟ ! .. انى أعلم جيدا أنك تطلق تنهدة ارتياح حين تغلق الباب وراءك وتتركنى راقدة فى مقعدى ، كالجثة .. أعلم جيدا كيف تدير عينيك عنى لتهمس لنفسك : « يا للطفلة التعسة ! » .. بل أعلم مبلغ سروركم من أنفسكم لكونكم تخصصون من وقتكم ساعة أو ساعتين لتسلية « العاجزة المسكينة » ! .. **لكنى لا أريد تضحياتكم ! لا أريدكم أن تشعروا بأن عليكم واجب التصدق على كل يوم بجرعة من شفقتكم ! .. أقول لك انى فى غنى عن شفقتك الغالية .. فاذا كان يلذ لك ،**

ويسرك ، أن تحضر .. فمرحبا بك .. والا فبربك لا تطأ عتبة هذا البيت بعد اليوم ! »

.. وكانت قد نطقت بالعبارات الأخيرة وقد بلغ منها الاجهاد مبلغه ، فشحب وجهها ، وانطفأت عيناها .. ثم سكنت ثورتها وسقط رأسها الى الوراء فى اعياء ، ولم يعد الدم الى شفتيها المرتجفتين الا تدريجا !.. وبعد أن استراحت هنيهة ، قالت فى لهجة خافتة ، تشى بالخجل : « كان لابد أن أفرغ جعبتى يوما ما .. أما وقد فعلت ، وقلت كل ما أردت قوله ، فدعنا لا نعد الى هذا الموضوع مرة أخرى . أعطنى ، أعطنى سيجارة ! »

.. وكنت ما أزال مشدوها من حملتها المفاجئة ، فقدمت اليها السيجارة ويدى ترتجف ، حتى لقد انطفأ عود الثقاب مرتين قبل أن أتمكن من اشعال سيجارتها !.. ويبدو أنها لاحظت اضطرابى ، فقد عادت تقول لى ، بلهجة رقيقة هذه المرة : « ماذا بك ؟ انك ترتعش !.. ماذا يعنيك من الأمر كله ؟ » .. وانطفأ لهب الثقاب الهزيل ، فبقيت فى مكانى صامتا ، بينما غمغمت هى فى شىء من الانزعاج : « ان أبى على حق ! انك حقا شخص .. غريب جدا ! » ، **وفى تلك اللحظة سمعنا من الخلف صوت المصعد يقترب من السطح .. وبعد لحظة ، برز منه : ((هر كيكسفالفا)) !**

الفصل الخامس

مكاشفة موجعة !

⊙ نهضت لأحيى السيد كيكسفالفا ، وساد الصمت بيننا هنيهة ـ بعد أن انحنى على ابنته فقبل جبينها فى حنان ملحوظ ـ وكأنما أحس قلبه بما كان بيننا من توتر ، فبدا كأنه يود لو ينسحب ، عائدا من حيث أتى ، لولا أن قطعت اديث حبل الصمت وابتدرته قائلة ، فى مرح متكلف :

« أتعرف يا أبى أن هذه أول مرة يرى فيها الملازم « هو فميللر » هذا السطح ؟ » .. وانتهزت أنا هذه الفرصة فقلت : « هذا صحيح ، وانه لمكان رائع حقا ! » .. ثم عدت الى صمتى ، بينما عاد هو فانحنى على ابنته وقال لها : « أخشى أن يميل الطقس بعد قليل الى البرودة ! ... أفلا يحسن أن نهبط الى أسفل ؟ » ، فوافقت الفتاة على الفور ..

وقبل أن يتحرك بها المصعد ، قال لها : «ربما تبغين ابدال ثيابك قبيل العشاء ، وفى هذه الحالة نستطيع نحن أن نقوم بجولة فى الحديقة ! » ، فأومأت برأسها موافقة ، ولم تتكلم . وسرعان ما هبط المصعد بها وكأنه يهوى فى جوف بئر عميق ! .. وفيما نحن ننتظر عودته لنهبط به أيضا ، اقترب منى مضيفى الشيخ فى تردد وحياء ، ثم قال لى هامسا : **« هناك شىء أود أن أحدثك فيه .. خدمة أرجو أن تؤديها لى .. فاذا لم يكن لديك مانع ففى استطاعتنا أن نتحدث فى الأمر فى مكتبى الملحق بالحديقة ! »** .. ولم يسعنى الا أن أعرب له عن ترحيبى بتأدية أى خدمة له ، ثم هبطنا بالمصعد الى الحديقة ، وسرنا بمحاذاة جدار القصر الى بناء منعزل ، فى نهايته حجرة مكتب متواضعة — لا تزيد كثيرا على حجرتى فى المعسكر ! — فدخلناها ، وقدم لى الأب مقعدا ، بينما جلس هو بجانبى على مقعد آخر ، فأخذت أسائل نفسى : **« ماذا عساها تكون هذه الخدمة التى يطلبها هذا المليونير منى ، أنا الشاب الفقير ؟ ! »**

وأخيرا رفع الشيخ رأسه المطرق ، فاذا جبهته منداة بالعرق .. وخلع نظارته المظللة بسحابة كالبخار ، فبدا لى وجهه المغضن أدعى الى الاشفاق ، وأبلغ تعبيرا عن الأسى المرير . وبدت عيناه أشد كلالا وكآبة وأعياء ، منهما تحت النظارة .. كما استطعت أن أستنتج — من الاحمرار الخفيف المحيط بجفونه — انه لا ينام الا قليلا ، ونوما متقطعا ! .. ومرة أخرى أحسست بالشفقة تضطرم فى أعماقى ، وشعرت بغتة

أنى لم أعد أجلس فى مواجهة الثرى الكبير « هر فون كيكسفالفا » ، بل فى مواجهة شيخ محطم ، ناء كاهله بالأحزان ! .. وبعد أن سعل قليلا ، قال لى بصوت أجش : « أريد أن أسألك معروفا كبيرا يا سيدى الملازم ، وأنا أعلم أنى لا أملك الحق فى ازعاجك وأنت لم تكد تعرفنا الا حديثا . وقد أكون متماديا فى الجرأة اذ أطلب اليك شيئا كهذا .. لكنى منذ لقيتك أول مرة شعرت بأنك أهل للثقة ، فأنت تبدو من أول وهلة رجلا طيب القلب ، مستعدا لأن تمد يد المساعدة فى كل وقت .. حتى ليخيل الى أحيانا أن السماء قد أرسلتك الى كى أستطيع أن أتحدث اليك فى صراحة .. لكنى تماديت فى الحديث قبل أن أسألك أولا : هل ترغب فى الاصغاء الى ؟ »

ولما أبديت رغبتى فى الاصغاء ، زفر زفرة حرى ، وشكرنى قائلا : « الواقع أنى مدين بالقدرة على تمييز الأشخاص لزوجتى يرحمها الله .. لقد كان فقدى اياها بداية المأساة ، وان كنت أعزى نفسى أحيانا بأن من لطف الله بها انها لم تعش حتى ترى الفاجعة التى حلت بابنتها ، فانها ما كانت لتتحملها ! **وأنت لاتعلم أننا حين وقع الحادث ـ منذ خمس سنوات ـ لم نكن نحسب أن الأمر سيطول الى هذا الحد ، سيما وأننا نشأنا نحترم الأطباء ، ونسمع كل يوم عن المعجزات التى يحققونها ! ولهذا لم أجزع كثيرا فى البداية ، كما أن ايمانى بالله جعلنى لا أصدق أنه يمكن أن يحكم على طفلة بريئة ، بهذه الكارثة ، الى الأبد ! .. فلو كنت أنا الذى أصبت لفهمت حكمة شىء كهذا ، فلقد ارتكبت فى حياتى شرورا كثيرة .. أما هى ـ وهى المخلوقة البريئة ـ فان عقولنا لتعجز عن ادراك حكمة تقييدها الى مقعدها القاسى ، مدى الحياة ! »**

ومسح محدثى العرق الناضح على شعره المجعد بظهر يده ، ثم استطرد فقال : « اننا لم نترك طبيبا سمعنا عنه الا استدعيناه ! وكم اجتمعوا وتشاوروا باللاتينية ، ونصحوا



«..وأخيرا رفع الشيخ رأسه المطرق ، فاذا جبهته منداة بالعرق.. وخلع نظارته المظللة بسحابة كالبخار ، فبدا لي وجهه المغضن أدعى الى الاشفاق ، وأبلغ تعبيرا عن الأسى المرير . وبدت عيناه أشد كلالا ، وكآبة وأعياء ..»

بأشياء كثيرة ، ثم أخذوا أجرهم ومضوا .. وبقيت الحال على ما هي عليه ! .. وحين تبينوا عقم علاجهم ، كانوا يهزون أكتافهم ، ثم يوصون بالصبر ! .. والآن لم يبق مثابرا على معالجتها ، رافضا الاذعان لليأس ، غير واحد فقط : هو الدكتور « كوندور » . انه ليس ذا مؤهلات علمية كثيرة ، أو خبرة طويلة ، لكنه « انسان عظيم » ولا شك . فهو لا يشغل نفسه بالحالات العادية ـ التي يستطيع أي طبيب معالجتها ـ وانما يقصر اهتمامه على الحالات العسيرة التي ييأس منها الأطباء الآخرون ! وهو لا يطلق الأمل حتى اللحظة الأخيرة ، بل يحيا ويموت مع كل مريض من مرضاه ، غير طامع في مال أو شهرة لنفسه ! انه لا يفكر في نفسه بل في الآخرين ، في أولئك الذين يتألمون .. أوه ، أنه رجل رائع ! »

وبلغ الانفعال بالشيخ حدا جعل عينيه المتعبتين تتألقان في حدة ، ثم واصل كلامه في حماسة : « **نعم انه رجل رائع ، ينظر الى كل حالة كأنها واجبه الأوحد ! بل أنه حين يعجز عن أن يفعل شيئا ، يكاد يعد نفسه مسئولا عن الكارثة ! .. هل تريد مثلا على ذلك ؟ لقد زارته يوما امرأة تشكو ازدياد ضعف بصرها ، ودنوها من مرحلة العمى الكامل ، فوعدها بالشفاء .. ولما عجز عن انجاز وعده ، وحلت بها الكارثة ، لم يسعه الا أن يتزوجها ! .. تصور طبيبا شابا يتزوج امرأة عمياء تكبره بسبعة أعوام ، ولا تملك مالا ولا جمالا ؟ ! .. انها الآن مخلوقة متهوسة ، تعد حملا ثقيلا على عاتقه ، فوق أنها لا تعترف البتة بجميله** ! .. من هذا المثل تستطيع أن تعرف أي رجل هو ، ومبلغ سعادتي بالعثور عليه ، على شخص يعني بابنتي كما أفعل أنا نفسي ، حتى لقد تذكرته في وصيتي ! .. فلئن كان هناك انسان يستطيع أن يشفي ابنتي فانه هو ذلك الانسان .. عسى الله أن يوفقه ! » ، وضم الأب المفجوع راحتيه في حركة ابتهال .. ثم دنا بمقعده مني ، ومضى في كلامه فقال :

ــ والآن أصغ الى يا سيدى الملازم ، فانى أريد أن أسألك معروفا ! .. لقد حدثتك عن مبلغ عطف الدكتور كوندور على ابنتى ، وعلى .. ولكنى أخشى أن يكون شعوره هذا النبيل قد حمله على أن يخفى عنى الحقيقة . انه دائما يعدنى ويؤكد لى أن طفلتى سوف تشفى يوما ما .. لكنى كلما سألته عن موعد حلول هذا اليوم ، يتهرب من الجواب ، موصيا اياى بالصبر .. ولهذا فانى أريد أن أستوثق من الأمر . وأنا كما ترى شيخ متقدم فى السن ، ومريض ، ويهمنى أن أعرف هل سأعيش حتى أرى ابنتى تشفى ، وهل سوف تشفى حقا ؟ .. وصدقنى يا سيدى الملازم أنى لا أطيق العيش على هذا المنوال ، ولهذا أريد أن أعرف الحقيقة ، لأنى لن أستطيع تحمل هذا الشك بعد الآن !

.. وغلبه تأثره ، فنهض ومضى الى النافذة ! .. وأدركت أنه يحاول بذلك أن يخفى دموعه ، لأنه ــ مثل ابنته ــ يأبى أن يكون هدفا للشفقة ! .. ثم أخرج منديلا من جيبه وأخذ يمسح دموعه ، متظاهرا بأنه يجفف عرقه ، ولكنى لمحت أثر البكاء فى احمرار أجفانه ! وبعد أن ذرع الغرفة مرتين أو ثلاثا ، أخذ نفسا عميقا ــ كما يفعل السباح قبيل أن يقفز الى الماء ! ــ ثم عاد الى مقعده فاستطرد يقول : « اغفر لى هذه الاطالة . لقد أردت أن أقول لك : ان الدكتور كوندور قادم من (فيينا) غدا ليرى اديث ــ فهو يأتى كل أسبوعين أو ثلاثة ليفحصها ، ثم يعود بقطار المساء ــ وقد خطر لى أنه لو أتيح لشخص أجنبى عن الأسرة أن يسأله ، فى غير اهتمام كبير ، عما يرجى للمريضة فى المستقبل ، وهل ستشفى يوما ، ومتى .. فلعله يصدقه الجواب ، لأنه فى هذه الحالة لن يشعر بحاجة الى مراعاة احساس السائل الغريب ، كما يراعى احساسى أنا مثلا ، بوصفى والدها المسن المريض ! .. فهل تقبل أن تؤدى لى هذه الخدمة ؟

● **وما كان** لى أن أرفض ، وقد وقف الأب المكلوم أمامى دامع العين ، يتلقف الجواب من شفتى ، وكأنه قضاء الله فيه ! وهكذا وعدته باجابته الى كل ما طلب ، فمد الى يديه شاكرا ، وأردف فى انفعال : « كنت أعلم .. كنت أعلم أنك ستقبل .. وأعدك بأن أحدا غيرى فى الوجود لن يعلم يوما بأمر هذه الخدمة الجليلة التى سوف تؤديها لى ! » ، فقلت له : « لكنها ليست خدمة جليلة .. انها عمل بسيط ! » .. فقال : « بل انها خدمة على أعظم جانب من الأهمية . وانى ليسرنى أن أؤدى لك أية خدمة فى مقابلها !.. انى أعرف كثيرا من الشخصيات البارزة فى مختلف الوزارات ، وفى وزارة الحرب بالذات ، وفى هذه الأيام يحتاج كل شاب الى من يسنده ويأخذ بيده ! »

وأخجلتنى حماسته فى العرض ، ومواجهته اياى — لأول مرة منذ بداية الحديث — بنظرة مباشرة فى عينى .. **بينما امتدت يده تتلمس النظارة التى كان قد وضعها جانبا ، وتثبتها على أذنيه بأصابع مرتعشة .. ثم غمغم أخيرا : « لعله يحسن بنا أن نعود الى البيت ، قبل أن تثور شكوك اديث بشأن سبب خلوتنا وتأخرنا ، فأنها منذ أصيبت غدت مرهفة الاحساس الى أقصى حد ! »**

ووجدنا الفتاة تنتظرنا فى الصالون ، فوق مقعدها الطويل . ولم نكد ندخل حتى حدجتنا بنظرة فاحصة ، كأنما أرادت أن تنفذ بها الى أعماق سريرتنا ، لتقف على سرنا المشترك .. فلما لم نرو غليلها بالافصاح عن شىء ، ظلت بقية السهرة نافرة ، منطوية على نفسها !

● ●

● **كانت** مهمة « تافهة » كما وصفتها ، تلك التى عهد هر « كيكسفالفا » الى فى القيام بها . ولكنى مع هذا عجزت عن ادراك الأهمية المعنوية التى صارت لها بالنسبة لى ،

فما من شىء يزيد ثقة المرء بنفسه ويساهم فى تكوين شخصيته ، أكثر من أن يجد نفسه – على غير انتظار – أمام مهمة عليه أن يؤديها بمجهوده الشخصى ، وعلى مسئوليته الخاصة . ولم تكن المسئولية ذاتها غريبة على ، فلقد طالما جابهت فى عملى ألوانا من المسئوليات ، لكنها كلها كانت فى نطاق محدود ، تتصل بواجباتى الحربية ، وتعتبر تنفيذا لتعليمات مكتوبة أو مطبوعة ، أو لتقاليد مرسومة فى محيط الجيش .. أما المهمة التى كلفنى بها هر « كيكسفالفا » فلم تكن موجهة الى باعتبارى ضابطا ، بل باعتبارى انسانا طيبا ، جديرا بالثقة .. على أن هناك حقيقة واحدة لم تغب عن ذهنى لحظة ، هى أن هذا الرجل الغريب عنى تماما قد اختارنى – دون جميع أصدقائه وأقربائه – كى أنقذه من محنته ! .. وقد أدخلت هذه الثقة على قلبى من الغبطة أضعاف ما أدخلته عليه جميع عبارات الثناء التى تلقيتها من رؤسائى أو أصدقائى ! على أن غبطتى تلك شابها شىء من الاستنكار ، بل الذعر ، عندما تنبهت فجأة الى أن شفقتى على الفتاة المنكوبة لم تتجاوز الناحية السلبية الجامدة .. والا فكيف جاز أن أتردد على هذا البيت أياما ، بل أسابيع متوالية ، بغير أن أوجه يوما الى أحد أفراده السؤال الطبيعى الذى هو أول ما يرد على الذهن فى ظروف كهذه : « هل ستظل الفتاة المسكينة كسيحة هكذا ، على الدوام ؟ وما رأى الأطباء فى حالتها ؟ »

نعم ، اننى لم أستفهم قط من « ايلونا » ، أو من هر كيكسفالفا ، أو من طبيب المعسكر ، عن مصير الفتاة التى أزورها وأقضى السهرة فى ضيافتها كل ليلة ! .. وانما تلقيت عاهتها البشعة على أنها « أمر واقع » لا مجال للتفكير فيه !

وأخيرا جاء حديث أبيها معى ، عن عذابه الطويل ، وحيرته فى صددها ، أشبه بطعنة سكين فى قلبى ، جعلتنى أفيق فجأة

من سباتى وغفلتى ، فأتساءل : « هل يمكن أن تشفى الفتاة من شللها الرهيب ، وتعود فتمشى وترقص ، وتركب الخيل ، وتنطلق ضاحكة فى المروج الخضراء ؟ »

وكأنما أسكرتنى هذه الفكرة ، فلذ لى أن أتخيل ثلاثتنا وقد امتطينا جيادنا ورحنا نركض بها وسط الحقول .. ثم أتخيل اديث وقد خفت لاستقبالى عند الباب فى موعد كل زيارة ، سعيدة مرحة ، حرة ، بدلا من الانتظار مقيدة الى مقعدها فى الصالون !.. وهكذا رحت أحصى الساعات الباقية على موعد حضور الطبيب ، فى لهفة شديدة لعلها تفوق لهفة كيكسفالفا نفسه ، ولبثت أترقب اللحظة التى ألقى فيها الدكتور كوندور ، فأمطره بأسئلتى فى شأن اديث ..

●●

◉ **وفى** اليوم التالى حرصت على أن أفرغ من عملى مبكرا ، ثم هرعت الى القصر قبل موعدى المألوف .. فاستقبلتنى ايلونا قائلة : « لقد وصل الطبيب ، وهو فى خلوة مع اديث منذ حوالى ساعتين ، يفحصها ويجرب معها بعض الاختبارات الدقيقة » .. فجلسنا نلعب الشطرنج فى انتظار فراغ الطبيب من مهمته .. ومضى وقت قبل أن نسمع وقع خطوات تقترب ، ثم دخل علينا « كيكسفالفا » والدكتور « كوندور » وهما لا يزالان منهمكين فى الحديث .. فوجدت صعوبة فى اخفاء شعورى بخيبة الأمل عند وقوع بصرى على الطبيب الذى أطنب مضيفى فى أطرائه والاشادة بعلمه وخلقه .. فقد توقعت أن أرى رجلا ذا طلعة مهيبة ، وعين حادة نفاذة ، وهيئة توحى بالثقة وتنم عن الذكاء اللماح .. **ومن ثم غاص قلبى حين رأيتنى أنحنى تحية لشخص قصير بدين ، أصلع الرأس ، قصير النظر ، تبعثر على سترته الغبراء رماد السجاير بكثرة ، وأعوج رباط رقبته فوق قميصه .. وبدلا من النظرة الحادة ، طالعتنى من عينه نظرة بليدة فاترة ، تطل**

من خلف نظارة معدنية رخيصة مثبتة على أنفه ! .. وقبل أن يفتح كيكسفالفا فمه ليقوم بتقديم كل منا الى الآخر ، مد الطبيب يده الى فى تكاسل ، ثم جلس على مقعد مريح وهو يقول ، مواصلا كلامه :

ـ أخيرا يجد المرء فرصته ليستريح !.. ثم دعنى أصارحك يا صديقى أنى أكاد أموت جوعا ، وحبذا لو أعد لنا «جوزيف» المائدة فورا ، أو أسعفنى ببعض الفطائر مؤقتا . انى دائما أنسى أن قطار بعد الظهر هذا لا تلحق به عربة طعام .. آه ، هذا هو جوزيف يفتح باب غرفة المائدة . مرحى مرحى يا جوزيف ، انك دائما دقيق فى مواعيدك !

ودون أية كلفة ، تقدمنا الطبيب الى المائدة فجلس بغير أن ينتظرنا ، ونشر منشفة على صدره ثم شرع يشرب الحساء فى لهفة وفى صوت مسموع ، بينما راحت عيناه قصيرتا النظر تختلسان النظرات الى زجاجات النبيذ فى شراهة .. ثم طلب من الساقى قدحا من البيرة لفتح الشهية ، وبعد أن تجرعه دفعة واحدة ، أجهز على الطبق الثانى الذى قدم له على الفور ، وبقى مستغرقا فى الأكل الى حد شغله عن أن يوجه كلمة الى أحد منا !.. وبدأت شراهته تثير أعصابى ، ربما لأنى يئست من أن أفوز بطائل ، فى صدد الموضوع الذى يهمنى ، من هذا المخلوق السوقى الذى لا يفكر فى أكثر من الطعام والشراب !.. وبين حين وآخر كان يقطع حركة المضغ والبلع ليلقى أسئلة وتعليقات تافهة لا تحتاج الى جواب ، بينما تجاهلنى أنا تجاهلا تاما ، قابلته بمثله فلزمت الصمت المطلق !.. وحين انتقلنا الى الصالون ، حيث كانت أقداح القهوة تنتظرنا ، ألقى الدكتور كوندور جسمه المكتنز على مقعد « اديث » الخاص ، الذى كان مزودا ومبطنا بالوسائد المريحة والمساند الجانبية .. ثم تناول ثلاث لفائف من السيجار الفاخر ، وضع اثنتين منها على طبق قدح القهوة ،

كمدد احتياطى !.. وبعد أن أفرغ فى جوفه الفنجان الثانى من القهوة ، أطلق من فمه صوتا أشبه بصوت الخنزير الذى التهم وجبة دسمة .. ثم التفت الى كيكسفالفا قائلا فى تهكم ، وهو يغمز بعينه ويتمطى متثائبا :

ـ انك تبدو نافد الصبر فى انتظار سماع تقريرى عن الحالة .. ولكن كان ينبغى أن تتذكر أنى لا أحب الخلط بين الطعام والعمل ، هذا الى أنى كنت جائعا ومتعبا الى أقصى حد .. فقد لبثت واقفا على قدمى منذ الساعة السابعة والنصف صباحا .. والآن يا صديقى ..

وهنا سكت ريثما جذب نفسا طويلا من السيجار ، ثم أطلق حلقات من الدخان الأزرق فى الهواء ، وقال : « الآن نستطيع أن نتحدث .. ان كل شىء يسير سيرا مرضيا : تمرينات المشى ، وتمرينات مد الساقين .. كلها تتحسن تحسنا ملموسا . وانما الشىء الوحيد الذى وجدته متغيرا قليلا ـ وأرجو ألا تقلق البتة يا صديقى العزيز ـ هو حالتها النفسية ! »

وبرغم استدراك الطبيب ، بدا على كيكسفالفا الانزعاج ، حتى اهتزت الملعقة فى يده ، وقال مقاطعا : « تغيير ؟ ماذا تعنى ؟ أى نوع من التغيير ؟ » .. فقال الطبيب : « أنا لم أقل انه تغيير الى أسوأ ، لا تحمل كلامى أكثر مما يحتمل ! .. **أنا نفسى لا أعلم حتى الآن كنه ما حدث ، لكنى لحظت ان « شيئا ما » على غير ما كان ينبغى . شيئا لا يمت الى مرضها ، بل الى نفسها ، حتى لقد شعرت اليوم ـ لأول مرة ـ كأن زمامها قد أفلت من يدى ، الى حد ما . ويحسن أن نعالج الموقف بصراحة ونكشف جميع أوراقنا ، فقل لى يا صديقى ، بكل اخلاص وصدق : هل دفعك قلقك على ابنتك الى استقدام طبيب آخر لفحصها أثناء غيبتى ؟ وهل فحصها طبيب ما بعد زيارتى السابقة ؟ ! »**

فصاح كيكسفالفا فى استنكار ، وكأنه اتهم باثم فظيع : « كلا ! وأقسم لك بحياة ابنتى ! » .. فقال الدكتور كوندور : « حسنا جدا . هذا يكفى ، فلتوفر ايمانك المغلظة . انى أصدقك بغيرها ، وأعتبر المسألة منتهية .. واذن فلابد أن هناك عاملا آخر أحدث ذلك التغيير ! »

.. ومرة أخرى صاح الأب جزعا : « ولكن ماذا بها ؟ ماذا تقصد بقولك أنها تغيرت ؟ » .. فأجاب الطبيب : « يا عزيزى ، انك تعقد الأمور بجزعك هذا . أقسم لك بشرفى أن ليس ثمة داع للقلق ، والا لما جلست هكذا أحدثك عن الأمر من مقعدى المريح وأنا أجرع خمرك المعتقة ! .. ولهذه المناسبة ، هذا الكونياك رائع حقا ! »

ثم اضطجع فى مقعده ، وأغمض عينيه لحظة ، واستطرد : « انه لمن الصعب حقا أن أشرح وجهة نظرى ، فانها تدور حول الصلة الروحية التى تنشأ بين المريض وطبيبه ، ذلك المزيج من الثقة والشك الذى يتبادلانه ، والذى يكون فى حالة « مد وجزر » .. **ان الأمر يشبه – مع الفارق – أمر الجواد الذى يقترضه منك شخص لبضعة أيام ، ثم تركبه بعد ذلك فتجد كأنه خرج من سيطرتك ، وألف سيطرة يد أخرى !** .. فلقد لاحظت اليوم مثلا أن اديث تبدى شيئا من « المقاومة » لتمريناتى واختباراتى ، وتعرب متذمرة عن شكها فى أن تكون لها أية فائدة أو نتيجة . وهذه الظاهرة تحدث منها لأول مرة ! .. على أنى لا أقصد أن هذا التمرد منها يدل على سوء حالتها ، بل انه – على العكس – قد يكون من أعراض ازدياد رغبتها فى الحياة ولهفتها على الشفاء ! .. لذلك أكرر لك أنى لست قلقا البتة ، بل انى اذا فكرت الآن فى تجربة علاج جديد فانى أكاد أكون واثقا من أن الفتاة سوف تبذل مجهودا نفسيا جبارا كى تشفى ! .. لست أدرى اذا كنتم تفهمون كلامى ؟ »

.. وهنا اندفعت أنا قائلا بغير وعى : « نعم .. بلا شك »

.. وكانت الكلمة الأولى التى أوجهها الى الطبيب منذ وقع عليه بصرى ، فقد بدا الأمر لى واضحا كل الوضوح . **أما الأب فقد ظل يحدق فى الفضاء بعينين لاتريان . وقد شعرت بأنه لم يفهم شيئا من كلام الطبيب ، لسبب بسيط : هو أن مخاوفه كلها كانت مركزة فى سؤال واحد هو : « هل تشفى ابنته يوما ؟ ومتى ؟ »** .. وقد قرأت فى عينيه انه يود لو يلقى على الطبيب مزيدا من أسئلته ، لولا خشيته أن يضايقه !

وانتهز الطبيب فرصة الصمت القصيرة ، فنهض وهو يقول : « أحسب ان فى هذا القدر الكفاية اليوم .. واذا حدث أن أظهرت أديث فى الأيام المقبلة شيئا من العصبية ونفاد الصبر ، **فلا تنزعجوا ، فانى لن ألبث أن أضع يدى على العامل المجهول ! .. وفى انتظار ذلك أرجو منكم أن تضبطوا أعصابكم ولا تظهروا للمريضة أدنى قلق أو اضطراب** . والآن دعونى أنصرف ، وأرجو ألا تستدعى سيارتك لتقلنى ، فاننى أرغب فى المشى قليلا كى أستنشق شيئا من الهواء النقى ، وأستمتع بالقمر الرائع ! »

وهنا تذكرت مهمتى ، فانتهزت الفرصة وزعمت أنى مضطر لليقظة مبكرا ، ومن ثم ينبغى أن أنصرف بدورى .. فأضاء الأمل عينى الكهل وهو يرمقنى من وراء ظهر الطبيب بنظرة ذات معنى !

●●

● **لم نكد** ـ الدكتور كوندور وأنا ـ نبلغ السلم المؤدى الى الحديقة حتى أخذنا بمنظر يبهر الأبصار : كان القمر المكتمل أشبه بقرص من الفضة المجلوة قد علق فى السماء المرصعة بالنجوم ، والحصباء تبرق مثل البرد بين صفى الأشجار المتاخمة للممر ، والتى ينطرح أمام كل منها ظلها ، فتبدو هى أشبه بالزجاج فى الضوء ، وظلالها مثل أشباح فى الظلام .. والسكون الساجى يشمل الحديقة الغارقة فى فيض

من السنا الثلجى .. فسرنا صامتين ، مأخوذين بروعة الطبيعة المحيطة بنا ، حتى مرقنا من باب الحديقة الخشبى ودلفنا الى الطريق .. وعندئذ التفت الطبيب الى قائلا ، فى بساطة لم أتوقعها منه : « مسكين كيكسفالفا ! .. أنى ألوم نفسي لكونى أجبته بخشونة ، لكنه كان خليقا بأن يمطرنى بمائة سؤال وسؤال فى الموضوع نفسه .. وقد كنت من الاجهاد والتعب بحيث لم احتمل مزيدا .. والواقع أن الذى يرهقنا ويجعل الحياة شاقة علينا ، فى مهنتنا هذه ، ليس الحاح المرضى انفسهم وأسئلتهم — فهذه كلها أمور مقبولة منهم بحكم مرضهم ، عدا ان لنا فى الرد عليها جعبة لا تفنى من المسكنات و « الأكاذيب البيضاء » — وانما الذى يضايقنا حقا هو الحاح أقارب المرضى وأصدقائهم ، فهم يحاصروننا كما لو كان مريضهم هو وحده الذى ينبغى أن نفكر فيه ، ولا نهتم بسواه ! .. وقد أفهمت كيكسفالفا أكثر من مرة أن عندى فى المدينة حالة خطيرة يتأرجح صاحبها بين الحياة والموت منذ أيام ، وتتطلب منى اليقظة المستمرة .. ومع ذلك فهو لا يفتأ يتصل بى بالتليفون كل يوم ليمطرنى بأسئلته التى لا تنتهى ، ويحاول أن ينتزع منى بأى ثمن كلمة تبعث الأمل فى نفسه .. وأنا أول من يدرك ضرر هذا القلق المستمر عليه ، ومن حسن الحظ انه لا يقدر مدى هذا الضرر ! »

وأحسست بانقباض مفاجىء .. اذن فالحالة سيئة حقا ؟ .. لقد أمدنى كوندور ، بهذه العبارة ، بالمعلومات التى كنت أبغى استيفاءها منه .. ولم يبق الا أن أستحثه على أن يزيدنى علما بالتفصيلات .. فقلت له : « لا تؤاخذنى ياسيدى الطبيب .. لكنى لم أكن أحسب أن اديث فى حالة سيئة الى هذا الحد ؟ ! » .. فقاطعنى فورا فى دهشة : « اديث ؟ ماذا تعنى ؟ .. انى لم أقل شيئا عن حالة اديث .. وانما عنيت أنى قلق على كيكسفالفا نفسه .. ألم تلحظ مدى انحلال صحته خلال

الأشـهر الأخيرة ؟ ! » .. فقلت : « انى لم أتشرف بمعرفة « هر فون كيكسفالفا » الا منذ أسابيع فقط » .. فقـال : « اذن ليس فى وسعك أن تلمس التغيير الكبير الذى طرأ عليه . أما أنا فيزعجنى حقـا أن أرى نحـوله ، وبروز عظـام يديه وشراايينه ، ولون بشرتهما الذى يذكرنى بأيدى الموتى ، والواقع أن أمثال كيكسفالفا من الرجال الذين عاشوا أقوياء نشطين ، هم الذين يضرهم أبلغ الضرر أن يستسلموا لعواطفهم ، ويعتبر من نذر الخطر على حياتهم أن ينقلبوا من قسـاة عنيدين الى مشفقين رقيقى القلوب ! .. وقد فكرت منذ أمد فى فحصه وتحذيره من سوء العاقبة ، لكننى خشيت أن ينقلب قصدى على فيقتله الوهم والخوف .. قبل أن يقتله الضعف والمرض ! .. ولعلك تقدر أنه ليس من اليسير على مثله أن يشعربدنو شبح الموت منه وقرب فراقه لوحيدته ، اذا كان سيخلفهـا وحيدة فى الدنيـا ، كسيحة لا حول لهـا ولا طول ! .. كلا يا سيدى الملازم ، لقد أخطأت فهمى : فليست اديث موضع اهتمـامى الآن بل هو أبوهـا .. وأخشى أن تكون أيامه على الأرض قد باتت معدودة ! »

وصدمنى قوله ، فان شيئا كهذا لم يخطر ببالى من قبل ، ولم أكن قد فجعت طيلة حياتى فى أى قريب أو صديق لى ، فلم أستطع أن أتصور كيف يمكن لشخص كنت أتناول الطعام معه ، وأتحدث ، وأشرب .. أن يشرق عليه الصباح التـالى فاذا هو جثة هامدة فى كفنهـا ! .. وأدركت من الوخزة التى طعنت قلبى على الأثر أنى قد تعلقت فعلا بكيكسفالفا . . فقالت ، فى نوبة انفعالى واشفاقى : « ياله من أمر محزن أن يموت مثل هذا الرجل النبيل الكريم الطيب .. بل الارستقراطى الأصيل حقا ! » .. وهنـا توقف كوندور فى مكانه ، وقد بدت عليـه الدهشة الهائلة ، وقال لى وهو يكاد يكذب سمعه : « نبيل ؟ .. ارستقراطى ؟ .. أعذرنى يا سـيدى الملازم ، ولكن ..

أحقا أنت تعنى كيكسفالفا بهذه الأوصاف ، جادا ؟ »

فخيل لى ، من فرط استنكاره ، انى قد تفوهت بحماقة ما .. فأجبته فى شىء من الحيرة : « انى أحكم عليه بوحى من خبرتى الخاصة .. فمنذ عرفته ، لمست فى جميع تصرفاته وحركاته دلائل الجلال والأصل العريق ! » .. **لكننى توقفت عن الكلام من تلقاء نفسى ، حين لمحت أمارات الاستغراب تتزايد على وجه محدثى ، وهو واقف تجاهى ، وتلمع فى عينيه خلف نظارته السميكة .. حتى لقد خلت نفسى أمامه كحشرة صغيرة تحاول التملص تحت عدسة « ميكروسكوب » ضخم !**

.. ثم استأنف الطبيب كلامه فقال :

ـ يصعب على أن أصدق أنك ، رغم تكرر زياراتك للقصر ، فى هذه البلدة الصغيرة التى تسرى فيها الشائعات وتعرف الأخبار بسرعة هائلة ، لم تصادفك مناسبة تسمع فيها من أحد الأهالى ـ أو من زملائك الضباط ـ ملاحظة أو تعليقا يتنافى مع حسن ظنك فى « نبل » هذا الرجل .. وهذا يزيدنى اقتناعا بسذاجتك ! .. والواقع اننى طالما اتهمته بالمغالاة فى وصفه اياك ، وشككت بعض الشىء فى حماسته لك ، فلقد عجزت عن أن أصدق حقا أنك لم تتردد على داره من بادىء الأمر الا تكفيرا عن سقطتك الأولى ، وبدافع العطف الخالص على اديث ، والصداقة البريئة للأسرة ! .. **بل لقد حدثت نفسى بأنك واحد من اثنين : اما شاب بعيد النظر يحاول أن يظفر بصيد دسم ، أو حدث ساذج العاطفة استجاب ـ كما لا يستجيب غير الشباب وحدهم ـ لجاذبية مغامرة من المغامرات المفجعة الخطيرة** .. وعلى أية حال فلست أرى مبررا لأن تخجل من الصداقة الخالصة التى أظهرتها له ولابنته ، أو تدع أقاويل الناس تؤثر فى صلتك بالأسرة .. فان تلك الأقاويل لا تنطبق على الشخص الرقيق الحنون المستحق للعطف والرثاء .. الذى صاره « كيكسفالفا » فى هذه الأيام !

.. وكان الدكتور كوندور يتكلم وهو يسير الى جوارى ، دون أن ينظر الى .. ثم لزم الصمت دقائق ، وقد بدا عليه التفكير والتردد .. وأخيرا أبطأ الخطى والتفت الى قائلا : « أصغ الى يا سيدى الملازم . ان المعلومات أو « الايحاءات » المبتورة هى مبعث أكثر الشرور فى هذه الدنيا .. وقد يكون لسانى انزلق بأكثر مما ينبغى أن أقول ، فأثار فضولك الى حد لن تقوى معه على مقاومة شوقك الى الاستفسار من الناس عن المزيد .. **ولما كنت أخشى أن تجىء المعلومات التى قد يفضون بها اليك مخيبة لآمالك .. أو أن تجد حرجا فى المداومة على زيارة قوم لا تعرف عنهم شيئا .. فانى أضع نفسى تحت تصرفك ، اذا كان يهمك أن تعرف المزيد عن صاحبنا ! »**

فلما أجبته مرحبا بمعلوماته ، نظر فى ساعته ثم قال : « أمامنا قبل موعد قطارى ساعتان ، فى وسعنا أن ننفقهما فى هذا الحديث .. فى أى مكان هادىء تختاره ! »

الفصل السادس

تاريخ غريب !

● **وفى مقصورة** منعزلة بأحد المقاهى المعدة لخلوة العشاق ، حدثنى الطبيب فقال : « لعله يحسن بنا أن نترك الآن صديقنا الارستقراطى « هر فون كيكسفالفا » .. فعندما بدأت القصة لم يكن يوجد رجل بهذا الاسم ، يملك الضياع الواسعة ، ويرتدى السترة السوداء والنظارة ذات الاطار المذهب ! .. لم يكن يوجد غير غلام يهودى ذى عينين نفاذتين ، وكتفين رقيقتين ، يعيش فى قرية صغيرة تعسة على الحدود الهنغارية السلوفاكية ، ويدعى « ليوبولد كانيتز » .. **وكان « كانيتز » يعيش من حراسة جياد الفلاحين أو عرباتهم ، وهم يحتسون الخمر فى حانة القرية ، أو يحمل للنسوة**

سلالهن أثناء عودتهن من السوق ، مقابل حفنة من البطاطس مثلا !

« أما والد كيكسفالفا ــ أو بالاحرى والد « كانيتز » هذا ــ فكان يملك حانة متواضعة خارج القرية ، يؤمها قطاع الأخشاب والحوذية كى يشرب كل منهم قدحا أو اثنين من الخمر الرخيصة ، تدفىء أجسادهم وتعينهم على اجتياز سهول « الكربات » المكسوة بالجليد .. وأحيانا كانت الخمر تصعد الى رؤوسهم ، فيتشاجرون ، ويحطم بعضهم مقاعد الحانة ومناضدها على رؤوس البعض الآخر .. وفى احدى هذه المشاجرات أصيب صاحب الحانة بصدمة ما لبثت أن قضت على حياته ، بعد مرض طويل ، دون أن يترك وراءه مالا تعيش عليه أسرته .. فاضطرت زوجته الى احتراف غسل الثياب ، والقيام بمهمة « القابلة » فى حالات الولادة التى تتعرض لها نساء القرية ، أو بيع بعض البضاعة فى الطرقات ، بينما كان « ليوبولد » ابنها يسير معها حاملا بضاعتها على ظهره .. وفيما عدا ذلك كان الغلام يكسب بعض الدراهم من أى عمل بسيط يصادفه ، ويطوف بقرية بعد قرية لتوزيع منتجات أحد الحوانيت . وفى السن التى يلعب فيها الصبية « البلى » ولا يعرفون شيئا عن هموم الحياة ، كان « كانيتز » قد ذاق الكثير منها ، وعرف لكل جزء من درهم قيمته ! .. ثم تعلم الصبى القراءة والكتابة على يد رئيس الطائفة اليهودية فى القرية ، فلما بلغ الثالثة عشرة استطاع أن يؤدى بعض الأعمال الكتابية لأحد المحامين ، وبعض الأعمال الحسابية وكشوف الضرائب لأصحاب الحوانيت الصغيرة .. ولكى يوفر كل قطرة من وقود الاضاءة ، صار يجلس كل ليلة تحت مصباح الاشارة الواقع على شريط السكة الحديدية ، كى يقرأ بقايا صحيفة ممزقة ، بغية الاستزادة من المعرفة والمعلومات العامة !

« فلما بلغ سن العشرين ، هجر القرية الى (فيينا) ،

حيث استطاع الحصول على عمل فى احدى شركات التأمين ، الى جانب عشرات الأعمال الاضافية المنوعة التى كان يقوم بها فى أوقات فراغه ، بنشاط وهمة نادرين ، مما جعله يشبه « السمسار » أو الوسيط فى كل ما يصلح للوساطة ، من أعمال تجارية وغير تجارية .. وسرعان ما بدأ الأهالى يتنبهون الى نشاطه ، ثم يشعرون بحاجتهم اليه ، فقد كان مخزنا للمعلومات لا ينضب معينه ، يعرف كل شىء معرفة الخبير المطلع .. فاذا أرادت أرملة أن تزوج ابنتها وجدت فيه نعم الوسيط للزواج .. وان رغب شخص فى المهاجرة الى أمريكا مثلا وجد عنده المعلومات و « الاستمارات » اللازمة ، وطرق تيسير اجراءاتها .. وكان الى جانب ذلك يشترى ويبيع الثياب القديمة ، والساعات ، والتحف الأثرية .. ويقدر قيمة الأراضى ، والمنقولات ، والجياد ، ويستبدلها لعملائه .. ويعقد القروض المالية للضباط ومن اليهم .. الخ .. وكانت دائرة أعماله واختصاصاته تتسع عاما بعد عام !

« لكن ذلك كله ما كان ليعود عليه بثروة يعتد بها ، لولا تقتير صاحبنا الشديد فى نفقاته .. من ذلك أنه لم ينفق على ملبسه ومظهره طيلة عشرات من السنين غير ثمن هذه السترة السوداء والنظارة ذات الاطار المذهب اللتين تراهما عليه اليوم ، واللتين كانتا بمثابة رداء التنكر الذى أخفى تحته رواج أحواله ، وانتقاله من مرتبة الوسيط البسيط الى مرتبة « المقاول » والرأسمالى !.. كان يعنيه أن يصير غنيا ، لا أن يبدو فى مظهر الغنى !

« وبقدر شراهته فى جمع المال ، كانت شراهته فى زيادة معلوماته .. لم يكن يكف عن القراءة والدراسة ، فى كل دقيقة تفيض من وقته أثناء حله وترحاله : درس كتب القوانين التجارية والصناعية ، كى يستغنى عن المحامين فى أعماله .. وتتبع جميع المزادات الكبيرة فى باريس ولندن ، باهتمام تاجر

العاديات المحترف !.. وجعل من نفسه خبيرا فى كل الصفقات المالية على اختلافها .. وهكذا تطور عملاؤه من فئة الفلاحين ، الى فئة المزارعين ، ثم فئة ملاك الأراضى الأرستقراطيين ، فلم يلبث أن صار يفاوض فى بيع حاصلات مزارع كبيرة أو غابات شاسعة ، وفى بناء المصانع أو تأسيس النقابات ، أو التعاقد لتوريد ما يلزم للجيش ، وغير ذلك .. وصارت السترة السوداء والنظارة المذهبة تشاهدان أكثر فأكثر فى أروقة دور الوزارات .. وبلغت ثروته نحو ربع مليون ريال ، وربما نصف مليون .. كل ذلك والناس ينظرون اليه نظرتهم الى الوسيط البسيط ... حتى أتيح له أن يضرب الضربة الكبرى ، فيتحول من « ليوبولد كانيتز » النكرة المغمور ، الى « هر فون كيكسفالفا » !

●●

● « .. **وهذه** المعلومات التى سردتها عليك وقفت عليها من غير صاحبها .. أما القصة التالية فقد رواها لى هو شخصيا ، على أثر اجراء جراحة خطيرة لزوجته ، أثناء انتظارنا للنتيجة واجفين فى احدى غرف المستشفى ، بين الساعة العاشرة مساء ومشرق الفجر .. ومن ثم أستطيع أن أؤكد لك صحة كل حرف منها ، ففى مثل تلك الظروف ، فى مواجهة الموت ، لا يستطيع الانسان أن يكذب ! »

.. ورشف كوندور نبيذه فى بطء وتأمل ، ثم أشعل سيجارا آخر ، مضى يتابع دخانه بنظرات حالمة .. وأخيرا انتزع نفسه من شروده فى حدة ، واستطرد فقال : « **تبدأ القصة فى قطار بطىء يسير من بودابست الى فيينا .. وكان صاحبنا ـ رغم بلوغه الثانية والأربعين ، ودبيب المشيب فى سالفيه ـ ما يزال يقضى أكثر لياليه فى الأسفار ، ضنا بأوقاته النهارية الثمينة أن تضيع فى القطارات . ولست فى حاجة الى القول بأنه كان يركب دائما فى عربات الدرجة الثالثة !**

.. وكان له فى أسفاره برنامج لا يتغير ، فهو يفرش على المقعد الخشبى الصلب خرقة سميكة باليـــة ، ثم يخلع سترته ونظارته ، ويرتدى سترة من صوف (التريكو) ، ويدلى قبعته على عينيه كى تحجب عنهما النور .. ويقبع هكذا فى ركن العربة حتى يغلبه النعاس .. وكان قد تعلم منذ صباه أن الانسان ليس فى حاجة الى السرير كى يقضى الليلة ، أو الى الراحة كى يستطيع أن ينام !

« لكنه فى هذه المرة لم ينم ، فقد نمى الى سمعه حديث خافت يدور بين ثلاثة من جيرانه فى العربة .. حديث أطار النعاس من عينيه ، فقد كان ينصب على المال !.. كان أحد الثلاثة يقول لمرافقيه : « ان المحتال الماكر قد ربح من هذه الخدعة البسيطة ستين ألف ريال ، فى غمضة عين ! » .. وهنا راح « كانيتز » يحدث نفسه متسائلا : « ستون ألفا ؟.. من الذى ربحها ؟ وكيف وأين ؟ » .. وسرعان ما كان فى أتم يقظة ، وكأن « دوشا » فى برودة الثلج قد بدد من حواسه كل ميل الى النوم ، فغدت مرهفة لسماع قصة الستين ألف ريال !.. ومن ثم جذب القبعة على عينيه أكثر من ذى قبل ، كى لا يلحظ رفاقه أنه يقظان ، وانتهز فرصة كل ارتجاجة من ارتجاجات القطار كى يدنو بجسمه من المتحدث تدريجا ، حتى لا تفوته من حديثه كلمة ، برغم ضجيج القـاطرة .. وكان المتحدث ـ كما يبدو من كلامه ـ كاتبا فى مكتب محام بفيينا ، يروى فى غيظ قصة مخدومه المحامى المحظوظ الذى ربح ذلك المبلـغ الضخم دون عنـاء .. وبرغم أن الحديث كان مبتور البداية ، فقد اسـتطاع « كانيتز » أن يفهم مضمونه بفضل انزلاق لسان المتحدث باسم الأميرة « أوروزفار » التى كانت الصحف قد رددت اسمها كثيرا بصدد قضية مشهورة كانت بطلتها .. وسأحاول أن ألخص لك وقائع تلك القضية فيما يلى : « كانت « أوروزفار » أميرة روسـية ثرية هاجرت من

أوكرانيا على أثر وفاة زوجها .. **ثم فجعت بوفاة طفليها الاثنين فى ليلة واحدة بتأثير مرض السعال الديكى ، فامتلأ قلبها بالكراهية القاتلة لبقية أقربائها الذين يتطلعون الى ساعة موتها كى يقتسموا تركتها الضخمة ، فامتنعت عن مقابلة أى فرد منهم أو فض أى خطاب يرسله اليها ــ ولعل حقدها على هؤلاء ، ورغبتها فى النكاية بهم ، كانا من العوامل النفسية التى أعانت على أطالة عمرها حتى بلغت الرابعة والثمانين !** ــ ولم تكن الأميرة ، بعد فواجعها الثلاث ، تطيق البقاء فى قصرها بضيعة « كيكسفالفا » أكثر من شهرين كل عام .. أما بقية السنة فكانت تقضيها متنقلة بين مشاتى أوربا ومصايفها الفاخرة : (نيس) و (مونترو) و (كان) و (أكس ليبان) وغيرها ، حيث كانت تنفق عن سعة وبذخ ، وتستنفد كل المتع التى يتيحها لها ثراؤها العريض . وكانت لها تابعة ــ بمثابة وصيفة ــ تلازمها فى كل تنقلاتها ، فتطعمها ، وتزينها ، وتعزف لها البيانو ، وتقرأ لها الروايات الفرنسية الشائقة ... ثم تتحمل منها ، علاوة على كل هذه المتاعب ، توبيخها وانتهارها ، بل وضربها اياها أحيانا ، كلما أدارت « الفودكا » أو « الكونياك » رأسها ! .. وكان أهالى تلك المصايف جميعا يعرفون الأميرة المتغطرسة وتابعتها النحيلة ذات العينين الشاحبتين التى تتبعها كظلها ، وتسير خلفها مع كلابها ، ولا تخفى خجلها من عجرفة مولاتها المبتذلة .. وان كانت تخشاها كما تخشى الشيطان !

« وكانت الأميرة قد أصيبت ــ فى سن الثامنة والسبعين ــ بالتهاب رئوى حاد ، أثناء اقامتها بأحد فنادق (تيريتيه) .. وتسرب النبأ الى أقاربها فهرعوا من بلادهم الى حيث احتشدوا فى الفندق يطاردون الأطباء باستفساراتهم ، ويتعجلون موت مورثتهم ! .. **لكن « الحيزبون » شفيت آخر الأمر ، فتفرق الأهل عائدين من حيث أتوا ! .. ورشت الأميرة**

بالمال خدم الفندق وسعاته كى يعيـدوا على مسمعها ما قاله فيها أقاربها .. فأيدت روايتهم ظنونها فى مطامعهم الأشعبية ، فقد قيل لها انهم تشاجروا كعصبة من الذئاب حول من يأخذ ضيعة (كيكسفالفا) ، ومن يفوز بضيعة (أوروزفار) .. ومن يستولى على الجواهر ، ومن تكون من نصيبه أملاكهـا فى أوكرانيا ، وقصرها فى (أوفترشتراس) .. الخ .. فأبرقت الأميرة على الأثر الى محاميهـا فى بودابست كى يوافيهـا ، وبحضور طبيبين – شهدا بامتلاكها لقواها العقلية – حررت وصية جديدة ، ظلت فى حرز حريز بعد ذلك ستة أعوام كاملة ، حتى وافى الموت أخيرا صاحبتها ففتحت .. **واذا هى توصى فيها بجميع أملاكها لتابعتها الآنسة ((انيت ديتزينوف)) ، فيما عدا ضيعة (أوكرانيا) وأموالها النقدية فقد تركتهـا لمجلس بلدية المدينـة التى ولدت فيها ، كى يبنى بها كنيسـة .. وأوضحت الوصية فى ختام وصيتها أنها قد حرمت أقرباءها جميعا ((لأنهم لم يصبروا عليها حتى تموت !))**

وصعقت الوصية أقرباء الأميرة ، فجنـدوا المحامين ، ورفعوا الدعاوى طالبين الحكم ببطلان الوصية ، باعتبار أنها كتبت أثناء ((مرض الموت)) ، فى وقت لم تكن صاحبتها فيـه متمتعة بكامل وعيها .. الى آخر الحجج القانونيـة والمزاعم المألوفة فى هذا الصدد .. ولكن دون جـدوى ، فقد خسروا قضيتهم فى مرحلتيهـا الأوليين ، ولم يكن ثمة شك فى أنهم سوف يخسرونها أمام محكمة النقض أيضا !

((والآن نعود الى ((كانيتز)) وهو يستمع – متناوما ! – للحديث الذى يجرى بجواره فى عربة القطار ، (فقد كان يعرف الكثير عن ضيعة (كيكسـفالفا) منذ بدأ اشـتغاله بأعمـال الوسـاطة) ، فسمع كاتب المحـامى يذكر أن أقرباء الأميرة انتهزوا فرصة غياب محامى الوارثة فى فيينا ، لحضور قضية أخرى صغيرة ، وزار وفد منهم غريمتهم الآنسة ((آنيت)) ،

وأفلحوا فى التأثير عليها ، والتلويح لها بالراحة وهدوء البال والخلاص من مشكلات القضايا والمنازعات أمام المحاكم ، فى مقابل عقد تسوية خاصة معهم قبل موعد نظر النزاع أمام محكمة النقض .. **وقبلت الساذجة اقتراحهم فوقعت على التسوية المعروضة ، وبذلك فرطت بجرة قلم فى أكثر من نصف الثروة الى ورثتها !** .. وطبعا كان فى الامكان اثبات بطلان هذه التسوية التى لم تتم بحضور محضر قضائى مختص ، والتدليل على أن الوارثة حين وقعت عليها كانت تحت تأثير عصبة الأقرباء المدلسين ، لكن هؤلاء عرفوا من أين تؤكل الكتف ، فسارعوا الى شراء سكوت محاميها عن اتخاذ أى اجراء ضدهم فى مقابل ذلك المبلغ الدسم ، الستين ألف ريال ! .. وهكذا لم يبق الآن للوارثة الحمقاء من الثروة الضخمة التى آلت اليها غير ضيعة كيكسفالفا ، وهى لن تلبث أن تفرط فيها بدورها فيما أعلم .. فان شخصا من رجال الأعمال يدعى « بتروفيك » يعتزم استئجارها منها بمبلغ زهيد ! »

« .. وعند هذا الحد تشعب الحديث الى موضوعات أخرى ، **ولكن بعد أن سمع كانيتز ما فيه الكفاية لكى يسيل لعابه ، فقد كان أعرف الناس بالكنوز والتحف التى يحتوى عليها قصر كيكسفالفا ، منذ توسط فى التأمين عليها لدى احدى الشركات قبل عشرين عاما** ، وكان بينها أوان من الخزف الصينى المزخرف والحرير المشغول خلفها جد الأميرة الذى كان سفيرا لروسيا فى (بكين) — وهى وحدها تساوى فى نظر عشاق التحف من الأمريكيين مبالغ طائلة — فلو أمكنه الحصول عليها بثمن مناسب ، فى زحمة انتقال ملكيتها من مالك الى آخر ، لكانت صفقة رابحة حقا ، سيما وهو يعرف «بتروفيك» الذى يقال أنه سوف يستأجر القصر .. وهكذا صح عزم صاحبنا على أن يتسلل من القطار فى أقرب محطة الى الضيعة

ـ وكان مقدرا أن يبلغها فى منتصف الساعة الثالثة صباحا ، أى بعد نحو نصف ساعة ! ـ وبالفعل ، نفذ المغامر هذا الخاطر فورا ، فغادر القطار فى المحطة التالية .. وبعد ليلة قضاها مؤرقا ، مثل القائد المقدم على معركة لا يطمئن الى نتيجتها ، غادر « كانيتز » غرفته بفندق القرية ، فى تمام الساعة السابعة صباحا ، متجها الى القصر .. وتلاحقت دقات قلبه وهو يطرق باب الحديقة الرئيسى ، دون مجيب .. فمضى يطوف ببقية الأبواب التى تتخلل سور الحديقة ، ويدقها بيده ، ويصفق ، ويصيح .. ولكن دون جدوى ! .. وضاعفت من قلقه خشيته أن يكون « بتروفيك » اللعين قد هرع الى (بودابست) ليعقد صفقته مع الوارثة الساذجة بغير ابطاء !.. وأخيرا لمح امرأة تسقى أصص النباتات داخل غرفة زجاجية تقع فى طرف الحديقة ، فطرق على الزجاج بيده ، وأشار الى المرأة كى تفتح له أحد الأبواب .. وأقبلت هذه آخر الأمر ، تتعثر فى مشيتها ـ خجلا أو ترددا ـ وكانت امرأة نحيلة جاوزت طور الشباب الأول ، ترتدى قميصا بسيطا قاتما و (مريلة) قطنية ، وتمسك فى يدها مقص الحديقة الكبير نصف مفتوح .. فصاح بها ، نافد الصبر : « انكم تتركون الزائر ينتظر طويلا على الباب .. ولكن أين بتروفيك ؟ » .. فأجابت المرأة فى تلعثم : « من ؟ آه ! ، تعنى بتروفيتش ؟ .. انى لم أره ، ولكنى أحسب أنه قد ذهب الى فيينا ، وزوجته تأمل أن يعود الى هنا فى المساء . »

« وعز على كانيتز أن يقضى ليلة أخرى فى الفندق ، ينفق فيها نفقات أخرى ، دون وثوق من النتيجة .. ولعن سوء الحظ الذى جعل الرجل يختار هذا اليوم بالذات للتغيب عن البلدة ! .. فعاد يسأل المرأة : « هل أستطيع ، فى انتظار ذلك ، أن ألقى نظرة على القصر من الداخل ؟ أليست المفاتيح معك ؟

.. هيا اذن ولا تخشى شيئا ، فلن أخطف منقولات من القصر وألوذ بالفرار ! »

« وبعد مناقشة سقيمة تثير الأعصاب ، سمحت المرأة له بالدخول ، فتبعها الى داخل القصر وهو ساخط على المحضر الذى ترك القصر فى حراسة مثل هؤلاء الخدم الأغبياء ! .. وعند الباب الداخلى بدا على المرأة التردد والارتباك ، من جديد .. **فصاح بها وقد نفد صبره : « هيا اسرعى ، فليس عندى وقت أضيعه .. ماذا تصنعين أنت هنا بربك ؟ » .. فوقفت المرأة مذعورة فى مكانها بلا حراك ، ثم أجابت وقد احمر وجهها : « انى .. أعنى « كنت » تابعة الأميرة ! » .. فتراجع صاحبنا برغمه خطوة الى الخلف ، وهتف بها مأخوذا : « أتقصدين انك أنت الآنسة « أنيت ديتزينوف ؟ » ، فأجابت بلهجة الخائفة ، وكأنها اتهمت بجريمة : « نعم .. أنا هى ! »**

« ولأول مرة فى حياته ، أحس كانيتز بالارتباك والبلبلة ، فخلع قبعته وغير لهجته ، وهو يردف قائلا : « أرجو المعذرة ، أرجو المعذرة يا آنسة .. ولكن لم يقل لى أحد أنك وصلت . لم أكن أظن .. أرجو أن تغفرى لى .. انى انما جئت لكى » ، وتردد برهة .. كان عليه أن يختلق فورا سببا كاذبا لحضوره .. وما عتم أن استطرد : « جئت بشأن التأمين ، كى أستوثق من أن كل شىء باق فى مكانه .. واجبنا يقتضينا ذلك .. ولكن لا داعى للاستعجال » .. فقالت له : « لا بأس ، فى وسعك أن ترى بنفسك أن كل شىء باق فى مكانه ! » .. فشكرها كانيتز بانحناءة مؤدبة ، ودلف كلاهما الى الداخل . وتبين صاحبنا صدق قولها ، وفيما هما يطوفان بأنحاء القصر كان الماكر يحدث نفسه : « يجب أن أظفر بصداقتها ، ولا أدعها تفلت من يدى ! .. فلأشغلها بالحديث المتواصل ! » .. وأثناء الحديث راح يستدرجها الى الافضاء بالمعلومات التى تهمه ، فقال لها وهو يبدى اعجابه بالمناظر المحيطة

بالقصر : « لكنك ستقيمين بيننا هنا ، فيما أحسب ؟ » .. لكنها أجابته على الفور : « أنا ؟ .. كلا ! وماذا أفعل وحدى فى قصر فسيح مثل هذا ؟ .. انى سأغادره توا عقب انتهاء الاجراءات الرسمية . »

« واختلس كانيتز نظرة اليها : كانت المليونيرة الساذجة أشبه بقشة ضئيلة وسط الحجرة الفسيحة ! وفيما عدا شحوبها الشديد ، وهيئتها المذعورة ، كان الناظر اليها يستطيع أن يقول انها حسناء ! .. **وبحكم خبرة كانيتز بالطبائع البشرية ، أدرك توا أنه أمام مخلوقة ليس لها ارادة خاصة بها ، مخلوقة عاشت دهرا فى مركز التابعة لغيرها ، بحيث صار من المستحيل عليها أن تجد الشجاعة الكافية لاتخاذ قرار ، بوحى من ارادتها المستقلة .. وبحيث أفزعها — أكثر مما سرها — أن ترث هذه الثروة الطائلة ، التى تجثم على قلبها كالحمل الثقيل !** .. وبوحى خبرته — طيلة عشرين عاما — بوسائل الاغراء والاقناع ، فى المسائل المالية ، بادر كانيتز الى الضرب على الوتر الذى لمس من المرأة ميلا اليه ، فقال لها : « لعلك محقة فيما اعتزمته .. فان ضيعة شاسعة مثل هذه لا تدع لمالكها لحظة واحدة يستريح فيها من متاعب المعاملات مع الزراع ، والجيران ، ومصلحة الضرائب ، والمحامين .. الخ .. كما أن ادارتها تتطلب يدا حازمة تحسن البطش بالطامعين ، وحتى لو كانت لك هذه اليد الحديدية فان الأمر يقتضيك كفاحا طويلا شاقا ! »

« وأمنت هى على كلامه ، مقتنعة بصحته ، بينما كان عقله يفكر بلا توان فى أسلم السبل وأسرعها الى تحقيق مطامعه ، والظفر باستئجار هذه الضيعة ، قبل أن يظفر بها « بتروفيك » ! .. وهكذا استمر فى ادخال الرعب الى قلب المرأة ، كى تقبل أى مبلغ يعرضه عليها ، مستغلا قلة خبرتها باستثمار الأموال ، وعجزها عن أن تساومه أو تقاوم أحابيله

.. وهكذا مضى فى ثرثرته ، متظاهرا بأنه يتحدث عن غير غرض شخصى ، بينمـا كان كل عصب وكل خلية فى مخه توازن ، وتدبر ، وتفكر بسرعة هائلة ! .. وأصغت له المرأة مطـرقة الرأس .. وفجأة رفعت عينيها وزفرت زفرة حارة ، بدا كأنها خرجت من أعماق قلبها ، ثم قالت كالحالمة : « نعم ، ان هذه الضيعة حمل ثقيل .. آه لو استطعت بيعها ! »

.. وهنا سكت الدكتور كوندور فجأة ، ثم استأنف كلامه بعد قليل فقال : « ينبغى أن أقطع حديثى يا سيدى الملازم كى أوضح لك ما كان لتلك العبارة الواحدة القصيرة التى فاهت بها المرأة من صدى فى نفس صديقنا كانيتز ! .. **لقد ذكرت لك انه روى لى هذه القصة خلال أظلم ليلة فى حياته ، ليلة وفاة زوجتـه ، أى فى ساعة من تلك السـاعات التى لا تمر بالانسان أكثر من مرتين أو ثلاث طيلة العمر ، والتى يتوق فيها أكثر الناس تحفظا الى كشف دخيلة نفسه لشخص ما !** وانى لأذكره ـ كما لو كان ذلك بالأمس ـ وهو يهمس لى بهذه القصة فى صوت منفعل ، دون توقف ، كأنما يريد أن ينسى فى غمرة حديثه أن زوجته تموت فى غرفة أخرى من المصحة ، وليغرق حواسه فى طوفان لا ينتهى من الكلمات ! .. لكنه لم يكد يبلغ من قصته هذا الجزء ، الذى نطقت فيه المرأة بتلك العبارة ، حتى شحب وجهه وغص حلقه ، من انفعال الذكرى ـ برغم انقضـاء نحو سـتة عشر عاما على ذلك التاريخ ! ـ وراح يكرر عبارة المرأة ، مرة بعد مرة ، باللهجة التى نطقتها بها : « آه لو استطعت بيعها ! » .. لقد أدرك كانيتز فى تلك اللحظة أن فرصة ـ و « صفقة » ـ العمر كله قد لاحت له ، بل ألقت بنفسها بين يديه ، بحيث لم يبق عليه غير أن يغلق عليها قبضته : نعم فى وسعه أن « يشترى » الضيعة الهائلة ، لا أن يستأجرها فقط ! .. **ومضت الأفكار تتسابق فى ذهنه وهو ماض فى ثرثرته المتعمـدة ، قائلا لنفسـه : « يجب أن**

أشتريها فورا ، قبل أن يصل « بتروفيك » أو سـواه من المتنافسين .. ولن أبرح هذا المكان الا وأنا مالك (كيكسفالفا) الأوحد المحظوظ .. فلأقطع على المرأة خط الرجعة ، ولا أدعها تتملص من قبضتي ! »

« وبتلك القدرة الغامضة التى تواتى المرء فى لحظـات نادرة من اليقظة الذهنية ، المرهقة للأعصاب ، مضى المـاكر يفكر فى مصلحته الخاصة ، فى الوقت الذى يتحدث فيه الى المرأة حديثا مضادا لتلك المصلحة ، قائلا لها : « تقولين أنك تريدين بيعها .. ان البيع يا آنسة أمر سهل ، لكن البيـع بسعر مرتفع فن قائم بذاته ، وهو النقطة الهامة فى الموضوع .. انه يتطلب العثور على شخص أمين يعرف المنطقة والأرض والأهالى .. لا واحد من أولئك المحامين الذين يورطونك فى اجراءات طويلة معقدة .. ثم ينبغى أن تجدى من يدفع لك الثمن نقدا ، وليس بسندات أو أوراق مالية معرضة لتقلبات الأسواق .. »

.. وفيما هو يتكلم هكذا ، كان يدير الحسبة فى رأسه : « فى وسـعى أن أدفع فى الضـيعة أربعمائة ألف ريال ، أو أربعمائة وخمسين ألفا على الأكثر ـ فان الصور والتحف التى فى القصر تساوى وحدها نحو مائة ألف ، هـذا عدا القصر نفسه ، والمزرعة ! ـ ولكن يجب أن أستوثق أولا مما اذا كانت الضيعة محملة برهن ، وما اذا كانت المرأة قد تلقت عرضا محدد الرقم ، كسعر لهـا ؟ » .. وفجأة ألقى كانيتز على محدثته هذا السؤال : « هل لديك ـ وأغفرى لى يا آنسـة هذا السؤال ـ فكرة تقريبية عن السعر ؟ » .. فأجابته فورا وهى ترمقه بعينين زائغتين : « كلا ! » .. **وساءه هذا ، فقد كان يعلم أن الجهلة بقيمة ما يملكون هم أصعب الناس عادة فى التعامل ، لأنهم لا يكفون عن استشارة كل من هب ودب فى شأن السعر ، وبذلك يرتفعون به الى أكثر مما يساوى**

عادة ! .. لكن كانيتز لم ييأس ، بل واصل استفساراته فقال : « لكن لابد أنك تعرفين اذا كانت الضيعة مرهونة أم لا ، وبأى ثمن قدرت عند فرض الضرائب عليها .. أفلم يذكر لك محاميك شيئا فى هذا الصدد ؟ » .. فقالت له : « آه ! لقد ذكرتنى .. منذ أيام كتب لى المحامى شيئا له صلة بتقدير الثمن أو الضرائب .. نعم ، معك حق .. لكنه كتبه بالهنغارية ، التى لا أعرف منها حرفا .. وأذكر الآن أنه أوصانى بتكليف أحد بترجمتها ، لكنى نسيت الأمر كله من شدة انشغالى وارتباكى . لابد أن الأوراق كلها فى حقيبتى ، فلو تكرمت بالصعود معى الى غرفتى فسأريك كل شىء .. هذا الا .. الا اذا كنت قد أثقلت عليك بمشكلاتى الخاصة ! »

« **وارتجف كانيتز من فرط الانفعال .. ان الثمرة تسقط فى حجره بسرعة لا تحدث الا فى الأحلام ! .. ان المرأة توشك أن تعرض عليه مستنداتها التى تحوى تقدير ممتلكاتها ، وبذلك تعطيه الكلمة العليا فى الموضوع !..** وانحنى لها فى تواضع قائلا : « أؤكد لك يا آنسة انه يكون من دواعى سرورى لو استطعت تقديم نصيحة نافعة لك فى هذا الشأن ، فان لى — ولا فخر — خبرة كبيرة بهذه المسائل .. وقد طالما لجأت الأميرة الى ملتمسة منى ارشادها فى بعض الأمور المالية ! »

« وصعدا الى غرفتها ، حيث جعلت المرأة تنبش أوراقها حتى عثرت على الورقة المطلوبة فأعطته اياها ، وكان المحامى يخطرها فيها بأنه قد نجح ، بوساطة صديق له من ذوى النفوذ ، فى الحصول من مصلحة الضرائب على تقدير استثنائى منخفض للضيعة ، يبلغ مائة وتسعين ألف ريال ، فى حين أنها تساوى أكثر من ثلاثة أو أربعة أضعاف هذا المبلغ !

« وخفق قلب كانيتز ، واصفر وجهه .. هذا يؤيد تقديره هو لقيمة الضيعة بنحو ستمائة أو سبعمائة ألف

ريال ، عدا التحف التى يجهل المحامى قيمتها الحقيقية !.. اذن كم ينبغى أن يعرض على المرأة ؟ .. تراقصت الأرقام وسبحت أمام عينيه .. بينما بلغ سمعه صوت المرأة تسأل فى لهفة : « أليست هى الورقة المطلوبة ؟ » .. فقال لها : « انها هى ، وفيها يخطرك المحامى بأن قيمة الضيعة مائة وتسعون ألف ريال .. أعنى قيمتها الاسمية طبعا ! » .. فقالت : « قيمتها الاسمية ؟.. وماذا يعنى ذلك ؟ » .. **ورأى صاحبنا أن فرصته لاقتناص الصفقة قد حانت ، فان لم ينتهزها ضاعت الى الأبد ! .. ووجد نفسه يجيبها وهو يقمع أنفاسه اللاهثة :** « القيمة الاسمية هى القيمة الرسمية المشكوك فيها ، وهى تختلف دائما عن القيمة الحقيقية للمبيعات .. فالمرء لا يستطيع أن يجزم قط بامكان تحصيل المبلغ الذى قدرت الضريبة على أساسه كاملا .. قد يحدث هذا أحيانا ، بل قد يحصل المشترى على أكثر من المبلغ المذكور ، لكن ذلك أمر نادر لا يمكن الاعتماد عليه . انه أشبه بالمقامرة ، كما فى البيع بالمزاد العلنى مثلا .. أعنى أنه فى حالة بيع هذه الضيعة يمكنك الحصول على ثمن فعلى لا يقل عن مائة وخمسين ألف ريال ..! »

« وجمد الدم فى عروق كانيتز ، حين التفتت اليه المرأة تسأله ، فى حدة جعلته يرتجف هلعا : « كم ألف ريال ذكرت ؟ » .. ولعله خشى أن تكون قد فطنت الى خدعته الكاذبة ، ولهذا فكر فى أن يرفع السعر خمسين ألف أخرى ؟.. لكن صوتا داخليا أهاب به أن يصمد ، ويجرب حظه ! .. فقال مكررا ، ونبضات قلبه تدق أذنيه بشدة : « مائة وخمسون ألفا .. وأعتقد أن الثمن الفعلى ينبغى ألا يقل عن ذلك ! » .. قالها وقد كاد قلبه يكف عن الخفقان ، ونبضه يتوقف !.. وبعد لحظات ــ خالها دهرا ــ تساءلت المرأة فى لهجة المأخوذة : « حقا ؟.. هل تعتقد بامكان

الحصول على كل هذا المبلغ ثمنا للضيعة ؟ » .. وكان على كانيتز أن يبذل جهدا للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يجيبها بلهجة المقتنع : « نعم يا آنسة .. أستطيع أن أتعهد لك بذلك . ويجب ألا تقبلى ثمنا أقل من هذا ؟ »

.. ومرة أخرى قطع الدكتور كوندور حديثه ، فحسبته يتأهب لاشعال سيجارة .. لكنه بدلا من ذلك خلع نظارته ، ثم أعادها الى مكانها فى انفعال .. وبعد أن مر بيده على شعره ، رمقنى بنظرة طويلة قلقة ، واضطجع فى مقعده ، ثم استأنف كلامه : « قد أكون قد أفضيت اليك بأكثر مما ينبغى ، أو بأكثر مما كنت أريد على أية حال .. لكنى أعتقد انك لن تسىء فهمى ، فلئن كنت قد صارحتك بالحيلة التى خدع بها كيكسفالفا المرأة الساذجة التى وثقت فيه ، **فلم يكن قصدى من ذلك أن أحرضك ضده بحال .. فان الشيخ التعس الذى تعشينا معه الليلة ، هذا الشيخ المريض النفس والجسد ، والذى هو على استعداد لأن يهب آخر فلس من ثروته كى يرى ابنته قد شفيت .. لم يعد ذلك الآثم الذى ارتكب تلك الخدعة المنكرة ، وأنا آخر من يضمر له اليوم شعور الاتهام والتحقير** .. بل اننى فى هذه الآونة نفسها التى يحوجه يأسه فيها الى عطف الناس ، تبدو لى أهمية وقوفك على الحقيقة منى أنا مباشرة ، بدلا من سماعها مشوهة من أفواه الشائعات !.. وأول حقيقة ينبغى أن تذكرها دائما فى هذا الصدد ان صاحبنا لم يذهب الى (كيكسفالفا) فى ذلك اليوم وفى نيته أن يظفر بالضيعة ذاتها عن طريق الغش والتدليس ، وانما كان كل همه أن يشترى بعض التحف التى يستطيع الاتجار فيها والربح منها .. واذا هو يفاجأ بتلك الفرصة الفريدة ، التى ما كانت عقليته التجارية لتسمح له بتركها تفلت من يده .. فكان طبيعيا أن يتشبث بها !.. ولست أريد أن أطيل ، لذلك أغفل بعض التفصيلات التى لا

تؤثر فى جوهر القصة .. وحسبك أن تعلم أن الساعات التى تلت ذلك الموقف الذى رويته كانت أحفل ساعات حياته بالانفعالات الحادة المختلفة .. كيف لا وقد لاحت فى سماء حياته فرصة الظفر – خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر – بثروة تفوق ما اقتناه طيلة أربع وعشرين سنة من الكد المتواصل !.. ثم هو الى ذلك لم يكن فى حاجة الى اغراء ضحيته أو مطاردتها ، بل كانت ضحيته هى التى تسعى بملء ارادتها الى براثنه ، وتلعق اليد التى تمسك لها السكين !..

وأدرك « كانيتز » أن الخطر الوحيد الذى يهدده بفشل الصفقة قد يأتى من جانب أى شخص أجنبى تلتقى به المرأة أو تسأله النصح ، ومن ثم جعل همه أن يشدد عليها حصاره حتى يتم اجراءاته قبل أن يتدخل أحد فى الأمر ، أو يعود « بتروفيك » !.. وكان عليه أثناء ذلك ألا يفضح اهتمامه باتمام الصفقة لمصلحته الشخصية .. **وهكذا دبر خطته الجريئة « النابوليونية » لاغتصاب « قلعة » كيكسفالفا قبل وصول جيوش العدو !.. والحظ دائما شريك متطوع لخدمة المغامر الجسور ، فقد تدخل فى الموضوع عامل آخر يسر المهمة لكانيتز من حيث لا يشعر** ، وهذا العامل هو رغبة الوارثة التعسة فى الخلاص من الضيعة بأسرع ما يمكن ، بسبب الجفاء الظاهر والبغض الشرير الذى استقبلها به كل من كانت له صلة بالقصر ، من الخدم والزراع والجيران الحاسدين !.. بحيث أدركت المسكينة من أول لحظة أنها لن تستمتع بساعة واحدة من السلام أو الراحة فى القصر .. وهكذا لم يكد كانيتز يقترح عليها – واجفا – أن تصحبه فى اليوم نفسه الى (فيينا) حيث يعرف شخصا يبحث عن صفقة مماثلة .. حتى قبلت المرأة على الفور هذا العرض ، شاكرة لكانيتز ما بدا لها من أنه « تطوع » لمعاونتها ، تطوع أملته المروءة والشهامة ، وبادرت الى التماس نصائحه فى

شأن أفضل الوسائل لاستغلال المبلغ الذى سوف تقبضه ، ووجوب الابتعاد عن التعقيد الضار الذى يجلبه تدخل المحامين فى هذه المسائل !

« .. ولم يكد يقترب موعد قيام قطار الساعة الرابعة الذاهب الى فيينا ، حتى غادر الاثنان القصر الى المحطة ، فحجزا مقعدين فى عربة الدرجة الأولى – لأول مرة فى حياة كانيتز ! – وفى فيينا قادها صاحبنا الى فندق محترم، احتل كل منهما غرفة منه . وكان عليه أن يهرع الى محاميه وشريكه فى كثير من الصفقات المدعو « جولينجر » كى يدبر الأمر معه ، **لكنه خشى أن تتصل فى غيبته بمحاميها أو تلقى من يبدل رأيها ، فاقترح عليها أن تقضى السهرة فى مشاهدة احدى روايات الأوبرا .. وبعد أن أجلسها فى مقعدها واطمأن الى أنها لن تبرحه قبل انقضاء أربع ساعات ، خف لزيارة محاميه ..** لكنه لم يجده فى مكتبه ، ولا فى داره ، فمضى يبحث عنه حتى عثر عليه فى احدى الحانات .. وهناك شرح الأمر له ، واعدا اياه بمكافأة قدرها ألفا ريال اذا أعد العدة للتوقيع على عقد الصفقة أمام الموثق الرسمى فى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى .. ثم أسرع عائدا الى الأوبرا ليصحب ضحيته الى الفندق .. وفى مخدعه هناك عانى ليلة ثانية طويلة بلا نعاس ، فكلما اقترب من هدفه ازداد قلقه وخوفه من أن يتبدد حلمه فى آخر لحظة !.. وهكذا ظل طيلة الليل يدبر الاجراءات التى يعتزم اتخاذها فى الغد لاتمام محاصرة العدو : فأولا ينبغى ألا يتركها وحدها لحظة واحدة ، أو يدعها تسير على قدميها فى الطريق ، أو تقع عينها على صحيفة من الصحف .. **ولكن الذى حدث أن كل هذه المخاوف والاحتياطات كانت عقيمة ولا داعى لها ، فان الضحية نفسها لم تكن تريد الفرار ، فسارت وراءه كما تسير النعجة الغبية الى الذبح ، وحول عنقها شريط أحمر !**

.. ومضى الاثنان يتنقلان بسيارة مأجورة بين مختلف الادارات والبنوك ، وهى تطيعه طاعة عمياء ، كالطفلة ، وتوقع على كل ما يقدمه لها من أوراق ومستندات - دون أن تقرأ محتوياتها ! - وكأنها تبغى الانتهاء من كل ما له صلة بالمال ومتاعبه ، كى تعود فتجلس فى غرفة هادئة لتقرأ ، أو تغزل الصوف ، أو تعزف البيانو !

« وفى الموعد المحدد ، اجتمعا بالمحامى والموثق الرسمى ، فوقع الطرفان على العقد ، وتبودل تسليم الثمن وصكوك ملكية الضيعة ، ثم أودعت ثروة المرأة النقدية أحد البنوك المشتغلة بتوظيف الأموال ، لاستغلالها فى عملية تدر عليها ايرادا سنويا منتظما قدره ستة آلاف ريال فى السنة .. فى الوقت الذى ضاعف فيه كانيتز ثروته ثلاثة أضعاف ، بجرة واحدة من قلمه ، وصار منذ تلك اللحظة مالك (كيكسفالفا) وسيدها الأوحد !

« وكان كانيتز قد علم من المرأة خلال النهار أنها تعتزم الرحيل عقب اتمام الاجراءات الى حيث تقيم مع بعض أقربائها فى اقليم (وستفاليا) ، فاستفسر لها عن موعد القطار الذى يقلها الى هناك ، وعلم انه يغادر فيينا فى الساعة التاسعة والثلث من صباح اليوم التالى .. وهكذا استقر الرأى على أن تبيت المرأة ليلة أخرى فى الفندق .. فلما ودع الموثق والمحامى كانيتز على أثر التوقيع على العقد ، وخلا هو الى ضحيته ، أحس رهبة خفية ! .. **لست أعنى أن ضميره قد استيقظ فجأة ، فندم على فعلته ، وانما أريد أن أقول ان شعوره نحو المرأة تبدل على حين غرة ، فلم تعد هى بالنسبة له بمثابة الخصم الذى يحتال عليه كى يجبره على التسليم .. بل انكمشت فى نظره الى امرأة ساذجة مسكينة ، تسير الى جانبه فى هدوء ومسالمة !** .. وصدقنى ان شيئا لم يثقل على قلب « نابليون كانيتز » فى ساعة انتصاره الأعظم السريع ،



« .. لكنه خشى أن تتصل فى غيبتـــه بمحاميها أو تلقى من يبدل رأيها ، فاقترح عليهـا أن تقضى السهرة فى مشاهدة احدى روايات الأوبرا .. وبعد أن أجلسها فى مقعدها واطمأن الى أنها لن تبرحه قبل انقضاء أربع ساعات، خف لزيارة محاميه .. »

أكثر من أن ضحيته قد يسرت له سبيل الانتصار عليها ، فلم تقاومه مقاومة تذكر .. والمرء حين يظلم شخصا أو يسيء اليه ، يلذ له أن يوحي الى نفسه ، كي يريح ضميره ، بأن هذا المظلوم أخطأ في حقه !.. لكن كانيتز لم يجد ما يتهم به ضحيته ، فقد سلمت نفسها له معصوبة العينين ، ولم تكف طيلة الوقت عن أن ترمقه بنظرات الثقة ، بل الشكر !.. فماذا يقول لها الآن ، وهو سائر الى جانبها ؟ .. أيهنئها على بيع الضيعة ، أو بعبارة أصح على « فقدانها » ؟ .. وازداد احساسه بالحرج ، فجعل يمني نفسه بقرب وصولهما الى الفندق ، والخلاص من رفقتها .. الى الأبد !

« وبعد أن سارا مسافة صامتين ، وقد بدت على كليهما سيماء التفكير .. سعلت المرأة قليلا ، ثم ابتدرته قائلة : « لا تؤاخذني !.. لكني أريد قبل سفري أن أسوي كل الأمور التي بيننا ، فأشكرك أولا من أجل كل المتاعب التي تجشمتها بسببي .. ثم أرجو ان تصارحني بالمبلغ الذي أنا مدينة به لك في مقابل هذه المتاعب ! » . **وكان ذلك أكثر مما يستطيع الرجل أن يحتمل .. فانتابه شعور المعتدي حين يضرب كلبا بقسوة ، فيعود الكلب بعد قليل وهو يهز ذيله كي يلعق — في توسل ومذلة — اليد التي ضربته !..** فشكرها محتجا ومعتذرا ، وقد أحس بعرق الخجل ينضح من جسمه ، وكانا قد بلغا الفندق ، ففكر كانيتز في أن يدعوها الى العشاء ، أو الى سهرة في أحد المسارح .. لكنها قطعت عليه حبل تفكيره حين مدت اليه يدها قائلة : « أعتقد أنني ينبغي ألا آخذ من وقتك أكثر مما أخذت . والواقع أنه قد ساءني ان تضيع يومين كاملين في تصريف مشكلاتي ، فما من شخص آخر يقدم على التضحية بمصالحه الخاصة الى هذا الحد .. ولم يحدث قط من قبل أن أظهر لي أحد كل هذا العطف والمعونة ، ولا تصورت لحظة واحدة ان في الامكان تسوية كل تلك المسائل

المعقدة بهذه السرعة وهذا التوفيق .. فأشكرك كل الشكر ! »

« .. فأخذ كانيتز يدها الممدودة فى يده ، ولم يملك نفسه من النظر الى وجهها . **وكانت حرارة عاطفتها قد أذابت الكثير من خجلها واجفالها ، وأضرمت الحمرة فى قسماتها التى كانت فى العادة شاحبة متهيبة ، فبدت أشبه بالطفلة فى ابتسامتها الشاكرة ونظرة عينيها الزرقاوين المعبرتين** .. وحاول كانيتز أن يجد شيئا يقوله .. ولكن قبل أن يتكلم ، كانت قد ودعته ومضت ، خفيفة الخطو ، يحدوها الجلال والثقة ، شأن من ألقت عن كاهلها عبئا ثقيلا ، وتحررت من أغلالها .. !

« وهكذا خلف الحمل الوديع جزاره .. فأحس كانيتز بأنه كالمضروب على رأسه بفأس !.. ووقف ذاهلا بضع دقائق ، يحدق فى مدخل الفندق الذى اختفت وراءه المرأة .. وأخيرا حمله تيار الزحام فى غمرته الى حيث لا يدرى ، وعبارة الشكر الأخيرة التى وجهتها اليه ، تدوى كالطبل فى أذنيه !.. ولم يكن أحد قد وجه اليه مثل هذه العبارة من قبل ، ولا نظر اليه انسان مثل نظرتها المنطوية على العرفان بالجميل !.. فى حين أنه خدعها وخانها أبشع خيانة !

« .. وتوقف فى طريقه مرارا ، ليمسح العرق عن جبينه .. وفجأة رأى صورته فى مرآة محل تجارى ، فحدق فى وجهه كما يحدق الانسان فى صورة مجرم نشرتها احدى الصحف ، ليرى أين يبدو الاجرام فى قسماته : أفى ذقنه الذى يمثل الميل الى المشاكسة ، أو شفته القبيحة ، أو عينيه القاسيتين ؟.. وفجأة تذكر عينى المرأة التى تركها لتوه : أين من هاتين العينين الزرقاوين المضيئتين اللتين تشعان بالايمان والاخلاص ، عيناه الشرهتان القلقتان ، المقرحة أجفانها ؟!.. وأين من شخصيتها الطاهرة المهذبة ، شخصيته الملتوية المعقدة ؟!.. ومضى يحدث نفسه : **« انها تخان ولا تخون !..**

انها من ذلك الصنف الساذج الذى يباركه الله !.. وان حيلى وخدعى كلها لم تجلب لى من السعادة والسلام عشر ما جلب لها استسلامها ! »).. وهكذا أحس كانيتز أنه ، فى يوم انتصاره الأعظم ، أكثر تعاسة منه فى أى يوم سابق !

« وأخيرا شعر بالجوع ، فدخل مقهى وطلب شيئا ليأكله .. لكن كل قضمة صارت تثيره ، ومضى يحدث نفسه : « ماذا أصنع بهذه الضيعة وأنا لست من الزراع ؟.. وهل يعقل أن اعيش وحدى فى قصر يضم ثمانى عشرة حجرة ؟! .. ماذا أفعل بكل هذا ؟.. كان غباء منى أن اشترى الصفقة لحسابى الخاص .. وماذا لو اكتشفت المرأة اننى لست الوسيط بل الشارى ؟.. فلأردها لها اذا شاءت ، وأحتفظ لنفسى بعشرين أو عشرة فى المائة من قيمتها .. ان فى وسعها دائما ان تستردها اذا ندمت يوما على بيعها ! » .. وتمكنت الفكرة من رأسه ، فاعتزم ان يقابل المرأة فى صباح اليوم التالى — قبل موعد قيام القطار — كى يعرض عليها هذا الأمر. واذ انتهى الى هذا الحل ، خيل اليه أنه سوف ينعم بليلة ينامها ناعم البال ، بعد الليلتين اللتين قضاهما مؤرقا حتى الصباح .. لكن رجاءه خاب ، فقد بقى مسهدا ، تدوى فى أذنيه عبارتها « أشكرك كل الشكر ! » .. ولم تنتصف الساعة الثامنة من الصباح حتى كان فى ردهة الفندق ، يسأل عن الآنسة « ديتزمينوف » ، حاملا لها على ذراعه باقة فاخرة من الأزهار ، وصندوقا من الشيكولاته الغالية !

« وقيل له انها فى حجرة الطعام تتناول الافطار .. فاتجه نحوها ، وكان ظهرها الى الباب ، حتى بلغ مائدتها .. فوضع حمله أمامها ، قائلا فى شيء من الاضطراب : « تذكار بسيط ، لمناسبة سفرك » .. فأجفلت ، وصار وجهها فى حمرة القرمز ، فان أحدا قبل ذلك لم يفكر فى اهدائها مثل هذه الباقة .. وقالت فى حياء عذب : « أوه ! .. ما لزوم كل

هذا ؟ .. انها أجمل من أن أستحقها ! » .. **ورمقته بنظرة تفيض شكرا . ولم يدر هو هل انعكاس الورود الحمراء ، ام صعود الدم الى وجهها ، هو الذى لون وجنتيها بصبغة قانية جعلتها تبدو حسناء ، برغم أنها خلفت نضرة الشباب ؟**

« ودعته الى الجلوس ، فلبى دعوتها وهو يقول : « اذن .. أنت ذاهبة حقا ؟ » .. وكان فى صوته رنين الأسف ، فأجابت وهى تخفض رأسها فى لهجة التسليم الذى لا ينطوى على فرح أو أسى : « نعم » .. وعلم أن أقربائها الذين تزمع الاقامة معهم هما امرأة فى حكم ابنة العم ، وزوجها — الذى لم تره قط — وكانا قد كتبا اليها يرحبان باقامتها معهما فى مزرعتهما الريفية الصغيرة ! .. فسألها : « ماذا اعتزمت أن تفعلى فى تلك البقعة النائية ؟ » .. فأجابته بأنها لا تدرى ! .. وكان فى جوابها فتور ، وحيرة ، وعدم استقرار .. ذكرته كلها بحاله هو ، وحياة « التشرد » التى يحياها ، بلا بيت ، ولا أسرة ، ولا هدف ! .. فقال لها : « لكن الانسان ينبغى أن يتجنب السكنى مع الأقرباء .. وأنت فى غير حاجة الآن الى أن تدفنى نفسك فى بقعة مثل تلك البقعة النائية ! » .. فقالت : « انى لأنظر الى الأمر حقا فى شىء من القلق .. ولكن ماذا عساى أن أفعل ؟ » .. **وتنهدت ، ثم رفعت اليه عينيها الزرقاوين كمن تلتمس عنده النصيحة .. هاتان هما العينان الصافيتان اللتان ينبغي أن تكونا للمرء ! .. وفجأة ، اقتحمت الطريق الى لسانه فكرة ، أو لعلها رغبة ، فقال لها : « لم لا تبقين اذن هنا ؟ » .. ثم أضاف بصوت خافت : « معى ! »**

« فأجفلت المرأة ، وحدقت فيه .. وعندئذ فقط أدرك أنه فاه بقول ما كان ينبغى أن يفوه به ! .. لقد أفلتت العبارة منه دون أن يزنها كعادته ويمحصها .. بل دون أن يعترف لنفسه بأنه يريد النتيجة التى تترتب عليها ! .. **وصعد الدم دافقا الى وجنتى المرأة ، فخشى أن تكون قد أساءت فهم**

قصده ، ففسرته بأنه يريدها ((خليلة)) له .. ومن ثم سارع ينفي عن ذهنها شبهة الاهانة ، فقال لها موضحـا : ((أعني تبقين ... كزوجة لى ؟)) .. واختلجت شفتاها ، وخيـل اليه أنها توشك أن تنفجر باكية أو غاضبة ! .. ثم نهضت فجأة وغادرت القاعة لا تلوى على شيء ! .. وكانت تلك أحرج لحظة فى حياة صاحبنا ، فقد أدرك فيها مدى الحماقة الجنونية التى ورط نفسه فيها ! .. لقــد أهان ، وأذل ، وخدش احساس المخلوق الوحيد الذى وثق فيه ثقة عمياء ، وشكره من صميم قلبه .. والا فكيف يجرؤ ــ وهو الجشع الرث الهيئة ــ أن يطلب يد مثل هذه المخلوقة المهذبة التى نشأت وعاشت فى أكرم بيئة ؟ .. انها اذن لعلى حق فى أن تفر هكذا اشمئزازا !.. ومن عجب أنه أحس ازاء ذلك بالارتياح !.. وقال لنفسه : «لقد عرفت حقيقتى أخيرا ، وعاملتنى بالاحتقار الذى أنا جدير به ، وهذا خير من أن تشكرنى على خدعتى الدنيئة . لقد تلقيت عقابى العادل .. فانه لمن العـدل أن تفكر فى منذ الآن بمثل الاحتقار الذى أكنه لنفسى ! »

((ولكن لم تمض لحظات حتى ظهرت على عتبة الباب من جديد ، وعيناها مغرورقتان بالدموع .. وأقبلت نحوه وهى فريسة للانفعال الشديد ، بحيث أنها تشبثت بظهر الكرسى لحظة قبل أن تستطيع الجلوس ، ثم تنهدت فى هدوء وقالت دون أن ترفـع عينيها : « اغفر لى .. اغفر لى خشونتى .. لكنى فى الواقع فوجئت بكلامك .. كيف أستطيع أن ؟.. انك لاتعرفنى .. لاتعرفنى بتاتا ! » .. وكان هو من الارتباك بحيث لم يجد جوابا حاضرا فى ذهنه .. وان سره أن قرارها المفاجىء لم يكن عن غضب واستنكار ، بل عن خوف ودهشة !.. ومضت دقائق لم يجد أحدهما خلالها الشجاعة على أن يكلم صاحبه ، أو ينظر اليه .. لـكنها لم تغادر (فيينا) فى ذلك الصباح ، فقد بقيا معا من الصـباح حتى ساعة متأخرة من

الليل .. وبعد ثلاثة أيام كرر على مسمعها العرض .. ولم ينقض شهران حتى كانا زوجين ! »

● ●

● **وسكت** الدكتور كوندور قليلا ، ثم استطرد : « فلنتناول كأسا أخيرة ، لقد أوشكت القصة أن تنتهى ، وأنت ترى مما سلف ظلم الشائعات التى تنسب الى صديقنا أنه أغرى الوارثة بالزواج منه كى يظفر بالضيعة والقصر ، فالواقع أنه ظفر بهما قبل أن تخطر بباله فكرة الزواج ، **ولم يكن قرانه بها صادرا عن أية مصلحة ذاتية .. ولعل هذا ما جعله قرانا سعيدا غاية السعادة ، برغم أن الزوجين كانا ضدين فى الطباع ـ بل ربما بسبب ذلك ، كما يقول علماء النفس !**

« وكان رد الفعل المباشر للاتفاق على الزواج أن خشى كانيتز أن تقف خطيبته على ماضيه القذر ، فصفى جميع أعماله التى يشوبها أى زيف ، وحاول تنقية صفحته بكل ماوسعه من جهد .. ثم ابتاع بالمال لقب « فون كيكسفالفا » الارستقراطى العريق ، وخلع عنه اسم المرابى اليهودى الممقوت « كانيتز » . وكأنما خلع عليه الاسم الجديد نبلا حقيقيا ، فقد عاش بعد الزواج يعامل زوجته بكل احترام وتوقير وتلطف ، محاولا أن يمحو من الوجود شخصيته القديمة .. وكان لهذه المعاملة الكريمة ـ التى لم تألفها « آنيت » طيلة سنوات عبوديتها لسيدتها السابقة الثرية ـ أجمل الأثر فى نفسها وصحتها ، فأينع شبابها من جديد ، وتفتح حسنها الذى كان ذابلا .. وان لبثت عاما كاملا ، بل ربما اثنين ، عاجزة عن أن تصدق الواقع الملموس وتنسى الماضى الطويل البغيض .. عاجزة عن أن تقنع نفسها بأن المرأة المضطهدة المنبوذة التى كانتها قد صارت موضع الحب والاحترام والاعزاز ، كبقية السيدات !.. وهكذا لم يتذوق

الزوجان السعادة الحقة الخالصة الا بعـــد أن ولدت لهما طفلتهما « اديث » ..

« وعاشا خمسة عشر عاما أو نحوها ، معيشة قوامها البساطة والعزلة عن الناس . وخـلال تلك الحقبـة عكف « كيكسفالفا » على ادارة الضيعة ، والمطحن ، ومصنعى السكر والكحول – الملحقة بها – بهمة حازمة ونشاط لا يفتر .. **الى أن اصيب بالكارثة الأولى القاصمة للظهر : مرضت زوجته بالسرطان ، وماتت على منضدة الجراحة فى احدى مصحات فيينا ، وهناك عرفته أنا وعرفتها لأول مرة !** .. ولن استطيع أن أصف أو أصـور لك اليأس الذى اعتراه حين عرف أن لا امل فى شفائها !.. كما لن أنسى نظرته المجنونة وهو ينعتنا صارخا ، على أثر موتها ، بأننا قتلة سفاحون !

« وكانت تلك هى نقطة التحول فى حياته .. **فمنذ ذلك اليوم تغيرت نظرته الى الأمور ، وكفر بالمال – الاله الوحيـد الذى عبده منذ طفولته ! – ولم يعد يعنيه من دنياه غير شىء واحد هو ابنته !** .. فجاب لهـا المربيات والخـدم ، وأعاد تجديد قصره وتزويده بجميع وسائل الترف . وصار يأخذ « اديث » – وهى فى التاسعة أو العاشرة من عمرها – الى (نيس) و (باريس) و (فيينا) ، ويغدق عليها المـال بغير حساب ، ويغلو فى ذلك غلوه من قبل فى جمع المال وادخاره .. لهذا لم يكن غريبا ان يبدو لك اليوم ارستقراطيا كريما ، فمنذ سنوات كف عن أن يلقى بالا الى الكسب أو الخسارة .. ومنذ اكتشف ان ملايينه كلها لم تستطع ان تشفى له زوجته ، تعلم ان يحتقر المال !

« ومهما أطنب ، فلن أستطيع أن اصف لك بالتفصيل كيف عبد الرجل ابنته ودللها .. وكانت فى الواقع تستحق ذلك ، فقد شبت فتاة رائعة الحسن ، حميدة الخلق ، أخذت عن أمها عذوبتها وعن أبيها ذكاءه .. **ومن ثم أترك لك أن تقدر**

مبلغ الصدمة التي أصابت ((كيكسفالفا)) حين دهمته الكارثة الثانية ، فسقطت اديث من فوق ظهر جوادها وأصيبت بالشلل ! .. ولكن يكفى أن أذكر لك انه لم يدع طبيبا من أطباء العالم المشهورين فى هذا الباب الا استقدمه وأغدق عليه المال بغير حساب ، لعله يفلح فى شفائها !.. وقد روى نى زميل منذ أيام ان المسكين يتردد كل أسبوع على مكتبة الجامعة حيث ينفق الساعات فى الاطلاع على كتب الطب والتنقيب فيها ، عسى أن يجد فى أحدها شيئا ذا فائدة نكون قد نسيناه أو اهملناه !.. بل انه خصص منحا وهبات سخية لرجال الدين وصناديق النذور ، فى حالة شفاء الفتاة !

((لست أذكر لك كل هذه التفصيلات السخيفة حبا فى الثرثرة ، وانما رغبة فى ان تفهم الى أى حد يجد الشيخ التعس بعض العزاء عن كارثته كلما عثر على شخص يستمع اليه ويفهم أحزانه واشجانه ، أو على الأقل يحاول أن يفهمها .. والواقع انك يا عزيزى الملازم تفعل خيرا حين تدخل شيئا من المرح والبهجة والشباب الى ذلك البيت الحزين .. وقد رويت لك الآن ما رويت من أسرار الرجل الخاصة ، خشية أن تسمع من أفواه الناس شائعات خاطئة ومحزنة تؤثر فى صلتك بالأسرة المنكوبة ! .. ووثوقا منى فى كتمانك الأمر ، واعتباره سرا بيننا !))

● ●

● **لم أجد** ما أقول تعليقا على هذه القصة المؤثرة أكثر من كلمة واحدة نطقتها مغمغما ، فقلت له : ((نعم . بلاشك !))، ولم أكن قد تفوهت قبلها بحرف منذ بدأ الدكتور كوندور يسرد قصته ، التى لم يقتصر أثرها فى نفسى على اثارة دهشتى البالغة ، وقلب فكرتى عن كيكسفالفا رأسا على عقب ، أو كما يقلب القفاز ظهرا لبطن .. بل تعدى ذلك الى اظهارى على مبلغ غفلتى وسذاجتى ، **أنا الذى ترددت على قصره عشرات**

المرات دون أن أسأل عن مصدر ثروته ، ودون ان أدرك ان عينيه الذكيتين البراقتين ليستا عينى نبيل هنغارى ، بل ان نظرتهما الحادة المتعبة ـ فى آن واحد ـ تمثل الكفاح المفجع الطويل ، كفاح الجشع والأطماع ، الذى هو طابع الجنس اليهودى ! .. أما الآن ، ففى أقل من لحظة ومضت فى ذاكرتى مئات الملاحظات والوقائع الصغيرة التى تتفق مع هذه الرواية .. والتى فاتنى أن أفهم مدلولها فى حينها !

وكأنما أدرك الدكتور كوندور مايدور فى خاطرى ، فمال على وقال وهو يربت على يدى بيده الصغيرة الناعمة : « انك ما كان يمكن ان تعرف الحقيقة يا سيدى الملازم ، فلقد نشأت فى بيئة مختلفة تماما .. عدا أنك الآن فى السن التى لا يكون المرء قد تعلم فيها بعد أن يرتاب فى كل شىء مخالف للمألوف ـ وليس عيبا أن تخدعك الحياة فى هذه السن بين حين وآخر ! ـ بل انها لنعمة كبرى الا تكون قد صارت لك ، بعد ، تلك العين الفاحصة المتشككة ، وان تستطيع أن تنظر الى الأشياء والناس لأول وهلة نظرة بريئة واثقة .. ولولا ذلك ما أمكنك أن تقدم للشيخ البائس وابنته الكسيحة ما قدمت من معونة رائعة .. كلا ، لا داعى لأن تندم أو تخجل ، فقد تصرفت ـ بوحى الغريزة ـ أحسن تصرف وأسلمه ! »

وكان موعد القطار الراحل الى فيينا قد اقترب ، فنهض الطبيب .. ونهضت أنا معه وأنا أحس احساسا غامضا أن هناك أمرا كنت أود لو أحدثه فى شأنه وهو ماض فى سرد قصته ، لولا أنى لم أشأ أن أقاطعه .. ثم نسيته تماما ! .. وحين خرجنا الى الطريق رفع كوندور بصره الى السماء وقال : « كيف فاتنى أن أستنتج ذلك حين رأيت القمر متألقا أكثر من المألوف ؟ .. سوف تهب بعد قليل عاصفة رعدية شديدة .. فلنسرع بالمسير والا فاجأتك قبل عودتك . أما أنا ففى وسعى أن أصل الى المحطة قبل هبوبها ! »

وكان على حق ، فان الهواء برغم سكونه كان قاتما معفرا ، والسحب الآتية من الشرق تتسابق فوق المساكن الهاجعة ، وتحجب القمر الشاحب المحتضر بين الحين والحين .. وفى الأفق البعيد تومض سهام من البرق الخاطف ، يعقبها فى كل مرة دوى خافت مكتوم ، كزمجرة الحيوان الغاضب ! .. وعاد كوندور يستحثنى قائلا : « فلنسرع ، ففى العجلة النجاة ، لقد تصلبت ساقاى من طول الجلوس ! » .. وذكرتنى عبارته هذه عن تصلب ساقيه بما كنت أريد أن أسأله بشأنه ، **وكأن ضوءا مفاجئا قد غمر وعيى فبدد منه ظلام النسيان ! .. انها المهمة التى كلفنى بها كيكسفالفا ، والتى من أجلها حرصت على الخروج فى رفقة الطبيب . انه السؤال الخالد : « هل ينتظر للفتاة الكسيحة شفاء فى يوم من الأيام ؟ »**

.. وهكذا ابتدرت مرافقى ونحن نذرع الشارع المقفر ، متسائلا : « لا تؤاخذنى يا سيدى الطبيب اذا عدت الى الموضوع الذى كنا نتحدث فيه ، كى ألقى عليك سؤالا يلح على خاطرى منذ زمن ، وفى وسعك أنت دون غيرك أن تجيبنى عنه .. أريد أن أسألك : هل هذا الشلل الذى أصاب أديث مرض مؤقت ، أم داء عضال لا شفاء منه ؟ »

ورفع الدكتور كوندور رأسه فى شىء من الحدة ، ولمعت نظارته فى وجهى ــ حتى أنى أجفلت من قوة نظرته التى خلتها تتغلغل فى الى ما تحت الجلد ــ ثم قال وهو يخفض رأسه ويستأنف خطاه السريعة : « كان يجدر بى أن أتوقع منك هذا السؤال ، فهو دائما يأتى فى النهاية .. مرض يشفى أو لا يشفى ، أبيض أو أسود .. كأنما الأمر بهذه البساطة ! .. ان أى طبيب يحترم نفسه ينبغى ألا ينطق حتى بكلمتى « سليم » أو « مريض » ، لأنه لا يوجد حد فاصل تنتهى عنده الصحة ويبدأ المرض .. ولن تستطيع أن تسمع منى يوما كلمة « غير قابل للشفاء » ! .. **ولقد أخطأ « نيتشه » كل الخطأ**

حين قال : « ان الطبيب يجب ألا يحاول شفاء الذى لا يشفى ! »، فان العكس تماما هو الصواب ، لأنى أرى أن أهم واجب على الطبيب أن يسعى الى شفاء المرض الذى جرى الناس على الاعتقاد بأنه لا يشفى .. والطبيب الذى يسلم مقدما بعجزه عن تحطيم مثل ذلك الاعتقاد السائد هو طبيب يتنصل من واجبات مهنته ، ويرفع راية الاستسلام قبل أن تبدأ المعركة ! .. وطبيعى أنه من الأسهل بالنسبة لكل طبيب أن يختص بمعالجة الأمراض القابلة للشفاء ، والتى لا يقتضيه الأمر فيها أكثر من أن يصف دواء أو علاجا قرأه فى كتاب أو سمعه فى درس. أما أنا فأرى أن هذا الطبيب مثل الكاتب الذى لا يكتب غير الكلام المعاد ، بدلا من أن يخضع للكلمة المكتوبة أفكارا ساد الاعتقاد بأنها غير قابلة لأن تكتب ! .. أو مثل الفيلسوف الذى يردد أفكارا سبق ترديدها مائة مرة ، بدلا من أن يستكشف مناطق الأفكار غير المعروفة ، أو غير القابلة لأن تعرف ! .. وبالنسبة لعلم يتطور ويتقدم كل يوم ـ كالطب ـ لا يليق أن يقال عن أى مرض : انه غير قابل للشفاء . وانما الصواب أن يقال : انه مرض لم يعرف له شفاء حتى الآن ، فى نطاق معلوماتنا الحالية المحدودة ! .. ففى كل يوم تكتشف وسائل لعلاج أمراض كانت حتى الأمس القريب ـ بل حتى اليوم السابق ـ مستعصية على العلاج . ولا شك أن مئات من الحالات التى نعجز اليوم عن شفائها قد يعرف لها غدا ، أو بعد غد ، دواء ! .. **لذلك لا توجد فى نظرى أمراض لا تشفى ، وليس من عادتى أن أيأس قط من شفاء حالة ما أو مريض من المرضى ، ولا أن أنطق بهذه الكلمة الخاطئة « غير قابل للشفاء » .. مهما تكن الظروف !**

« ولتقريب الأمر الى ذهنك ، أسرد عليك مثلا واقعيا حدث لى أنا نفسى ، وما زالت ذكراه تؤلمنى حتى اليوم : فمنذ اثنين وعشرين عاما ، وأنا طالب فى السنة الثانية بكلية الطب ،

وفى مثل سنك الآن ، مرض أبى ذات يوم ـ وكان طيلة حياته صحيحا قويا موفور النشاط ـ وكنت أحبه الى درجة تقرب من العبادة . واتفق الأطباء على تشخيص مرضه بأنه (البول السكرى) ، وهو من أخبث الأمراض التى يمكن أن تصيب انسانا ، ففيه يتوقف الجسم ـ لسبب غير مفهوم ـ عن امتصاص الغذاء ، ولا سيما الدهن والسكر ، فيذبل الانسان ويموت موتا بطيئا ، من الجوع ! .. وفى تلك الأيام لم يكن الطب يعرف علاجا لهذا المرض ، فكان المريض يتعرض لعذاب المنع من أكثر المأكولات ، ولمشقة وزن كل قدر من الألوان الباقية المباحة ، فى الميزان ، بالجرام ! .. ومع ذلك لم يكن يجنى من ذلك كله غير تأجيل النهاية المحتومة عامين أو ثلاثة على الأكثر . ولك أن تتصور مبلغ جزعى وقتئذ على أبى ، ولجوئى الى كل طبيب وكل كتاب طب فى متناولى ، بحثا عن علاج لحالته .. ولكن دون جدوى ، فقد خرجت من أبحاثى كلها بأن مرضه « غير قابل للشفاء ! » .. **ومنذ تلك اللحظة أبغضت هذه الكلمة اللعينة ، التى كان معناها أن أقف مكتوف اليدين وأنا أشهد أعز انسان على فى هذه الدنيا يموت ميتة أدعى للرثاء من ميتة الحيوان الفاقد الادراك .. وقد مات أبى فعلا قبل تخرجى فى كلية الطب بثلاثة أشهر !**

« والآن اصغ الى : أول من أمس أعلن أحد علمائنا فى اجتماع الجمعية الطبية نجاح التجارب التى أجريت فى معامل أمريكا ، وقطر أو قطرين آخرين ، بغية اكتشاف خلاصة لاحدى الغدد تشفى من البول السكرى .. وقد أكد العالم المذكور فى ختام كلمته أنه لن تمر عشرة أعوام حتى يصبح هذا المرض « قابلا للشفاء » ! .. ومثل آخر أسوقه لك : ففى أيام دراستنا الطب وزعت علينا نشرة مطبوعة تحذرنا من مرض الزهرى ، على أساس أنه « غير قابل للشفاء » .. أما الآن فقد صار هو بدوره من الأمراض التى تشفى .. واذن فان

« نيتشه » و « شومان » و « شوبرت » وغيرهم من ضحاياه التعساء لم يموتوا بمرض لا يشفى ، بل بمرض لم يكن يشفى فى العصر الذى عاشوا فيه !.. لذلك تجدنى فى كل مرة تعرض لى فيها حالة يئس منها الأطباء الآخرون وهم يهزون أكتافهم ، يشتعل قلبى غضبا لجهلى بعلاج قد يكتشف غدا أو بعد غد ! .. وفى الوقت نفسه يفيض قلبى أملا فى أن أستطيع أنا ، أو غيرى ، كشف ذلك العلاج فى الوقت المناسب لانقاذ مريض ! .. ولم لا ؟ .. ان كل شىء ممكن ، حتى المستحيل .. **وحيثما يقف الطب اليوم أمام باب مغلق ، يفتح له أحيانا باب آخر على غير انتظار ! وحينما تفشل وسائلنا الحالية ، ينبغى أن تبذل المحاولات لاستكشاف وسائل جديدة .. بل حيثما يفشل العلم ، توجد دائما فرصة حدوث معجزة ! ..** نعم ، فالمعجزات تحدث حتى اليوم فى عالم الطب ، متحدية كل منطق وتجربة ، وأحيانا يستطيع المرء أن يصنعها بنفسه .. والا ، فهل تعتقد انى كنت لأعذب هذه الفتاة — وأعذب نفسي — لو لم يخامرنى الأمل فى امكان أن أصنع لها شيئا ، وأشفيها فى النهاية ؟ .. أعترف بأن حالتها عسيرة عنيدة ، واننى استغرقت حتى الآن سنوات عديدة دون أن أصل بعد الى النتيجة التى أرجوها ، لكنى لن أيأس أو أتخلى عن النضال ! »

أصغيت اليه بانتباه ، وفهمت كل ما قال ، لكنى — وكأنما أصبت بعدوى الالحاح من كيكسفالفا — وجدتنى أطلب جوابا أكثر دقة وايضاحا ، فسألته : « اذن ، أنت ترى احتمال حدوث تحسين .. أعنى أنك قد حققت شيئا من التحسين ، أليس كذلك ؟ » .. وهنا سكت الدكتور كوندور ، وكأنما ضايقه سؤالى ، ثم توقف عن المسير ، والتفت الى قائلا : « لعل الأفضل أن أصارحك بحقيقة الموقف .. كلا ! .. انى لم أصل الى تحقيق شىء البتة مما رجوت ، وقد جربت معها

أنواعا شتى من العلاج ، لم تأت بنتيجة حتى الآن . **واذا كانت الفتاة قد شعرت أحيانا بتحسن فى حالتها فما ذلك الا نتيجة للايحاء الذاتى الذى هو خير معين لنا نحن الأطباء على كسب الوقت ، وتمكين المريض من الصبر على مرضه حتى نهتدى الى العلاج الشافى له** .. وصدقنى انها ليست مهمة سهلة أن أبتكر كل حين وسيلة جديدة لتخدير أعصاب المريضة وايهامها بأنها فى تحسن مطرد ، طيلة خمس سنوات كاملة ! .. ولكن لا تحسب انى فى أعماق نفسى قد يئست من حالتها .. كلا ! .. بل أنى أرفض الاستسلام للفشل حتى لو استمر سنة أخرى ، بل خمس سنوات .. ! .. وقد حدث أنى قرأت أمس فقط مقالا فى صحيفة طبية باريسية عن حالة شلل مماثلة أصيب بها غلام فى الرابعة عشرة ، وبقى طريح الفراش ، عاجزا تماما عن الحركة ، عامين كاملين .. حتى تمكن البروفيسور « فيينو » من معالجته خلال أربعة أشهر علاجا أدى الى استطاعته صعود السلالم بكل سهولة ويسر ! .. وقد كتبت فورا الى البروفيسور أسأله مزيدا من الايضاحات عن الطريقة التى وصل بها الى هذه النتيجة ، كى أرى مايمكن تطبيقه منها على اديث ! .. **ومن هذا ترى أنى أبعد ما أكون عن اليأس ، بل انى ما زلت أتعلق بكل قشة يحملها التيار . وقد يكون لنا بعض الأمل فى هذا العلاج الجديد .. وعلى كل حال أحسبنى قد ثرثرت أكثر مما ينبغى »**

وكنا قد اقتربنا من المحطة ، فرأيت أن ألقى على محدثى سؤلا واحدا أخيرا ، فقلت له : « اذن .. أنت تعتقد أن .. » .. لكنه قطع كلامى قائلا : « لست أعتقد شيئا .. وليس فى الأمر ما يحتمل أى استنتاج ! ماذا تريد منى أكثر مما قلت ، انى لست على اتصال تليفونى بالله سبحانه وتعالى .. فاعتبر أنى لم أقل لك شيئا البتة ، ولا أبديت أى رأى فى الموضوع .. ولست أعدك بشىء على الاطلاق .. والآن كفى نقاشا فى هذا

الأمر ، وشكرا لك على مرافقتك اياى ، ولتعد مسرعا قبل أن يغرقك سيل المطر الذى ينذر بالهطول » .. ثم تركنى ومضى مهرولا الى داخل المحطة ، دون أن يصافحنى !

الفصل السابع

اكسير الأمل

صح ما تنبأ به الدكتور كوندور عن الحالة الجوية ، فسرعان ما بدت نذر العاصفة ، وبدأت السحب السوداء تتلاطم فوق قمم الأشجار ، والبرق يومض بين حين وآخر ، فأغلقت أبواب المتاجر والدور ، وجميع النوافذ ، وخلت الطرقات من المارة ، فحثثت السير كى أصل الى غرفتى قبل أن ينهمر المطر !

وما كدت أصل الى باب المعسكر ، حتى لمحت شبحا يبرز من ظل احدى الأشجار ، فحسبته شبح امرأة من نساء الليل اللواتى اعتدن انتظار الجنود فى الظلام ، ثم فطنت الى أن خطوات ذلك الشبح المجهول تتبعنى مسرعة ، فالتفت الى الوراء حانقا ، **وفى تلك اللحظة ومض البرق فجأة ، فتبينت على ضوئه وجه الشبح ، وكدت لفرط دهشتى ألا أصدق عينى ، فهتفت به : « عجبا !.. هر فون كيكسفالفا هنا ؟.. ماذا أتى بك يا سيدى ؟.. ألم أتركك على أهبة النوم منذ ثلاث ساعات ؟! »** .. فأجابنى : « هذا صحيح ، لكنى لم أستطيع أن أنام قبل أن .. » .. فأدركت ما يريد ، وقلت له : « ينبغى أن تعود الى البيت على عجل .. ألا ترى بوادر العاصفة المخيفة يا سيدى ؟ »

فقال : « ان معى سيارتى ، وهى تنتظرنى وراء المعسكر »

فقلت : « حسنا !.. اذن أسرع .. أسرع قبل أن يعوقك سيل الأمطار »

واذ رأيت تردده ، جذبته من ذراعه فى غير توقير لأقوده الى سيارته .. لكنه أفلت ذراعه منى وهو يقول : « انتظر لحظة .. لحظة فقط . ماذا قال لك ؟ » .. وتحققت أن لهفته على معرفة النتيجة هى التى دفعته الى الترصد لى عند باب المعسكر منذ ثلاث ساعات ، برغم سوء حالة الجو ، كى يسألنى عن رأى الطبيب .. فقلت له مطمئنا : « كل شىء على ما يرام .. كل شىء سوف يعود سيرته الأولى .. وغدا أقص عليك ما قاله الطبيب .. أما الآن فيجب أن تسارع الى سيارتك كى تنجو من العاصفة ! » .. فغمغم قائلا : « حسنا ! » ، وتركنى أقوده واستحثه مسافة عشر خطوات ، أو عشرين على الأكثر ، ثم جذب ذراعه بقوة من يدى وعاد يقول : « لحظة واحدة !.. هناك على ذلك المقعد ! لست أستطيع السير ! »

.. وكان يترنح حقا كالثمل ، بحيث لم أر بدا من تركه يستريح ، فتهالك على المقعد الخشبى وهو يلهث ! لقد أضنى الانفعال وطول الوقوف قلبه الضعيف ، فاستند الى ظهر المقعد فى حالة انهيار .. وأدركت أنه سوف يتعذر على تقويته على النهوض من مكانه ، ما لم أبادر بتقوية روحه المعنوية وادخال الطمأنينة على قلبه المنزعج .. ولكن ، بماذا أطمئنه والحقيقة التى صارحنى بها الطبيب موجعة لا تبعث على الأمل ؟!.. وفى غمرة حيرتى ، لم أجد غير أن أجمع شتات العبارات المشجعة التى تضمنها حديث الطبيب ، وأعدتها على سمعه موجزة ، وختمتها بذلك العلاج الجديد الذى شفى صبيا كسيحا فى مثل حالة « آديث » خلال أشهر معدودات . وكان لكلامى من الوقع السحرى على الأب المنكوب ما أغرانى بالمغالاة فى تطمينه ، فأخذت أعزز توكيدى وأسرف فى الوعود ، وهو يردد فى لهفة قوله : « أتعتقد ذلك ؟.. هل قال الطبيب هذا ؟! » .. فقلت فى لهجة المقتنع : « نعم ، انها ستشفى

قريبا .. تمام الشفاء ! » .. فتنفس الصعداء وقال : « شكرا لله !.. شكرا لله ! »

.. وخلال ذلك كانت العاصفة تزداد عتوا وشدة ، حتى بدأت الأشجار ترزح تحت وطأتها وهى تئن وتتقصف ، فقلت له وأنا أدفعه الى النهوض : « هيا .. يجب أن تعود الى بيتك حالا » . وفى هذه المرة أطاعنى بلا مقاومة ، فسار معى الى السيارة فى نشاط ملحوظ ، وكأنما أمدته كلماتى بالقوة .. وأحسست بالارتياح وهو يبلغ سيارته فى أمان واطمئنان ، فقلت أحدث نفسى : « أخيرا سوف ينعم المسكين بنعاس شهى عميق ، لا يشوبه كابوس .. ولا أرق .. ولا انزعاج ! » . وفيما أنا أنشر الغطاء على ركبتى الشيخ المحطم ، فى السيارة ، خشية أن يصيبه برد ، اذا هو يفاجئنى بامساك كلتا يدى ، وقبل أن أتنبه أو أستطيع منعه ، كان قد انحنى بفمه على كل يد يقبلها ، قبلة مفعمة بالشكر والامتنان .. ثم هتف والسيارة تنطلق به : « الى غد !.. الى غد ! »

.. وبقيت هنيهة جامدا فى مكانى ، لكن بوادر المطر كانت قد بدأت تتساقط وتشتد .. فانطلقت أقطع الأمتار الباقية التى تفصلنى عن باب المعسكر عدوا ، ثم هرعت الى غرفتى وأنا أنفض الماء عن ثيابى !

●

● **وفى** عصر اليوم التالى توجهت الى القصر كعادتى ، فاستقبلنى « جوزيف » كبير الخدم قائلا فى حماسة : « هل أقود سيدى الملازم الى البرج توا ؟ ان الآنستين تنتظران هناك ! » .. ولحظت فى لهجته لهفة غير عادية ، فمضيت الى السلم وأنا أسائل نفسى عما هنالك ؟ وحين اقتربت من السطح سمعت أنغام موسيقى عذبة ، يصاحبها غناء من أصوات نسائية جميلة .. فلما أرهفت أذنى تبينت أن

الموسيقى صادرة من « جراموفون » عادى ، **أما الغناء فكان بعضه بصوت « ايلونا » الرائع الشجى ، الناعم كذراعيها .. وبعضه بصوت فتاة أخرى حسبتها صديقة دعتها « أديث » لتناول الشاى معنا .. وشد ما كانت دهشتى حين وصلت الى الشرفة فلم أجد فيها غير الفتاتين ، واذا الصوت الفضى العذب هو صوت أديث نفسها !.. وتسمرت بالباب ذاهلا ، وكأنى فاجأت الفتاتين عاريتين !**

من كان يصدق ؟!.. اديث العليلة ، اليائسة من حياتها ، تغنى بذلك الصوت القوى الجميل الذى لا يصدر الا عن الأصحاء الأقوياء ؟ ! .. ترى ما الذى أسكرها بخمرة هذا الانشراح العجيب ، والبهجة العاتية ! ؟ .. وزاد فى دهشتى أن واحدة منهما لم تبد أى ارتباك حين وقع بصرهما على ، بل هتفت أديث ببساطة : « تعال » ، ثم أشارت الى ايلونا أن تغلق الجراموفون ، وعادت تخاطبنى فى شوق ظاهر : « أخيرا ؟ أخيرا ؟.. لكأنى أنتظرك منذ أجيال !.. والآن أسرع وقص على كل شىء ، بالحرف الواحد ، فلقد كان أبى منفعلا من فرط فرحته الى درجة أنه تخبط فى سرد القصة .. تصور أنه جاء الى غرفتى حوالى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا - وكنت يقظى بسبب العاصفة - فعجبت اذ وجدته يضحك ويقهقه ، ويكاد يرقص وسط الحجرة كتلميذ المدرسة حين يستخفه السرور بالنجاح ! وحين روى لى الحديث حسبته يحلم ، أو أنا التى تحلم !.. ثم جاءت « ايلونا » ولبثنا نثرثر ونضحك حتى الصباح .. ولكن دعنا من ذلك وتعال قص علينا القصة بحذافيرها : قل لنا ماذا يكون هذا العلاج الجديد ؟ ! »

.. وكما تداهم أحدنا موجة عاتية من أمواج البحر ، فيحاول عبثا تثبيت قدمه على الأرض ، حاولت أنا أن أكافح أمواج الحيرة الشديدة التى تولتنى على الأثر !.. أدركت

توا أننى أنا وحدى كنت المصدر الموحى للفتاة بهذا الايمان بالشفاء ! .. وفيما أنا أفكر فى جــواب ، مضت الفتـــاة تستحثنى : « ما بالك تتردد ؟ .. ألا تقدر أهمية كل حرف من هذا الحـديث بالنسبة لى ؟.. والآن قل لى : ماذا قال لك كوندور ؟ » .. فأجبتها مكررا ، كى أكسب الوقت : « ماذا قال لى ؟.. انه.. كان.. متفائلا جدا .. وهو يأمل أن يحصل فى الوقت المناسب على نتائج مرضية .. واذا كنت لم أخطىء الفهم فهو يقترح تجربة علاج جديد يقوم الآن بالتحرى عن تفصيـلاته .. وعلى أى حال يمكنك أن تستفهمى منه عن حقيقة الأمر .. »

وبدا أنها لم تلحظ محاولتى التنصل من الموضوع ، أو لعل لهفتها أعمت بصيرتها ، فقد قالت معلقة : « لقد قلت منذ زمن أن العلاج الحالى لا جدوى منه ، ان المريض يعرف حالته أكثر من سواه .. أتذكر ما قلته لك يوما عن عقم كل هذه الوسائل ، من تدليك وحمامات كهربائية وجهاز جراحى ؟ انها بطيئة جدا . فكيف أستطيع الانتظار هكذا دهرا ؟ لقد نزعت الجهاز هذا الصباح ، بغير أن أستأذنه ! ولن تصدق مبلغ الارتياح الذى شعرت به . لقد أمكننى السير بسهولة أكثر .. ولكن قل لى بسرعة : ما هو علاج هذا البروفيسور الفرنسى ؟ وهل سوف أسافر الى هناك ، أم يمكن اجراء العلاج هنا ؟ انى أمقت تلك المصـحات المزدحمة بالمرضى والعجزة .. ثم كم من الزمن يستغرق الأمر ؟ هل صحيح ما قاله أبى عن ذلك الغلام الذى شفاه البروفيسور فى أربعة أشهر فقط ، بحيث صار بعدها يصعد السلم ويهبطه ويتحرك بملء حريته ؟.. تكلم ، ما بالك تجلس هكذا كالدمية المحنطة ؟.. أسرد لى الحديث بأكمله . متى يبدأ الدكتور كوندور هذا العلاج ، وكم من الزمن يستغرق ؟ »

.. وفى دوامة حيرتى المرة ، ازاء هذه الورطة الجديدة،

وسوء الفهم ، رأيت ألا أدعها تستسلم لهذا اليقين المضلل ، فقلت فى أسلوب حذر : « ما من طبيب يستطيع أن يجزم سلفا بمدة العلاج ، ولست أعتقد أن فى الامكان تحديد شىء من ذلك الآن .. ثم أن الدكتور كوندور لم يتحدث فى الأمر الا بصفة عامة . قال ان المفروض ان ذلك العلاج يؤدى الى نتائج باهرة ، لكن لكل حالة فردية ظروفها .. وعلى أية حال يجب أن ننتظر حتى يحضر هو .. »

لكن الفتــاة من فورة حماسـتها تجاهلت « ضعف » لهجتى ، فاستطردت : « يا فتــاى العزيز ، انك لا تعرف كوندور .. انه لا يجزم عادة بشىء ، من فرط حذره الشديد وتحوطه فى الكلام .. لكنه اذا وعد « نصف وعد » فكن على ثقة من أنه سوف يفى به !.. وأنت لا تعلم مبلغ حاجتى الى الارتكان على قرار نهائى فى هذا الشأن ، فلقد ضقت ذرعا بالصبر الذى أوصونى به ، الى أجـل غير مسمى ! ولو قيل لى اليوم ان على أن أصبر ستة أشهر أخرى ، أو حتى سنة كاملة ، فانى أستطيع أن أوطن نفسى على ذلك .. ولكن شكرا لله من أجل وصولنا الى هذه المرحلة .. انك لا تستطيع تصور مدى الارتياح الذى أحسه منذ أمس .. لكأنى لم أبدأ حياتى الا الآن ! .. وقد خرجنا هذا الصباح الى المدينة بالسيارة ـ لا تدهش ـ فما دمت قد قطعت أكثر المرحلة ولم يبق أمامى غير القليل فلن أخجل بعـد اليـوم من أن يرانى الناس أو يرثوا لحالى ، بل سأخرج للنزهة كل صباح .. وقد دبرنا لغد ـ الأحد ـ نزهة ممتازة ، وطبعا ستكون لديك عطلة فتذهب معنا الى المزرعة .. اننى لم أرها منـذ أربع سنوات أو خمس ، وسوف تدهشك المفاجأة التى أعددناها لك ! »

ثم التفتت الى ايلونا وسألتهـا ضاحكة : « هل أبوح له بالسر الآن ؟ » .. فضحكت هذه وأجابت : « نعم ، فلنكف عن

أن تكون بيننا أسرار منذ اليوم !» .. فقالت اديث : « حسنا ! أصغ الى اذن أيها الصديق العزيز .. كان أبى يريد أن نذهب بالسيارة ، لكنى تذكرت ما قاله لى جوزيف يوما من أن الأميرة العجوز الحمقاء التى كانت تملك القصر قبلنا كانت تخرج دائما فى عربتها التى تجرها الجياد ، عربة السفر الجميلة ذات اللون الزاهى .. وكانت تحرص على أن تسرج فيها جيادها الأربعة حتى لو خرجت الى مكان قريب ، لا لشىء الا لكى يعلم كل من يراها أنها الأميرة ، فان أحدا غيرها لم يكن يجرؤ على الخروج « بمظاهرة » كهذه ! .. وكم سيكون طريفا أن نخرج فيها نحن مرة ، على تلك الصورة ، سيما وأن الذى سيقودها هو حوذى الأميرة القديم بعينه ! .. اننا مازلنا نحتفظ بالشيخ المسن ، وان بقى بلا عمل منذ ابتعنا السيارة .. وقد كاد يطير فرحا حين أوصيناه أمس باعداد العربة للخروج ! .. وهكذا ترى أننا دبرنا كل شىء ، وسوف نستيقظ مبكرين ، وأنت سوف تقضى الليلة هنا بطبيعة الحال ـ لا تحاول أن ترفض ، فسنعطيك حجرة مناسبة ونحضر لك حاجياتك اللازمة لك من المعسكر .. كن ظريفا ولا تحرمنا هذه المتعة ! .. »

.. وهكذا اندفعت اديث فى الثرثرة بلا حساب ، وأنا أصغى اليها متعجبا من التغير الذى طرأ على نفسيتها ، وصوتها ، وحديثها ، ووجهها ! .. **كانت الفتاة التى أمامى مخلوقة أخرى ـ كالثملة ! ـ ذات عينين وضاءتين ضاحكتين ، وفم جذاب مرح .. وكأنما سرت عدوى مرحها الى فاحسست بمثل ثملها ونشوتها المحمومة** : ولم لا ينجح فى حالتها العلاج الذى نجح فى حالة غيرها ، فتشفى هذه الصبية الغريرة ، الظريفة المشرقة ، التى فاض قلبها حبورا لمجرد تفكيرها فى الشفاء ؟ .. وهل من اللياقة أن أبدد نشوتها التى غمرت كيانها كله ، لأعذبها بالشكوك من جديد ؟ .. لقد تعذبت المسكينة بما فيه الكفاية ! .. وكما يتحمس الخطيب لسماع

العبارات الجوفاء التى نطق بها هو نفسه ، وجدتنى أتأثر بشعور الثقة الذى ولدته فى نفوس الجميع مغالاتى فى تطمينهم ! .. فلما انضم كيكسفالفا الينا بعد حين ، ألفانا فى أبهج حال ، نضحك ونثرثر وندبر أمور المستقبل كما لو كانت اديث قد شفيت فعلا .. حتى لقد تحدثنا فى اختيار المدرب الذى سوف يعلم الفتاة ركوب الخيل من جديد بعد شفائها !

.. لكننى لم أكد أخلو الى نفسى فى غرفتى ، بعد انتهاء السهرة ، حتى سمعت طرقة خفيفة على جدار قلبى ، طرقة تحذير كأنها تقول : « أليست آمال الفتاة كلها من وحى المغالاة ؟ أو لا يجدر بى أن أصد تيار هذا التفاؤل الخطر ؟ .. لكننى أبيت أن أعترف أو عيى بهذه الحقائق ، وقلت لنفسى : « لم أشغل نفسى بالتفكير فى هذا الأمر ؟ وماذا لو أسرفت فى احياء موات الآمال ؟ ان أكاذيبى التى ولدتها الشفقة قد أسعدت الفتاة الى حد كبير ، وما اسعاد مخلوق شقى بالأمر الذى يعد جريمة ، بأية حال ! »

● ●

● **واستيقظت** فى صباح اليوم التالى على صوت ضحكات مرحة تنبعث من الخارج ، فتطلعت من النافذة لأجد الجمع كله قد التف حول العربة العتيقة الفاخرة ، التى صنعها لجد الأميرة أوروزفار — منذ أكثر من مائة سنة — صانع عربات البلاط الامبراطورى ، فجاءت تحفة فى الصناعة والزركشة ، محلاة باللوحات الزيتية على جانبيها ، والستائر الحريرية على نوافذها ، والمرايا الصغيرة ، والمناضد التى تطوى وتقام ، وقوارير العطور المثبتة على جدرانها من الداخل .. الى آخر هذه الكماليات ووسائل الراحة اللائقة بالأمراء ! .. ورأيت الخدم يضعون فى مخزن العربة أدوات المائدة الفضية ومفارشها الأنيقة — وكلها تحمل شعار أسرة أوروزفار — ثم ألوان الطعام والشراب المختلفة المعدة للأكل فى أى مكان ، بعد

تسخينها بهمة مساعد الطاهى الذى اتخذ مكانه الى جوار الحوذى ، وكان هذا قد ارتدى ثيابه التقليدية المحلاة بالقصب !

وسرى نبأ الرحلة « التاريخية » فى المنطقة كلها ، فخرج القرويون فى ثياب يوم الأحد الزاهية الى الطريق العام كى يروا تلك المظاهرة العجيبة .. وهكذا ، بعد أن تناولنا الافطار ، اتخذنا مقاعدنا فى العربة ، ثم نفخ الحوذى فى البوق ، بالطريقة التقليدية ، وضرب الهواء بسوطه محدثا صوتا مثل صوت الطلق النارى .. وانطلقت العربة بنا الى الطريق العام ، حيث استقبلنا طيلة المسافة بتحيات الاحترام والتبجيل من الكبار ، وصيحات التهليل والغبطة من الصغار .. وثملت الفتاتان ـ اديث وايلونا ـ بخمر المغامرة الجديدة ، والشمس المشرقة ، والهواء النقى العذب .. وعلى الجانبين ترامت حقول الحنطة الذهبية ، المتماوجة الهامات مع تموجات الهواء .. حتى وصلنا الى أول قرية على الطريق ، وكانت أجراس كنيستها تدق معلنة بدء الخدمة الدينية ، فاقترحت اديث أن نتوقف لنحضر « القداس »

ورحب بنا القوم ترحيبا كبيرا ، وقد رأوا فى دخولنا كنيستهم الصغيرة المتواضعة تشريفا لهم . **وحين رأوا اديث تتوكأ على ذراعى ايلونا وجوزيف ، بدا عليهم التأثر الشديد ، الذى يصيب البسطاء دائما كلما رأوا أن الكوارث لا تحجم عن أن تضع قبضتها الثقيلة على الأغنياء أحيانا !** .. وسرت الهمسات بين عجائز النساء ، وخف البعض الى احضار عدد من الوسائد المريحة كى تستند اليها أديث حيث جلست ، فى أحد مقاعد الصف الأول ! وهزت يقينى بساطة القوم ، وتقواهم الظاهرة ، وايمانهم الخالص .. لكنى لم ألبث أن شردت بذهنى عن جو العبادة الى تأمل أديث الجالسة بجانبى ، فقد كانت تصلى بحرارة غير عادية ، وهى تكاد تنتفض انفعالا .. وحين عدنا الى العربة واستأنفنا رحلتنا ، ظلت اديث

مستغرقة فى التفكير ، فلذنا جميعا بالصمت ، احتراما لصمتها ورعاية لمشاعرها .. حتى وصلنا الى المزرعة ، وهناك أعد لنا القوم استقبالا خاصا ، فأقبلوا يركضون بجيادهم فى سرعة عنيفة ، مثل قبيلة من البدو والأعراب تغير على غيرها .. ثم أطلق قائدهم صفارة خاصة ، فلانت قبضاتهم على أعنة جيادهم واصطفوا حولنا فى صفين منتظمين ، رافقا عربتنا حتى بلغنا جميعا دار « العمدة » . وبعد أن طفنا بأنحاء المزرعة ورأينا حظائر الجياد الحديثة الولادة ، العاجزة عن قضم قطع السكر التى تقدم لها ، أعد الغداء لنا فى الخلاء ، وأعاننا النبيذ المعتق على أن نسترد مرحنا السابق بل نمعن فيه .. وكانت اديث أكثرنا مرحا وضحكا وانشراحا ، بحيث كدت أنسى أنى عرفتها من قبل فتاة كسيحة تعسة ! .. وحين أدخلت هى بعد الغداء الى دار العمدة لتستريح ، انطلقت أجرب جياد المزرعة وأركض بها واحدا بعد الآخر فى الفضاء الفسيح ، وقد تولانى شعور « بالحرية » لم يكن لى به عهد من قبل !

واختار لنا الحوذى — للعودة — طريقا آخر يخترق غابة صغيرة رطبة منعشة الهواء . وفى احدى القرى التى مررنا بها فوجئنا بأكثر من عشر عربات قد سدت الطريق تماما فى وجهنا ، ولم يكن فى داخلها أو حولها شخص واحد من أهل القرية ، ولكن لم يكد الحوذى ينفخ فى بوقه حتى أقبل بعضهم على صوته .. وعلمنا أن أغنى الزراع فى القرية يحتفل بزواج ابنه ، وان الأهالى جميعا قد ذهبوا الى ساحة الاحتفال للمشاركة فيه بالرقص والغناء والهرج .. وسرعان ما سرى نبأ وصول « هر كيكسفالفا » وأسرته ، فجاءنا والد العريس يلهث ويرجونا ملحا أن نقبل دعوته الى تناول كأس من نبيذ مزرعته الخاص ، نخب صحة العروسين .. ولم نجد مايدعونا الى رفض دعوته ، فسرنا الى ساحة الرقص بين نظرات الاحترام من الأهلين جميعا ، وأفسح لنا أقارب العروسين

طريقا الى المائدة الرئيسية ، حيث شربنا نخبهما وسط مظاهرة من التهليل .. ثم قدم لنا العروسان ، وانحنت العروس تحيى كيكسفالفا فى ارتباك ظاهر ، ثم قبلت يد اديث فى احترام .. **وجو العرس يثير دائما مشاعر العذارى ، وينعش روح « التضامن » الغامض بينهن وبين بنت جنسهن التى تزوجت .. وهكذا رأينا اديث تجذب العروس اليها وتعانقها فى تأثر ، ثم خطر لها خاطر مفاجىء فنزعت من أحد أصابعها خاتما غير باهظ الثمن ووضعته فى أصبع العروس ، التى اضطربت لهذه الهدية غير المنتظرة فلمعت فى عينيها دموع الفرح والعرفان** .. ومرة أخرى أحاطنا أهل العروسين ومدعويهم بمظاهرة من التحيات الشاكرة الحماسية ، وراحت أم « العريس » تتنقل فى أرجاء المكان ثملة بالشرف الكبير الذى حظى به عرس ابنها ! وعلى أثر ذلك صافح كيكسفالفا أصحاب العرس ورجاهم ألا يجعلوا وجودنا يعطل برنامج احتفالهم ، ثم أومأ الى رئيس جوقة « الفجر » الموسيقية كى يبدأ العزف .. ولم يكد يستهل عازف الكمان المقطوعة الأولى بنغم كمانه حتى ذرت الموسيقى كل تحفظ فى مهب الرياح ، وانطلق الشباب الى حلبة الرقص فى نشوة نارية ضارية ! .. ونظرت اديث الى الجمهور الصاخب السعيد بعينين تلمعان ببريق الانفعال ، ثم أحسست بيدها على ذراعى ، وقالت بلهجة آمرة : « يجب أن ترقص أنت أيضا » .. ولحسن الحظ لم تكن العروس قد اندمجت بعد فى زحمة الراقصين ، بل كانت ما تزال تختلس النظرات الى الخاتم المهدى اليها ! .. فأومأت اليها داعيا الى الرقص ، واذ ذاك احمر وجهها حياء وزهوا بهذا « الشرف » ، وتركتنى أخاصرها مرحبة .. وحذا « العريس » حذونا فدعا ايلونا الى مراقصته .. واحتدم الرقص حاميا عنيفا بهيجا ، كما لم يحتدم فى القرية الوادعة من قبل ! .. لكن جعبة المفاجآت التى انطوى عليها ذلك اليوم

لم تكن قد فرغت بعد ، **اذ لم تلبث أن أقبلت احدى عجائز الغجر ، مدفوعة بسخاء هدية اديث الى العروس ، فعرضت على الضيفة الكريمة أن تكشف لها طالع مستقبلها . وأغرى الفضول هذه بالقبول ، فركعت الغجرية أمامها وتناولت كفها تفحصه** . وكل من زار (هنغاريا) يعرف أن أولئك الغجريات يبشرن دائما من يرين طالعه بأشياء سارة مفرحة ، كي يظفرن بأجر سخي .. لذلك أدهشني أن ألحظ على وجه الفتاة وهي تصغي الى همس محدثتها سحابة من القلق والكآبة .. وحين فرغت المرأة من كلامها أومأت اديث الى أبيها كي يقترب ، فلما فعل أسرت اليه ببضع كلمات ، أخرج الرجل على أثرها من جيبه مبلغا – يبدو أنه كان سخيا – وقدمه للمرأة .. فركعت هذه على الأرض ولثمت طرف ثوب اديث كالمأخوذة ثم جعلت تغمغم ببضع تمائم وأدعية غامضة ، وهي تمسح قدمي المشلولة بيديها .. وحين فرغت ابتعدت مسرعة كمن تخشى أن يؤخذ منها المال الذي أعطيته ! .. وأقلقني أن أرى مسحة الشحوب الذي كسا وجه اديث ، ثم سمعتها تهمس لأبيها على الفور : « يحسن بنا أن نذهب » . ونهضنا على الأثر ، فتوقفت جوقة الموسيقيين عن العزف ، واشترك أفرادها في توديعنا مع جميع الحاضرين .. وفي العربة جلست اديث في مواجهتي ، وكانت ما تزال ترتجف من رأسها الى قدمها ، شأن من وقعت تحت تأثير نوبة انفعال عاطفي شديد .. **وفجأة أخذت تنشج نشيجا عصبيا عنيفا ، ينم عن الفرح الطاغي . كانت تبكي ثم تضحك على التوالي .. اذن فلابد أن الغجرية الخبيثة قد بشرتها بشفاء قريب ! وحين حاولنا تهدئتها ، عارضت في اصرار وقالت : « دعوني ! .. دعوني ! .. اني أعلم أن المرأة دجالة .. ولكن لم لا أخدع نفسي ؟ .. لم لا أتعلق بالوهم ، ولو مرة ؟ »**

الفصل الثامن

اليقظة .. من حلم !

● **كان** الليل قد هبط حين وصلنا الى القصر عائدين من رحلتنا ، فدعانى القوم الى البقاء لتناول العشاء ، لكننى اعتذرت ! .. لقد شعرت بأننى نلت كفايتى من السعادة طيلة اليوم ، وخشيت - ان بقيت - من حدوث أى شىء ينتقص من سعادتى هذه .. وهكذا انصرفت مبكرا ، وسرت فى طريق المعسكر وقد خلت نجوم السماء ترنو الى بنظرات حانية ، ونسمات المساء العذبة تشدو فى أذنى ! **كنت فى تلك الحال من النشوة النفسية التى يود المرء فيها لو يعانق كل شجرة من أشجار الطريق ويتحسس جذعها ، وكأنه يتحسس جسم محبوبته .. ويدخل كل بيت فيجلس الى قاطنيه الغرباء كى يفضى اليهم بذات نفسه ، ويلقى عن صدره وقلبه بعض ما يفيضان به من سعادة عارمة !..** وحين وصلت الى المعسكر وجدت تابعى واقفا ينتظرنى أمام باب غرفتى ، فرأيت أن أشركه بدوره فى سعادتى ، فنفحته بشىء من المال يشرب به هو وفتاته بضعة أقداح من البيرة ويقضيان سهرة لطيفة ! لكننى لم أكد أمد يدى الى جيبى حتى رفع يده الى رأسه بالتحية العسكرية وابتدرنى بقوله : « توجد برقية باسم سيدى الملازم » !.. وشعرت بانقباض لا علم لى بسببه ، وساءلت نفسى : « ترى من يكون على ظهر البسيطة ذلك الذى يريد منى شيئا عاجلا يستدعى أرسال برقية ؟ » .. وفضضت المظروف بأصابع مرتعشة ، فاذا فيه : « طلب منى أن أزور كيكسفالفا غدا . قابلنى فى الحانة الساعة الخامسة - كوندور »

لم أكد ألتهم السطور ببصرى حتى أفقت من نشوتى بسرعة البرق ، وتبدد هنائى الحالم فى لمح البصر .. وفى أقل

من ثانية أدركت مالبثت ساعات طويلة أرفض الاعتراف به لنفسي : **وهو أن سروري وطربي لم يكونا غير سكرة ولدتها أكذوبة !.. وانني بفعل ضعفي ومغالاتي في شفقتي قد أثمت فخدعت نفسي وغيري .. وها هو ذا الدكتور كوندور قادم ليناقشني الحساب ، وسوف أدفع ثمن الساعات الهنيئة التي استمتعنا بها جميعا !..** وفي دقة الملهوف وجدتني أصل الى باب الحانة قبل الموعد الذي حدده لي الطبيب ، ولم يلبث قليلا حتى وصل قادما من المحطة في عربة يجرها جوادان ، فاتجه من فوره نحوي وابتدرني قائلا : « كنت أعلم أني أستطيع الاعتماد على مراعاتك للميعاد .. ولعله يحسن بنا أن نجلس في الركن الذي اجتمعنا فيه تلك المرة ، فان الأمور التي سنتناقش فيها ينبغي ألا يسمعها أحد ! »

وبدا لي الطبيب رجلا غير الرجل الهادىء « البليد » الذي عرفته في المرة السابقة ! كان يعروه شيء من الانفعال المكظوم وهو يتقدمني الى المقصورة المنعزلة ، ويخاطب الساقية التي هرعت الينا ، قائلا في جفاء ملحوظ : « أعطينا لترا من النبيذ ، مثل تلك الليلة ، ودعينا في خلوة تامة حتى نطلبك ! » .. ثم التفت الى عقب جلوسنا مباشرة ، وقبل أن تحضر الساقية ما طلب ، قائلا : « ينبغي أن أدخل في الموضوع رأسا ، وبسرعة ، والا توهم القوم في (كيكسفالفا) اننا ندبر كل صنوف المؤامرات ! لقد لقيت عناء كبيرا في التخلص من سائقهم الذي كان مصرا على أن يأخذني اليهم فورا .. ولكن ، فلأبدأ من البداية : **لقد فوجئت صباح أمس ببرقية هذا نصها : « أرجو أيها الصديق العزيز أن تحضر في أقرب فرصة . كلنا ننتظرك بفارغ الصبر . لك ثقتنا الكاملة وشكرنا العميق ـ كيكسفالفا »** .. ولم أفهم سببا واضحا لهذا الاستدعاء الفجائي ـ ولما يمض على فحصي للمريضة غير بضعة أيام ـ وكذلك لم أفهم سر توكيد الرجل لثقته في

بالبرق ، أو الداعى الى شكره العميق لى !.. لكنى برغم ذلك أهملت الأمر ، حاسبا أنها نزوة جديدة من نزوات الأب الملهوف .. أما الذى صدمنى حقا فهو الخطاب الطويل الذى تلقيته من اديث بالبريد العاجل هذا الصباح ، وفيه تذكر لى بلهجة النشوة المجنونة أنها أحست منذ البداية أننى الانسان الوحيد على الأرض الذى يستطيع انقاذها .. وأنها تعجز عن وصف السعادة التى غمرتها حين عرفت أننا قد بلغنا أخيرا هذه المرحلة .. لذلك فهى تكتب لى كى تطمئننى الى أنى أستطيع الاعتماد على حسن استعدادها لتنفيذ أى علاج أصفه بغير ابطاء ، مهما تكن صعوبته .. وان كانت ترجونى أن أبدأ باستعمال العلاج الجديد فورا ، لأنها شديدة اللهفة على بلوغ نتيجته المرجوة !.. وكلاما كثيرا آخر لا يخرج عن هذا المعنى !.. **وقد ألقت هذه الرسالة ما يكفى من الضوء على الموضوع كله ، فأدركت توا أن « شخصا ما » لابد قد ثرثر على مسمع من الفتاة أو أبيها بحديث العلاج الجديد الذى استنبطه البروفيسور « فيينو » .. وهذا الشخص لا يمكن أن يكون غيرك أنت يا سيدى الملازم ! » ..**

.. ويبدو أننى أجفلت ، بالرغم منى ، حين واجهنى الطبيب بهذا القول ، فقد استطرد فى لهجة حازمة : « كلا ! أرجو ألا تدعنا نطيل المناقشة فى هذه النقطة ، فانى لم أفه لانسان غيرك بحرف واحد عن علاج البروفيسور فيينو .. فاذا كان آل كيكسفالفا قد باتوا يعتقدون أن شلل ساقى اديث سوف يشفى بقدرة قادر خلال بضعة أشهر ، فأنت وحدك المسئول عن اعتقادهم هذا !.. لكنى لست بسبيل لومك أو تحميلك المسئوليات ، فقد أخطأت أنا بدورى اذ لم اتخذ جانب الحذر فى حديثى معك ، سيما وأنه لم يكن فى وسعك طبعا أن تعرف ما عرفته أنا — بالخبرة — من أن **للمرضى وأقربائهم لغة خاصة ينبغى أن يخاطبوا بها ، وأنهم**

كثيرا ما يترجمون كلمة ((ربما)) بكلمة ((يقينا)) ، بحيث يجب أن ((يقطر)) المرء لهم الأمل تقطيرا ، بمنتهى الحذر ، والا صعد التفاؤل الى رؤوسهم فورا - كالخمر الرديئة - وأصابهم بما يشبه الجنون !.. ولكن ما حدث قد حدث ، فلنغلق باب الحديث فى تحديد المسئولية ، فما طلبت مقابلتك اليوم كى ألقى عليك محاضرة فى هذا الشأن .. وانما كل ما فى الأمر أننى رأيت من واجبى - وقد تدخلت فى عملى - أن أوضح لك حقيقة الموقف الراهن ، ولهذا سألتك أن نلتقى ! »

ورفع كوندور رأسه ، لأول مرة ، وحدجنى بنظرة مباشرة .. لكن نظرته كانت خالية من التحامل ، بل انها - على العكس - كانت مفعمة بالشفقة والرثاء !.. حتى لكأن صوته قد لان ، وازداد رقة ، حين استطرد فقال : « فلتعلم يا عزيزى الملازم أن ما سأقوله لك الآن سوف يؤلمك .. ولكن ، لا وقت لدينا للعواطف ، كما قلت لك !.. لقد تلقيت اليوم رد البروفيسور فيينو على استفسارى عن علاجه الجديد ، فاذا هو يؤكد نجاحه فى نحو ثلاث حالات حتى الآن ، لكنها جميعا - لسوء الحظ - لا يمكن مقارنتها بحالة اديث .. فالعلاج المذكور ناجح فى شفاء أمراض النخاع الشوكى الناشئة عن السل ، وفيها يمكن اعادة أعصاب الحركة الى القيام بوظائفها الأولى على خير ما يرام .. أما فى حالتنا ، حيث الجهاز العصبى الرئيسى متأثر بالاصابة ، فان جميع طرائق البروفيسور فيينو - كالرقاد بلا حركة داخل مشد من الصلب ، واستخدام أشعة الشمس ، والتمرينات الخاصة التى ابتدعها - كل ذلك لا يجدى فتيلا !.. هذا ما أردت أن أوضحه لك ، كى تفهم الموقف الراهن على حقيقته . ولعلك الآن تقدر مدى تهورك حين بعثت فى صدر الفتاة التعسة ذلك الأمل الكاذب فى أنها

ستشفى خلال أشهر ، وسوف تستطيع أن ترقص ، وتجرى ، وتتحرك ، مثل سائر الناس ! .. أو بعبارة أخرى أنك قد وعدتها بالشمس والقمر والنجوم ، وما أحسب الا أنها ستناقشك الحساب بصدد تحقيق هذه الوعود ! »

.. وأحسست كأنى تلقيت ضربة حادة بفأس ، على رأسى !.. وطبيعى أننى شعرت بحافز يدفعنى الى الدفاع عن نفسى ، والتنصل ولو من بعض المسئولية على الأقل ، لكن الكلمات التى خرجت من فمى جاءت متخاذلة ، وكأنها دفاع تلميذ مذنب !.. قلت : « لكنى ان كنت قد تفوهت بحرف لكيكسفالفا ، فان ذلك لم يكن الا بدافع .. بدافع .. »

.. فقطع الدكتور كوندور كلامى قائلا : « أعلم ذلك .. لقد اغتصب الكلام منك ، انتزعه انتزاعا !.. اننى أعرف الناس بالحاحه اليائس الذى يحطم جميع خطوط دفاع محدثه ! نعم ، أنا أعلم أنك لم تضعف الا بتأثير شفقتك [illegible] ، وهى أنبل الدوافع .. ولكن أحسبنى حذرتك من هذا الخطر من قبل ، **فالشفقة سلاح ذو حدين : وكل من لا يتقن استعماله يجب أن يكف يديه — وقبل كل شىء : قلبه — عن [illegible] !.. فى البداية فقط تكون الشفقة ، كالمورفين ، مسكن يخفف آلام المريض ، ولكن ما لم تعرف بالضبط مقدار الجرعة التى تعطيه اياها منه ، ومتى تكف عن اعطائها ، فان المسكن ينقلب سما قاتلا !.. وكما يدمن الجهاز العصبى « المورفين » ، فيظل يصرخ فى طلب المزيد منه كل حين ، كذلك تدمن النفس « الشفقة » فتصرخ فى طلب المزيد منها يوما بعد يوما ، حتى تطلب فى النهاية أكثر مما يمكن للانسان أن يعطى !.. وحين تأتى تلك اللحظة ، ينبغى للمرء أن يتوقع من المريض مقتا وكراهية يفوقان ما كان يناله منهما لو لم يمد لمريضه يد المساعدة على الاطلاق ، منذ البداية !..**

نعم يا عزيزى الملازم ، يجب أن يزن الشخص شفقته



« .. وأحسست كأنى تلقيت ضربة حادة بفأس ، على رأسى !..
وطبيعى أننى شعرت بحافز يدفعنى الى الدفاع عن نفسى ، والتنصل
ولو من بعض المسئولية على الأقل ، لكن الكلمات التى خرجت من
فمى جاءت متخاذلة ، وكأنها دفاع تلميذ مذنب ! .. »

بالقسطاس ، والا أحدثت من الضرر أضعاف ما كان يحدثه عدم المبالاة ! .. هذه حقيقة نعلمها جيدا نحن الأطباء ، كما يعلمها القضاة والمرابون وغيرهم ، فلو أطلق الجميع العنان لشفقتهم لانقلب نظام الكون .. وها أنت ذا ترى بنفسك ما أحدثه ضعفك من أضرار ! »

وكان على أن أدافع عن نفسى ، فقلت : « لكن .. لا يستطيع الانسان أن يترك غيره فريسة لليأس . وعلى أية حال فما كان هناك ضرر فى محاولتى أن .. » .. لكن الطبيب قطع كلامى قائلا فى حدة : « لا تنس يا عزيزى أن العبرة بالنتائج وليست بالدوافع ، فما جدوى أن تكون الدوافع نبيلة والنتائج سيئة ؟.. ان الشفقة ذاتها لا غبار عليها ، ولكن هناك نوعين من الشفقة : الأول هو النوع الضعيف ، العاطفى ، الذى لا يزيد على كونه لهفة القلب على التخلص بأسرع ما يمكن من الشعور الأليم الذى تخلفه رؤية شقاء انسان آخر .. وهذا النوع من الشفقة هو بمثابة رغبة غريزية فى تحصين النفس ضد آلام الغير .. والنوع الثانى ـ الذى يعتد به ـ هو النوع غير العاطفى ، الذى يعرف ما هو منصب عليه ، ويغرى صاحبه بأن يصمد ـ فى صبر واحتمال ـ الى أقصى حدود طاقته ، وربما الى أبعد من ذلك !.. ولا يستطيع المرء أن يعين أحدا بشفقة ، ما لم يمض فى الشوط الى نهايته القصوى المريرة ، مستعينا بمعين لا ينضب من الصبر .. بل ما لم يوطن النفس على التضحية بذاته فى هذا السبيل ! »

وشابت صوت محدثى مرارة ظاهرة ، ذكرتنى فجأة بما قاله لى كيكسفالفا يوما عن زوجة كوندور العمياء ، التى وعدها برد بصرها اليها ، فلما عجز عن ذلك .. تزوجها ، بدافع التكفير !.. لكنها بدلا من أن تعيش مقدرة لجميله ، نغصت عيشه وجحدت فضله ! .. غير أن الطبيب أيقظنى

من أفكارى بوضع يده على ذراعى فى رقة ، ثم قال لى : « عفوا ، لم أقصد أن أقسو عليك ، فان استسلامك لعواطفك أمر يحدث لكل انسان .. فلننتقل من هذه الأبحاث النفسية الى الحلول العملية ، وعلينا أن نعمل فى هذا السبيل متضامنين : وأول مهمة تواجهنا الآن هى أن ننتزع من أذهان القوم كل أمل فى علاج البروفيسور فيينو ، وكلما أسرعنا فى ذلك كان أفضل .. لا أنكر أنها ستكون صدمة قاسية عليهم ، لكننا لا نستطيع أن ندع وهما مثل هذا ينتعش وتتعمق جذوره فى نفوسهم .. وفى استطاعتك أن تترك لى مهمة معالجة الموضوع بكل ما فى وسعى من لباقة وحكمة .. أما بالنسبة لك ، فلعلك تقدر أن أسهل تخلص يبرىء ساحتى هو أن أوقع اللوم كله عليك — وبحق — فأذكر أنك قد أسأت الفهم ، أو غاليت فى التخيل !.. لكنى لن أفعل ذلك ، وانما أفضل أن آخذ المسئولية كلها على عاتقى .. وان كنت أصارحك بأنك لن تسلم تماما من التعرض لذكرك ، فأنت تعرف كيكسفالفا والحاحه الرهيب ، وما لم أتخذك بمثابة شاهد فى « القضية » فانى لن أفلح فى اقناعه بالحقيقة ، لأنه سيظل يحاورنى ويداورنى بطريقته المعهودة ، وبمثل هذا الجدل ، فيقول لى : « لكنك وعدت صديقك الملازم بكيت ؟ » .. أو يقول : « لكن صديقنا الملازم قال كذا ! » ، كيما يخدع نفسه بتصور أن هناك بقية من أمل ! .. والآن علينا أن نبادر بهدم القصر الذى شيده القوم فى الهواء ، بأسرع ما يمكن ، والا كانت الطامة الكبرى ! »

وأطرق الدكتور كوندور هنيهة ، كمن ينتظر موافقتى .. **لكنى لم أجرؤ على مواجهة نظرته ، فان ذكريات اليوم السابق جعلت تتسابق فى مخيلتى : تذكرت التغير الذى طرأ على اديث ، والسعادة التى أشرقت من محياها ، وضحكاتها ودعاباتها .. كيف أبدد كل ذلك بضربة قاصمة ؟!**

كيف أعيدها الى اليأس القاتل الذى لم يكد يمضى يوم واحد على نجاتها من قبضته ؟.. كلا ، لن أستطيع أن أساهم فى هذا الاثم ! .. ومن ثم قلت لمحدثى ، فى تخاذل : « أليس فى وسعنا أن .. أن ننتظر بعض الوقت قبل أن نفتح باب الحديث فى الموضوع مرة أخرى ؟.. ولو بضعة أيام ؟.. فانى لاحظت أمس أن الفتاة قد وطنت نفسها على تجربة ذلك العلاج الجديد ، وان هذا الأمل قد أمدها بالقوة النفسية التى كنت تتحدث عن احتياجها اليها .. بل لقد خيل الى أنها استطاعت السير بسهولة أكثر من ذى قبل .. فلو تركنا الأمر على هذه الصورة فى البداية ، لربما غنمت الفتاة بعض الفائدة ! »

فقال مقاطعا : « صه ! .. أنك تكاد تزج بنفسك فى صميم الطب .. ولو أن الفكرة التى تقترحها ليست خرقاء من أساسها — أعنى من وجهة النظر الطبية طبعا ! — بل لقد فكرت فيها أنا نفسى بالفعل ، على أثر تلاوتى لرسالة اديث .. فكرت فى أن نستغل هذا الايمان الوطيد بالشفاء ، الذى غرسته أنت دون قصد فى أعماق الفتاة ، فنرسلها مثلا الى مصحة طبيب من أصدقائى .. وهناك نوهمها بأننا نستخدم معها العلاج المستحدث ، وعندئذ لابد أن يحدث الأمل ، وتغيير الهواء والمناظر ، أثرا وقتيا قد يغرى الفتاة بأن تمطرنا حينا برسائل الشكر والامتنان !.. ولكنى — كطبيب — ينبغى أن أفكر فى النهاية لا فى البداية فحسب ، وأن أحسب حساب « رد الفعل » الذى لا بد أن يعقب مثل هذه الآمال العارمة ، المغالى فيها ! » .. فقلت له : « لكنك تبدو مقتنعا بأن ذلك سوف يحدث تحسينا جوهريا فى حالة الفتاة ؟! » .. فقال : « بلا شك .. فى البداية سوف يحدث تقدم ملحوظ ، سيما وأن النساء فى العادة يستجبن سريعا للمؤثرات العاطفية ، والأوهام .. ولكن فكر فيما عساه أن

يحدث بعد بضعة أشهر ، حين تستنفد القوى النفسية طاقتها ، وتفقد أثرها ، فتحس المريضة أنها بعد كل ذلك الانتظار ، والاجهاد ، والانفعال المتواصل ، والضغط على الأعصاب .. لم تكد تقترب خطوة من الشفاء ، الشفاء الصحيح الكامل الذى انتظرته كحقيقة آتية لا ريب فيها !.. تخيل الكارثة التى تحدثها خيبة الأمل هذه ، ولا سيما لفتاة مرهفة الاحساس !.. وكيف يمكن أن تعطى اديث ثقتها لى ، أو لأى طبيب آخر ، بل لأى انسان فى الوجود ، بعد أن تتبين أننا خدعناها على هذه الصورة المؤلمة ؟.. كلا يا عزيزى ، **ان الحقيقة ـ مهما تكن قاسية ـ لأرحم من ذلك المصير ! وفى الطب ، كثيرا ما يكون استخدام السكين أكثر الوسائل رأفة بالمريض !.. كلا ، لن أستطيع تحمل مسئولية هذه الخطة بضمير خالص .. وتستطيع أن تدبر الأمر بنفسك .. فهل تواتيك الجرأة على سلوك هذا السبيل لو كنت مكانى ؟ »**

فأجبته دون تردد : « نعم » . لكنى تبينت فى اللحظة التالية مبلغ تهورى فى هذا الجواب ، فأردفت حذرا : « أعنى لو أنى كنت مكانك لأرجأت المصارحة بالحقيقة حتى تتحسن حالة الفتاة بعض الشىء .. اغفر لى يا سيدى الطبيب ، قد يبدو ذلك فى نظرك جرأة أو غطرسة ووقاحة منى ، ولكن لو أتيح لك أن تلمس ـ كما لمست أنا خلال الأسابيع الأخيرة ـ مدى حاجة مثل هؤلاء المرضى الى عون وسند يقوى من عزائمهم ونفسياتهم ، لوافقتنى على رأيى .. نعم ، ينبغى أن تعرف الفتاة الحقيقة ، ولكن ليس الآن .. بل عندما تصبح قادرة على تحملها !.. أتوسل اليك يا سيدى الطبيب .. ليس الآن .. ليس الآن ! » .. فقال الدكتور كوندور : « ومتى اذن ؟.. ثم من الذى يتولى هذه المهمة ؟ انها لا بد أن تعرف الحقيقة يوما ، وأخشى أن تكون خيبة أملها حين تعرفها فيما

بعد أقسى وأخطر مائة مرة منها لو عرفتها الآن .. فهل تود حقا أن تأخذ على عاتقك مثل هذه المسئولية ؟ »

فقلت : « نعم ! » .. قلتها فى لهجة حازمة ، متأثرا باشفاقى من الحرج الذى أواجهه لو وافقت الطبيب على رأيه فاضطررنا للذهاب من فورنا كى نصارح القوم بالموقف !.. ثم أردفت قائلا : « سآخذ هذه المسئولية على عاتقى الى النهاية ، فأنا واثق من الفائدة العظمى التى سوف تجنيها أديث لو تركناها فترة من الوقت تنعم بأملها القوى فى الشفاء.. واذا اقتضى الأمر فى النهاية أن أصارحها بأنى غاليت فى وعودى ، فأنا على أتم استعداد للاعتراف بنصيبى الكامل من مسئولية هذه المغالاة .. وأنا على ثقة من أنها سوف تفهم عذرى وتقدر موقفى ..!

فقال متعجبا : «**لكنك تحمل نفسك مسئولية فادحة ، والغريب فى الأمر حقا أنك تصيب الناس بعدوى ثقتك العمياء هذه ، الشبيهة فى قوتها بالايمان الدينى !.. فلقد أصبت بها فى أول الأمر آل كيكسفالفا ، وها أنت ذا الآن تصيبنى بها أنا الآخر تدريجا !..** حسنا ، اذا كنت مستعدا حقا للاضطلاع بعبء هذه المسئولية الخطيرة ، فأنت وشأنك . وفى هذه الحالة قد نستطيع المغامرة بامهال الفتاة أياما أخرى حتى تهدأ سورة انفعالها ، ولكن دعنى أذكرك يا سيدى الملازم بأنك لو فعلت ذلك الآن فلن يكون من حقك ــ بل لن تستطيع ــ التراجع !.. ومن ثم أستحلفك أن تتدبر الأمر فى روية ، فان من أعسر الأشياء أن تسترد ثقة انسان بعد أن يكتشف أنك خدعته !.. والآن ، قبل أن أعدل عن مصارحة القوم توا بالحقيقة ، هل تعاهدنى وتعدنى بأنك لن تخذلنى فيما بعد ، وبأننى أستطيع الاعتماد عليك ؟ »

.. فلما عاهدته على ذلك ، بدا عليه الارتياح وقال : « حسنا ، فلنؤمل خيرا ، وان كنت شديد القلق من جراء هذا

التأجيل . والآن سأذكر لك الى أى حد سوف أتمشى معك . انى سأنصح للفتاة بالذهاب الى مصحة (انجادين) التى يديرها صديق لى ، لكننى سأصارحها بأن علاج البروفيسور فيينو لم تثبت فائدته المحتمة بعد ، وأن عليها ألا تنتظر معجزة من ورائه .. فان شاء القوم بعد ذلك أن يتعلقوا بالآمال الكاذبة ـ اعتمادا على وعودك ! ـ فعليك أنت أن تواجه الموقف .. والآن ينبغى أن أسرع اليهم قبل أن يزعجهم ابطائى ! »

وخرجنا من الحانة الى حيث كانت العربة تنتظره أمام الباب . وحين اتخذ مقعده ، وتأهبت العربة للمسير ، تحركت شفتاى .. هممت بأن أناديه ، كى يعود ! .. لكن الجياد سبقت صوتى الى الانطلاق !

وبعد ثلاث ساعات ، وجدت فى غرفتى بالمعسكر رسالة كتبت على عجل بخط مضطرب ، وقد أحضرها سائق سيارة كيكسفالفا .. وكان فيها : « احضر غدا مبكرا بقدر ما تستطيع . عندى أنباء مهمة لك . لقد حضر الدكتور كوندور الليلة ، وسوف نسافر خلال عشرة أيام .. انى سعيدة غاية السعادة ـ اديث »

الفصل التاسع

حطام معركة !

● **ما الذى** أوقع فى يدى ذلك الكتاب بالذات ، فى تلك الليلة بالذات ؟.. كنت قد تبينت أننى متعب مجهد ، بحيث يغلب ألا أستطيع النوم سريعا ، ولا التفكير فى صفاء .. فرأيت أن أستعين على النعاس بواحد من تلك الكتب القليلة التى أقتنيها فى مناسبات متفرقة ، بدافع الشفقة على بائعيها الجائلين ، وأحملها معى كلما نقلت من معسكر الى معسكر

دون أن أقرأ منها شيئا .. ووقع اختيارى على كتاب **« ألف ليلة وليلة »** ، لأن قصصه الساذجة التى أحتفظ بذكرى مشوهة لها منذ صباى ، لها أثر منوم أكثر من سواها ... وهكذا تمددت فى فراشى وبدأت أقرأ فى تكاسل : قرأت أولا قصة **« شهر زاد »** والملك الذى عشقها .. ثم مضيت فى قراءة القصة بعد القصة ، حتى استرعت انتباهى قصة الشيخ الأعرج الذى كان راقدا فى عرض الطريق حين مر به شاب ، فناشده أن يحمله على كتفه لأنه كسيح لا يستطيع السير على قدميه . وأخذت الشفقة ذلك الشاب فحمله على كتفه ومضى به ، وسرعان ما تبين له أن ذلك المقعد المسكين ليس سوى جنى شرير لا يكاد يستقر فوق كتف حامله حتى يعقد فخذيه العاريتين حول رقبته فيسلبه أرادته ، ويجعل منه عبدا خاضعا له يحمله الى كل مكان يقصده ، ولا يكون له حق فى ساعة واحدة يستريح فيها ، مهما تخذله ساقاه أو يجف حلقه من الظمأ !.. وهكذا يغدو الأحمق ضحية تعسة لشفقته ، ويفرض عليه قدره أن يحمل سيده الماكر الشرير على ظهره .. الى الأبد !

وتوقفت عن القراءة ، اذ شعرت بأن قلبى يخفق بشدة كأنما يوشك أن يقفز من صدرى .. **وتراءت لى صورة الساحر الشرير وقد اتخذ هيئة « هر فون كيكسفالفا » ، بشعره الأشيب ووجهه النحيل ، ونظارته ذات الاطار المذهب !.. وخلت نفسى ذلك الشاب الأحمق الذى استجاب لداعى الشفقة فحمل الجنى على كتفيه ، بل لقد أحسست ضغط فخذى « الجنى » فوق رقبتى ، الى حد ضاقت معه أنفاسى .. فسقط الكتاب من يدى ، وصارت أطرافى فى برودة الثلج ، وشعرت بقلبى يدق بين ضلوعى كأنه يدق داخل صندوق من الخشب الصلب !..** وحين غلبنى النعاس آخر الأمر ، زارنى الشبح فى منامى وظل يستحثنى على المسير ..

فلما صحوت فى الصباح ، وقد بلل العرق شعرى ، كنت مضنى من التعب والاجهاد وكأنى سرت عشرات الأميال !

وعبثا حاولت أن أستعين بعملى ورفقة زملائى على نسيان تلك القصة اللعينة ! وحين أخذت طريقى بعد الظهر الى قصر كيكسفالفا ، كان ذلك الحمل المرذول ما يزال يثقل كاهلى ، فانى فى أعماق ضميرى المبلبل كنت أدرك جيدا انى منذ ذلك اليوم قد اضطلعت بمسئولية ذات طابع مبتكر ، لكنه جد مرهق ، كما أدركت أن واجبى صار يقتضينى أن أؤدى فى كل مناسبة — فى اصرار والحاح — دورا تمثيليا معقدا ، وأضع على وجهى قناعا زائفا صفيقا .. وأكذب فى كل حين ، فى هدوء المجرم المحنك الذى يفكر فى كل تفصيلات جريمته ، ووقائعها ، ويحضر دفاعه عن كل حركة أو سكنة من تصرفاته ، قبل أن يسأل ويستجوب بأسابيع ، وشهور!..

ولأول مرة فى حياتى بدأت أتبين أن الضعف — لا الشر ، ولا الوحشية — هو المسئول عن أسوأ الكوارث التى تقع فى هذه الدنيا !

.. وفى القصر جرى كل شىء كما توقعت ، أو خشيت ، تماما . لم أكد أظهر فى شرفة البرج حتى استقبلت فى حفاوة وترحيب ، وكنت قد حملت معى باقة من الورد كى أشغل بها انتباه القوم عنى ، فابتدرتنى اديث متسائلة : « ما الذى دفعك الى أن تحضر لى وردا .. انى لست ممثلة أولى فى مسرح ؟ »

.. ثم انتقلت على الفور الى سرد ما عندها من أنباء : فذكرت كيف أمدها كوندور — ذلك الطبيب المدهش العجيب — بشجاعة جديدة على تحمل آلامها ، وكيف يعتزم ادخالها مصحة فى جهة (انجادين) بعد عشرة أيام .. ثم أخذت تبدى عجبها لاضاعة يوم واحد بعد أن اهتدوا الى العلاج الشافى ! كما ذكرت أنها حاولت الانتحار مرتين من قبل ، كى تضع حدا لحياتها العقيمة ، لكنها فشلت فى المرتين ! .. وكيف أنها

لا ترى معنى أو فائدة من التحسن البسيط المؤقت الذى كانت تجنيه من أساليب العلاج السابقة ، لأن المريض اما أن يشفى ، واما لا يكون ثمة رجاء فى أدنى تحسن على الاطلاق !.. ومضت فى ثرثرتها النشوانة على هذا النحو ، حتى خيل الى أنى طبيب أصغى الى هذيان متهوس محموم !.. **وكلما سمعتها تضحك ، لمناسبة ما ، كنت أرتجف فرقا ، فقد كنت أعرف ما لا تعرف هى ! أعرف أنها تخدع نفسها ، ونحن نخدعها ! .. وحين سكتت فى النهاية ، انتابنى شعور المسافر الذى يفيق من نومه عندما تتوقف عجلات القطار فجأة عن الضجيج !** .. لكنى أفقت لأسمعها تخاطبنى : « ماذا ؟ أليس عندك ما تقوله ؟ .. ما بالك جامدا هكذا فى مكانك ، وعلى وجهك هذه النظرة الغبية ؟ .. عفوا ! . أعنى نظرتك الشاردة ؟ .. لم لا تقول شيئا ؟ .. ألست تشاركنى سعادتى ؟ »

فأجبتها وأنا أنتهز الفرصة كى أرضيها بعبارة ودية حارة تزيل كل أثر لجمودى : « كيف تتصورين شيئا كهذا ؟.. كل ما فى الأمر أنى فوجئت على حين غرة ، وأنت تقدرين ذلك بالطبع . والواقع أنى مسرور لهذه الأنباء ! » .. وأحنقنى أن أسمع الصدى المتكلف البارد لكلماتى !.. ولا بد أنها لحظت تحرجى ، فقد تغير مسلكها على الفور ، فاختفى انشراحها تحت سحابة من الكآبة المفاجئة ، كمن أوقظت فجأة — فى عنف — من حلم بهيج .. وقالت عاتبة : « لست أرى أنك أظهرت سرورا كثيرا ! » .. وأدركت الاهانة التى ينطوى عليها قولها ، فحاولت استرضاءها بقولى : « يا طفلتى العزيزة .. » ، لكنها انفجرت تقاطعنى فى حدة : « فلتكف عن مخاطبتى بهذا الوصف .. أنت تعلم أنى لا أطيقه ، فانك لا تكبرنى كثيرا !.. ولعله يحق لى أن أدهش لعدم اهتمامك بالأنباء التى أطلعتك عليها ، **بينما كان ينبغى أن تسر بالعطلة الطويلة التى سوف تحظى بها ، فان هذا البيت سوف يغلق**

لبضعة شهور ، وهكذا يغدو فى وسعك أن تعود فتجلس مع أصدقائك فى المقهى وتشاركهم اللعب .. وبذلك تعتق من جلساتك المملة معنا كل ليلة !.. نعم ، أستطيع أن أفهم جيدا أكثر من سبب لسرورك ، فأمامك أيام ممتعة تتطلع اليها ! »
.. وكانت لهجتها لاذعة ، بحيث رأيت أن أتقى اغضابها بتكلف المزاح فى جوابى ، فقلت : « أيام ممتعة ؟ !.. هذا ما يدور عادة فى أذهان المدنيين ، أما نحن العسكريين - ضباط سلاح الفرسان - فنعد شهور : يوليو ، وأغسطس ، وسبتمبر ، أكثر شهور السنة ارهاقا لنا فى العمل ، بسبب المناورات السنوية التى لا تنتهى الا فى آخر سبتمبر ! » .. فأخذت هى تكرر « آخر سبتمبر » مثنى وثلاثا ورباعا ، ثم تساءلت كأنما تخاطب نفسها ، وقد بدا عليها الاستغراق فجأة فى التفكير : « متى اذن .. تحضر الينا ؟ »

ولم أفهم قصدها ، فسألتها فى بساطة : « أين أحضر اليكم ؟ » .. وعندئذ عقدت ما بين حاجبيها وقالت : « أما تكف عن هذه الأسئلة السخيفة ؟.. تحضر كى ترانا ، كى ترانى أنا ! » .. فقلت : « تعنين فى (أنجادين) ؟ » .. فقالت : « نعم » . وعندئذ فقط أدركت قصدها ، فضحكت سخرية من نفسى ! كانت الفتاة الساذجة تجهل أنها تخاطب رجلا تعتبر الرحلة القريبة الى ڤيينا ترفا لا تتحمله ميزانيته ، برغم التخفيض الذى يمنح للضابط ، بنسبة خمسين فى المائة !.. فضلا عن أنها تطلب اليه أن يقضى أجازته كلها فى جهة نائية ، باهظة النفقات مثل (انجادين) ؟

كانت الفكرة أبعد احتمالا من أن يفكر فيها مثلى ! ومن ثم اجبتها ضاحكا : « يا لطرافة فكرتكم عن الحياة العسكرية ، أنتم معشر المدنيين !.. أنكم تتصورونها تجوالا بين المقاهى ، ونوادى البلياردو ، ونزهات فى الطرقات ، بحيث اذا ما شعر

المرء بالملل من عمله فما عليه الا أن يرفع أصابعه الى قبعته ويقول لرئيسه : « الى اللقاء يا كولونيل ، فلست أحس ميلا الى العمل ، وسوف أعود حين أجد فى نفسى هذا الميل ! » .. ألا تعلمون أن أحدنا اذا أراد التغيب ساعة واحدة كان عليه أن يقف أمام رئيسه متصلب القامة وقتا طويلا ، كى يمن عليه بهذا الفضل ؟.. أما اذا أراد أجازة ليوم كامل ، فلا بد فى هذه الحالة من أن تموت له عمة ، أو تقام جنازة لفرد ما من أفراد عائلته !.. وبودى لو أرى ما يلوح على وجه رئيسى لو وقفت أمامه ذات يوم لأخبره بأنى مشوق الى السفر فى أجازة الى سويسرا !.. أحسب أنه لا بد منهال على يومئذ بوابل من الألفاظ والنعوت التى لا توجد فى أى قاموس يصلح لأن يقرأه الجنس اللطيف !.. كلا يا آنستى العزيزة ، انك تغالين فى تبسيط الأمور ! »

.. غير أن اديث لم يبد عليها أنها اقتنعت بحججى هذه ، فقد أجابتنى بقولها : « هذا الذى تقوله هراء !.. ان كل شيء يغدو ممكنا اذا وضعت تنفيذه نصب عينيك ! فلا تصور لنفسك أنك شخص لا يمكن للفرقة الاستغناء عنه !.. ولهذه المناسبة ، يستطيع أبى أن يدبر الأمر مع رؤسائك المختصين فى وزارة الحرب فى خلال نصف ساعة .. والواقع أنك سوف تستمتع برؤية العالم الخارجى ، وتستريح من عملك الممل المألوف فترة من الزمن .. والآن كفى أعذارا ، وعدنى بأنك ستحضر ! » .. وغاظنى أن تتكلم اديث بهذه اللهجة ، مؤكدة استطاعة أبيها أن يملى أوامره على رجال وزارة الحرب ، كأنهم خدم عنده ، فى حين ننظر نحن اليهم كأنهم أنصاف آلهة !.. لكنى آثرت الاحتفاظ بلهجتى المازحة ، فقلت : « حسن جدا أن أمنح الأجازة بهذه السهولة — وعلى طبق من الفضة ! — كما تتخيلين ، ولكن أباك سوف يضطر أيضا الى أن يحصل لى على استمارة سفر أيضا ، علاوة على الأجازة ! »

.. وحين بدا على الفتاة أنها لم تفهم قصدى ، رأيت أن أكون صريحا معها ، فقلت جادا : « هل فكرت حقا يا آنسة اديث فيما عسى أن تكلفنى اياه رحلة كهذه ؟ » .. وعندئذ هتفت من فورها : « أوه ، اذن فهذا ما تعنيه ؟ .. ان الأمر لن يكلفك أكثر من بضع مئات من الريالات ! »

وهنا لم أستطع قمع غيظى ، فقد كان موضوع النقود « عاهتى » المستعصية ، أو « وترى الحساس » الذى لا أتحمل لمسه الا برفق .. كنت فى صدده أحس شعورا بالنقص يعادل شعورها هى بالنقص بسبب شللها ! ومن هنا أجبت ، فى شىء من الحدة : « بضع مئات من الريالات فقط ؟ .. انها مسألة تافهة ، أليس كذلك ؟ .. ولعلك ترين من غير اللائق أن أفكر فيها أو أتحدث فى شأنها ! .. ولكن هل فكرت فى مستوى المعيشة الذى تسمح به لنا مرتباتنا نحن الضباط ؟ »

وبدا لى أن الفتاة ترمقنى بتلك النظرة نفسها التى حسبتها نظرة احتقار ، فتملكنى ميل جارف الى أن أكاشفها بفقرى وحقيقة حالتى المالية .. تماما مثلما وجدت هى — من قبل — لذة فى التشفى فينا وتحدى مشاعرنا نحن الأصحاء ، بعرض عاهتها المؤلمة علينا فى أبشع صورها والسير وسط الحجرة بعكازيها دون معاونة أحد ! .. وهكذا وجدتنى أستطرد قائلا : « هل فكرت يوما فى معرفة المرتب الذى يدفع لملازم مثلى ؟ فلأصارحك أنا به : انه مائتا ريال ، مفروض أن تكفى صاحبها ثلاثين يوما ، فيدفع منها أجر الطعام واللباس ومقابل أجر السكن ، ثم يشترى منها الكماليات التى تناسب رتبته العسكرية .. هذا اذا لم يصب جواده بسوء يقتضى علاجا ! .. فاذا بقى له شىء بعد ذلك فقد يستطيع أن يجلس فى المقهى بين حين وحين ، وأقصى ما يمكن أن يطلبه فى هذه الحالة : قدح متواضع من القهوة ! »

.. على أننى لم أكد أتفوه بهذه العبارات ، حتى شعرت لتوى بأننى ارتكبت حماقة اذ أطلقت العنان لمرارة نفسى كى تنفجر وتفيض على هذه الصورة ، فى مواجهة طفلة غريرة لم تسمح لها ظروفها بأن تقدر يوما أية قيمة للمال !.. **وما كدت أرفع عينى اليها حتى أدركت مبلغ اثمى وقسوتى ، فقد صعد الدم فجأة الى وجنتيها ، فحجبت وجهها بكفيها ، وقالت فى استحياء : « ومع ذلك فأنت تذهب وتشترى لى كل هذه الزهور الغالية ؟ ! » .. وتلت ذلك لحظات عصيبة ، خيل لى أنها لن تنقضى ! شعرت أنا بالخجل أمامها ، وشعرت هى بالخجل أمامى !.. كان كلانا قد جرح احساس الآخر ، وخشى أن ينطق بكلمة أخرى !** وبعد حين استطاعت الفتاة أن تقول : « يا لى من غبية حمقاء ؟ كيف جاريتك فى كل هذا الهراء ؟.. انك اذا حضرت لزيارتنا فستكون ضيفنا . وهل تحسب أن أبى سيسمح لك بأن تتكلف نفقات الرحلة ، علاوة على مشقة السفر للسؤال عنا ؟.. أى هراء هذا ؟ !.. والآن كفى حديثا فى هذا الموضوع وحذار أن تنطق فيه بكلمة أخرى ! » .. ولكنى قلت لها : « بل هناك كلمة أخرى لا بد أن تقال ، تجنبا لأى سوء تفاهم بيننا : فلتعلمى بأنى لن أسمح لأحد بأن يحصل لى على رعاية أو امتياز خاص لا يتاح لزملائى . أنا أعلم أن نيتك حسنة وكذلك نية أبيك ، لكن هناك أناسا لا يقبلون كل خيرات هذه الدنيا .. فلا تدعينا نتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى ! »

فنظرت الى مليا وقالت : « اذن ، أنت لا تريد أن تحضر لزيارتنا ؟ » .. فقلت على الفور : « أنا لم أقل ذلك ، لكنى شرحت لك لماذا لن أستطيع الذهاب ! » .. فقالت : « حتى لو الح عليك أبى ، راجيا قبول دعوته ؟ » .. فقلت دون تردد : « نعم .. لن أستطيع ذلك حتى فى هذه الحالة ! » .. فسكتت هنيهة ثم قالت : « واذا سألتك أنا أن تحضر ..

باعتبارك صديقا عزيزا ؟ » .. فقلت لها : « أرجو الا تفعلى ، فالمسألة فى حكم المفروغ منها ! »

ولاذت الفتاة بالصمت ، لكنى لمحت فى اختلاج شفتيها بوادر العاصفة !.. ان الطفلة المدللة لم تألف من قبل أن يتصدى لها انسان برفض طلب لها !.. وما هى الا لحظة حتى مدت بصرها فاختطفت باقة أزهارى من فوق المنضدة وقذفت بها بعيدا فى حنق ، ثم قالت وهى تصر على أسنانها منفعلة : « حسنا !.. على الأقل قد عرفت الآن مدى صداقتك . انه اختبار لها ، جاء فى أوانه !.. فلأنك تخشى ألسنة زملائك ، تدمر متعة صديقة لك .. فليكن !.. لن أفاتحك فى الأمر مرة أخرى .. أنت لا تريد الحضور .. كما تشاء اذن ! » .. ولبثت تكرر العبارة الأخيرة وهى تضغط بأصابعها المتقلصة على ذراعى المقعد فى عصبية شديدة .. ثم استطردت قائلة : « حسنا ! ان المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، ورجاؤنا الذليل قد رفض !.. انك ترفض أن تحضر لترانا ، حسنا ! سوف نتحمل ذلك ، وقد عشنا على ما يرام قبل أن نعرفك .. لكن هناك سؤالا واحدا أريد أن تجيبنى عليه بصراحة ، فهل تعدنى بشرفك أن تفعل ؟ »

فقلت : « نعم ، أعدك بشرفى ! »

فقالت : « حسنا ! لا تخش أن ألح على « سموك » فى شأن السفر !.. انما أريد أن أعرف : ما دمت لا تريد الحضور لزيارتنا هناك ـ لأى سبب من الأسباب ـ فما الذى يدفعك الى أن تزورنا على الاطلاق .. أعنى : هنا ؟ ! »

وقد كنت مستعدا لأى سؤال منها ، عدا هذا السؤال .. فجعلت أردده كالذاهل !.. ثم قلت لها أخيرا : « هذا أمر بسيط ، بسيط يا سيدتى ، وما كان ليحوجك الى أن تستحلفينى بشرفى ! » .. ثم لذت بالسكوت ، لكنها هى لم

تسكت ، وانما مضت تقول : « اذن .. أجب على السؤال فى الحال ! »

ولم يكن ثمة سبيل أمامى لمواصلة السكوت أو تسويف الجواب ، على أنى حرصت على أن ألتزم الحذر واللباقة ما استطعت ، ومن ثم قلت لها : « يا عزيزتى .. لا تبحثى عن دوافع خفية وراء ذلك ، ولعلك تعلمين أنى لست بالشخص الذى يفكر كثيرا فى دوافعه الخاصة ، فلم يحدث أن سألت نفسى يوما : « لماذا أزور هذا الشخص أو ذاك ، ولماذا أحب هؤلاء الناس ولا أحب آخرين غيرهم .. ولست أستطيع أن أعطيك سببا لمجيئى الى هنا يوما بعد يوم سوى هذا السبب البسيط وهو أنى أفعل ذلك لأنه يروقنى ، ولأنى أحس هنا أنى أسعد مائة مرة منى فى أى مكان آخر ، اذ لا أكاد أسترسل فى الحديث معكم حتى .. »

ووقفت عند هذا الحد ، ولكنها راحت تستحثنى على اتمام عبارتى ، قائلة فى اهتمام : « حتى ماذا ؟ .. تكلم ! » .

فقلت : « .. **حتى أقول لنفسى — واغفرى لى صراحتى — انكم ترحبون بوجودى بينكم ، وان مكانى هنا .. فانى أشعر هنا — أكثر من شعورى فى أى مكان آخر — كأنى فى بيتى .. وكلما نظرت اليك أشعر بأنى .. بأنى ازاء شخص لست فى نظره « كمية مجهولة » مثلما أنا فى نظر زملائى فى الفرقة !**

.. وأحيانا أتساءل متعجبا : كيف لم تضايقك زياراتى بعد .. بل كثيرا ما ينتابنى الخوف من أن تكونى قد مللت عشرتى ، لكنى لا ألبث أن أذكر نفسى بأنك وحيدة فى هذا البيت الكبير الفارغ ، وأنه قد يمتعك أن تجدى شخصا يأتى لزيارتك ، وهذا ما يمدنى دائما بالشجاعة .. فكلما رأيتك فى هذه الشرفة أو فى غرفتك ، أقول لنفسى : انى أحسنت صنعا بالمجىء ، بدلا من تركك تقضين اليوم كله وحدك .. ألست تفهمين هذا الشعور ؟ ! »

كان رد الفعل الذى أحدثه كلامى فى نفسها غير ماتوقعت ، فقد جمدت عيناها الغبراوان ، وكأن كلماتى قد حولت انسانيها الى كرتين من الزجاج أو الحجر الأصم .. وبدأت أصابعها تروح وتجىء على ذراعى المقعد ، وتنقر على خشبهما اللامع نقرات عصبية سريعة .. ثم خرجت عن صمتها أخيرا فقالت على حين غرة : « انى أفهم شعورك هذا جيدا ، وأعتقد أنك الآن قد ذكرت الحقيقة ، وعبرت عن احساسك فى عبارات مهذبة ، وان كانت معذبة لى فى الوقت نفسه !.. لكننى فهمتك تماما ، **فأنت تحضر لأنى وحيدة .. أو بعبارة أخرى لأنى مقيدة الى هذا الكرسى . هذا هو السبب الوحيد لمجيئك الى هنا كل يوم : أن تمثل دور « فاعل الخير » الذى يرأف بحال فتاة كسيحة مسكينة ـ كما تطلقون على ولاشك ، وراء ظهرى! ـ فأنت انما تحضر بدافع الشفقة وحدها** .. نعم ، انى أصدقك ، وما الداعى الى الانكار الآن ؟ انك أحد أولئك « الناس الطيبين » كما يسميهم أبى ، الذين يذوبون شفقة على كل مصاب !.. فشكرا لك على أى حال ، لكننى فى غنى عن صداقتك التى تظهرها نحوى لا لشىء سوى أنى كسيحة .. لقد ارتبت فى الأمر منذ زمن ، لكننى لم أستوثق منه غير الآن ، حين اعترفت به دون أن تشعر بأسلوبك اللبق الملتوى .. ولعلك تغبط نفسك وتنتظر أن يحمد الناس لك هذا الانكار النبيل للذات ، ولكن يؤسفنى أن أصارحك بأنى أرفض أن أسمح لأحد بتضحية نفسه من أجلى !.. أرفض أن أتحمل ذلك من أى انسان ، فكم بالأحرى منك ؟ !. بل أنا أمنعك من أن تفعل ذلك ، أتسمعنى ؟.. انى أمنعك !.. انى فى غنى عن نظراتك المفعمة بالعطف ، وحديثك اللبق المنمق ، وفى وسعى أن أعيش من غيرهما كما كنت أعيش .. ويوم أعجز عن تحمل عيشتى هذه فأنا أعرف كيف أتخلص منكم جميعا .. انظر ! ـ ومدت الى فجأة راحة يدها ـ أنظر الى هذه الندبة ! لقد

حاولت مرة ، لكنى فشلت ! .. كان المقص الذى استخدمته تنقصه الحدة ، فلحقوا بى وأسعفونى قبل أن أحقق غايتى ، ولكن ثق بأنى فى المرة القادمة سوف أتقن فعلتى !.. فانى أفضل الموت على حياة أكون فيها موضع شفقة من أحد !.. هناك مثلا .. أترى سور هـذه الشرفة ؟ (وانفجرت فجأة ضاحكة ضحكة حادة كالمنشار) .. لقد جعله أبى منخفضا كيلا يحرمنى من رؤية المناظر الجميلة المحيطة بى ، ولم يخطر ببـاله ، أو ببال الطبيب ، أو المهنـدس ، أننى قد أستطيع استخدامه يوما ما لغرض آخر .. تأمل جيـدا ! » .. وتحاملت بغتة على نفسها فرفعت جسمها واندفعت بثقله كله نحو السور فأمسكت بحافته بيديها كلتيهما ، ثم أردفت : « نحن هنا فى الطابق الخامس ، وتحتنا فى القـاع ساحة من الخرسانة المسلحة فيها أكثر من الكفاية .. وبى والحمد لله بقية من عافية تعيننى على تخطى هذا السور .. نعم ، فان التوكؤ على العكازين يقوى العضلات !.. **وهكذا لن أحتاج الى أكثر من حركة واحدة ، أتحرر بعدها الى الأبد ، منك ومن شفقتك اللعينة ! وأريحكم جميعا من عبئى ، أنت وأبى وايلونا .. انظر ، لن يكون على غير أن أتكىء على السور ، وأنحنى قليلا هكذا ! »**

وهنا لمحت فى عينيها الغبراوين بريقا خطرا ، فقفزت من مقعدى منزعجا وأمسكتها من ذراعها ، لكنها انتفضت مجفلة ـ كأن نارا قد لسعتها ! ـ وصاحت بى : « اليك عنى !.. كيف تجرؤ على أن تلمسنى ؟ اذهب بعيدا .. ان من حقى أن أفعل ما أشاء !.. دعنى .. دعنى واغرب فورا عن وجهى ! »

واذ أبيت أن أطيعها ورحت أجذبها بعيدا عن السور ، بالقوة ، استدارت بالجزء العلوى من جذعها ولكمتنى بقوة فى صـدرى ، بقبضتها .. لكن الحركة أفقـدتها توازنها ، فخارت ركبتاها وانهارت بثقل جسمها كله على الأرض ، قبل

أن يستطيع ذراعاى أن يتلقياها ! .. وأثناء سقوطها جذبت معها منضدة الشاى التى حاولت التشبث بها ، فسقطت معها بجميع ما عليها من أدوات وأطباق ، تحطم أكثرها محدثا دويا ورنينا عاليين .. وتدحرج الجرس البرونزى الكبير على أرض الشرفة حتى آخرها ، فضاعف من صوت الضجيج .. **بينما رقدت اديث على الأرض مثل كومة تعسة لا حول لها ولا طول ، وهى تشهق باكيــــة فى حرقة ، من فرط الحنق والخجل !.. وكلما حاولت رفعها ضربتنى صائحة : « اغرب عن وجهى .. اذهب بعيدا .. أيها الوحش ! » .. ثم راحت تبذل كل جهدها كى تنهض بغير معاونتى ، وهى تكرر صياحها فى كل مرة أحاول فيها الاقتراب منها !**

وكان الضجيج قد بلغ مسمع « جوزيف » ، فاستقل المصعد الى حيث كنا .. ولم يكد يرى المنظر حتى غض من بصره فى تأدب وخف الى سيدته المنتفضة المنتحبة يقيل عثرتها فى رفق ــ دون أن ينظر الى ــ ثم يحملهـا عائدا الى المصعد الذى هبط بهما على الأثر .. وبقيت وحـدى فى الشرفة ، وحولى الأوانى المحطمة ، مبعثرة فى كل مكان .. كأنها حطام متخلف عن معركة !

الفصل العاشر

قبـلة ظامئـة !

لست أدرى كم بقيت واقفا فى ذلك الوضع ، حائرا فى فهم علة تلك الثورة المفاجئة ! .. أى قول أحمق نطقت به يستحق هذه الغضبة الشنعاء ؟!.. وفيما أنا أقلب الأمر على وجوهه سمعت « أزيز » المصعد عائدا الى السطح .. ولم يلبث أن برز منه جوزيف ، واقترب منى قائلا فى أدبه المعهود : « فليسمح لى سيدى الملازم أن أجفف سترته

المبتلة .. » .. وعندئذ فقط تنبهت الى بقعتين كبيرتين من سترتى وبنطلونى مبللتين بآثار الشاى الذى انسكب أثناء سقوط المائدة .. وبعد أن انهمك الرجل فترة من الوقت فى محاولة تنظيف ثيابى وتجفيفها بمنشفة ، قال يائسا : « لا فائدة .. لعله يحسن أن أرسل السائق بالسيارة الى المعسكر كى يحضر لسيدى الملازم سترة أخرى ريثما أنظف هذه وأكويها .. »

وكانت لهجته تنطق بالعطف البالغ ، فقلت له فى بساطة : « لا داعى لكل هذا لأنى ذاهب من فورى الى المعسكر » . وطلبت منه أن يرسل فى طلب عربة تقلنى الى هناك .. **وعندئذ رفع الى عينيه المتعبتين فى حركة توسل ، وهو يقول : « هلا بقى سيدى الملازم بعض الوقت ؟ . انى أعلم عن يقين أن سيدتى سوف تستاء جدا لو أنك انصرفت الآن !.. انها قد أوت الى مخدعها ومعها الآنسة ايلونا ، وقد طلبت منى الآنسة ايلونا أن أرجو سيدى الملازم أن يتفضل بانتظارها هنا ، فانها قادمة بعد لحظة ! »** .. وشعرت بتأثر عميق ، فربت بيدى فى رفق على كتف الخادم الوفى قائلا له : « دع هذه البقع حتى تجف فى الشمس ، وأجمع حطام الأوانى المبعثرة .. ولسوف انتظر الآنسة ايلونا حتى تحضر » ، فأطلق جوزيف تنهدة ارتياح وقال : « ما أجمل أن يبقى سيدى الملازم !.. ان سيدى هرفون كيكسفالفا لن يلبث قليلا حتى يعود ، ولسوف يسر حين يرى سيدى الملازم . لقد أرادنى أن .. »

وقبل أن يتم عبارته ، أقبلت ايلونا نحونا وهى تغض من بصرها ، وقالت لى : « كلفتنى اديث أن أسألك الذهاب اليها فى مخدعها لبضع دقائق فقط . وهى تؤكد أنك تؤدى لها بذلك صنيعا كبيرا ! »

وهبطنا السلم معا ، ثم سرنا صامتين خلال ممر طويل يؤدى الى مخدع اديث .. وحين بلغنا الباب همست فى أذنى على عجل : « كن لطيفا معها .. لست أعلم ما حدث فى الشرفة ، لكنى ألفت نوباتها هذه من قبل !.. وصدقنى انها أول من يندم عليها ويشقى بسببها ، من تأثير الخجل وتوبيخ الضمير .. ولعلنا نعذرها لو قدرنا كم تقاسى فى محنتها ! »

ولم أجب بشىء ، بينما طرقت ايلونا الباب ، واذ ذاك سمعنا صوتا واهنا من الداخل يقول : « ادخل » .. وكانت الغرفة غارقة فى ضوء برتقالى خافت ، وفى نهايتها فراش رقدت فيه اديث ، وقد ابتدرتنى قائلة فى استحياء : « تعال واجلس هنا بجانبى .. لن أعوقك غير لحظات ! » . ولما جلست بجانبها ، أردفت قائلة وهى تغض بصرها خجلا : « أغفر لى أنى أستقبلك هنا ، فقد شعرت بهزال ودوار شديدين ، ربما لأنى مكثت طويلا فى الشمس .. **والواقع أنى لم أكن فى كامل وعيى .. ولكنك ستنسى كل ما حدث ، وستغفر لى خشونتى معك ، أليس كذلك ؟ »** .. وكان فى صوتها من التوسل ما جعلنى أبادر باجابتها فورا : « ما هذا الذى تقولين ؟.. أنا الذى استحق اللوم !.. ما كان ينبغى أن أدعك تطيلين البقاء فى الشمس ! »

ـ أتعنى أنك لست غاضبا ؟ وسوف تحضر ثانية ؟!

ـ نعم ، هذا ما أعنيه ، ولكن بشرط واحد !

فسألتنى فى لهفة : « ما هو ؟ » .. فقلت : « أن تثقى بى ، وتكفى عن توهم الاساءة المزعومة لى .. ان ما بين الأصدقاء لأقوى كثيرا من أن يؤثر فيه أمر تافه كهذا ! .. وليتك تعلمين مدى تغيرك حين تدعين نفسك على سجيتك فتضحكين وتمرحين ، كما فعلت يوم رحلتنا الأخيرة !.. لقد قضيت تلك الليلة بأكملها أفكر فى التغير الذى طرأ عليك ، ولن ... » .. **فقطعت كلامى قائلة : « حقا ؟.. هل قضيت**

ليلة كاملة تفكر فى أمرى ؟ » .. فقلت : « نعم ، ولن أنسى ذلك اليوم قط .. كان رائعا بهيجا ! » .. فقالت : « نعم ، هذا صحيح ، وقد كان يوما رائعا حقا !.. ولعله ينبغى لى أن أكثر من الخروج فى رحلات كهذه .. فان البقاء داخل جدران هذا « السجن » البغيض يرهق أعصابى .. آه لو ينتهى هذا السجن واسترد حريتى .. ؟! » .. فقلت : « سينتهى قريبا ، فتذرعى بالشجاعة والصبر فترة أخرى من الزمن ! »

وعندئذ رفعت جسمها قليلا فى الفراش وقالت : « أتعتقد مخلصا ، أعنى أتعتقد حقا ان هذا العلاج الجديد سوف يشفينى ؟.. لقد كنت واثقة من الأمر حين جاء أبى الى غرفتى فى منتصف الليل أول من أمس ليبشرنى !.. **لكن مخاوفى وشكوكى عاودتنى أمس من جديد ، فقد خيل الى أثناء فحص الدكتور كوندور اياى أنه يذر الرماد فى عينى ، وأن الأمر كله خدعة !.. بل لقد بدا لى كأنه يروغ من مواجهتى ، وتنقصه الثقة بنفسه !.. انه لم يكن صريحا صادقا كعادته ، ولست أدرى لماذا شعرت ـ فى موضع أو موضعين من حديثه ـ أن شيئا ما يخجله فى حضرتى !..** أنى أصارحك وحدك بهذا الشعور ، بصفة خاصة ، فلا تذكر له حرفا مما أقول .. فلعل الأمر كله محض شكوك مبعثها خيبة أملى المتكررة فيما طالما منونى به من شفاء قريب .. كلا !.. ما عدت أستطيع تحمل هذا الانتظار الرهيب ! »

وكانت ـ فى انفعالها ـ قد رفعت جسمها فى فراشها الى وضع يقرب من الجلوس ، وقد أخذت يداها ترتجفان ، فهتفت بها مناشدا : « كفى ، كفى !.. لا تعودى الى انفعالك .. واذكرى أنك وعدتنى ! » .. فقالت : « نعم ، هذا صحيح !.. ولا فائدة من تعذيب نفسى على هذه الصورة !.. والواقع أنى لم أكن أعتزم التحدث فى هذا

الأمر ، وانما أردت أن أشكرك لكونك لم تغضب منى بسبب ثوراتى الحمقاء ! .. ومن أجل لطفك معى الذى لا أستحقه .. وكلما فكرت فى أنى .. ولكن دعنا ننسى هذا كله ! » .. فقلت لها : « هذا أفضل بالفعل !.. والآن يجب أن تنالى قسطا وافرا من الراحة . »

ثم نهضت لأصافحها وأنصرف ، فوقع بصرها على سترتى المبللة بآثار الشاى .. وكأنما أدركت أن الفعلة فعلتها ، فغضت من بصرها فى خجل وندم . وتأثرت لمسلكها ، فقلت لها مازحا : « انه أمر تافه !.. طفلة شقية سكبت على الشاى ! »

فقالت : « وهل أعطيت الطفلة الشقية « علقة » طيبة ؟ »

ــ كلا !.. فانها أحسنت التصرف بعد ذلك !

ــ اذن .. لم تعد غاضبا منها ؟

ــ البتة !.. وليتك رأيت ظرفها وهى تسألنى الصفح ؟!

ــ وهل صفحت عنها ؟

ــ كل الصفح !.. ولكن عليها أن تبقى دائما طفلة مرحة ، طيبة ، مطيعة !.. فتصبر حين يقال لها « أصبرى » ، ولا تطيل الجلوس فى الشمس ، وتطيع تعليمات الطبيب بدقة .. كما أن عليها قبل كل شىء أن تنام فورا ، ولا تشغل ذهنها بشىء .. طابت ليلتك !

ومددت اليها يدى ، فبدت فى عينيها الضاحكتين اشراقة السعادة الغامرة وهى تصافحنى ، لكنى لم أكد أضع يدى على مقبض الباب حتى لاحقتنى ضحكتها المرحة ، الشبيهة بضحكة طفلة عابثة ، وقالت لى : **« أنسيت ما تحصل عليه الطفلة عادة قبل أن تنام ؟ »** .. فوقفت والتفت اليها مغمغما فى حيرة : « ما هو ؟ » .. فقالت : **« ان الطفلة حسنة السلوك تحصل عادة على « قبلة » قبل النوم ! »**

.. وكانت مفاجأة !.. لكنى برغم عدم ارتياحى لها ،

لم أشأ المخاطرة بتكدير صفو الفتاة وهى على أهبة النعاس ، فقلت فى بساطة وعدم مبالاة : « بلا شك ! كدت أنسى ذلك ! » .. وفيما أنا أخطو الى فراشـها ، أدركت من صمتها أنها تحبس أنفاسها ، وكانت عيناها مثبتتين على وأنا اقترب ، ورأسها جامد على الوسادة لا يتحرك .. فانحنيت فوقها على عجـل وطبعت على جبينها – فى رفق وخفـة – قبلة « طائرة » ، لم تكد شفتاى فيها تلمسان بشرتها ، بينما ملأ خياشيمى من بعيد عطر شعرها الخفيف ! .. **لكنى فوجئت بيديها تنطبقان على عنقى بكل قوتهما ، قبل أن أملك ابعاد رأسى ، ثم فوجئت مرة أخرى بشفتيها تطبقان على شفتى فى حرارة وشراهة ، حتى تلامست أسناننا .. بينما رفعت صدرها حتى التصق بصـدرى .. وكانت قبلة ضارية ، يائسة ، ظامئة ، لم أذق مثلها فى حياتى !**

وبقيت اديث متشبثة بعنقى وصـدرى ، حتى خانتهـا قوتها فخفت حدة عناقها لى ، وتحولت يداها فى نشوة محمومة عن عنقى الى شعرى ، وهى تحدق فى عينى كالمسحورة ، دون أن تخلى سبيلى ! .. وبعـد أن استراحت هنيهة ، جذبتنى اليها من جديد وأخذت تنثر قبلات حارة عمياء على وجنتى .. وجبينى .. وعينى .. وشفتى ، فى شبق وحشى ، شأن العاجز الذى يبغى التعويض عن عجزه ! وكانت وهى تجذب رأسى نحوها تغمغم ملهوفة : « يالك من غبى ! .. لكم أنت غبى كبير ! » ، بينما تزداد قبلاتها حرارة وعنفا وضراوة .. وأخيرا هزت جسدها رعشة مفاجئة ، فتراخت يداها وسقط رأسها الى الخلف على الوسادة .. لكن عينيها لبثتا ترقبانني ببريق الانتصـار !

وفى النهاية ارتدت عنى وأخلت سبيلى وهى تهمس لى ، فى اعيـاء وخجل : « والآن اذهب ، اذهب .. أيها الغبى الكبير .. اذهب ! »

● **وذهبت** .. وأنا أترنح كالثمل ! .. وقبل أن أبلغ نهاية الممر المعتم ، خذلتني البقية الباقية من قواى ، وأصابني دوار جعلني أستند الى الجدار ! **اذن .. كان هذا سرها .. سر قلقها ومسلكها المتناقض غير المفهوم ! وانتابني احساس من انحنى فى غير ارتياب فوق زهرة زكية الرائحة ، فلدغته من تحتها أفعى !** .. فلقد كنت متأهبا لكل شىء الا أن أرى هذه الكسيحة التعسة قديرة على أن تحب ، راغبة فى أن يحبها الرجال ! .. وكنت على استعداد لأن أصدق كل شىء الا أن هذه المخلوقة العاجزة التى لم تنضج بعد ، تملك الجرأة — بل النزق ! — على أن تحب وتشتهى ، بمثل تلك العاطفة المشبوبة العارمة ! ولهذا توقعت كل احتمال الا هذا الاحتمال ! .. لكنى حين قلبت الأمر على وجوهه أصبت بصدمة جديدة ، اذ تبينت أن زياراتى المتكررة للفتاة ، بدافع الشفقة وحدها ، هى المسئولة عن توهم المسكينة — القابعة فى سجنها المنعزل عن العالم الخارجى — أننى أكن لها عاطفة خاصة .. فى حين كنت — أنا الغبى الساذج — أنظر اليها نظرتى الى كسيحة معذبة ، أو بعبارة أخرى الى طفلة ، لا امرأة ! .. **وما خطر ببالى قط أن تحت غطائها وثيابها يتنفس ، ويشعر ، وينتظر ، جسد ظامىء مشتعل ، يشتهى ويتوق الى أن يشتهيه الرجال !** وقد يكون جمال جسم ايلونا قد استثارنى فى بعض الأحيان ، لكنى لم أفكر قط فى اديث باعتبارها أنثى كاملة الأنوثة مثلها .. حتى فطنت أخيرا الى الحقيقة التى أغفلها أكثر الكتاب الذين صوروا الحب فى قصصهم : **وهى أن المنبوذين ، والمشبوهين ، والأشقياء فى حياتهم عامة ، يشتهون ملذات الجسد بشراهة أعنف وأخطر مما يشتهيها السعداء ! .. وأنهم حين يحبون ، يكون حبهم عنيفا ، يائسا ، مهلكا ، ((أسود)) .. كأنما يشعرون بأن ليس هناك ما يبرر وجودهم الا أن يحبوا ، ويحبهم الناس !**

نعم ، وهكذا ترتفع من أعمق أعماق هاوية اليأس ، أشد

تأوهات الظامئين الى الحب ؟ .. ذلك هو السر الرهيب الذى حجبته عن ادراكى ـ فيما مضى ـ سذاجتى ونقص تجاربى ، ثم شعرت به أخيرا يخترق وعيى مثل سكين حادة ! .. وأدركت لم قفز لفظ « غبى » الى شفتى الفتاة فى غمرة ثورتها العاطفية ، وهى تضغط صدرى بصدرها ! لقد كانت محقة فى أن تطلق على هذا الوصف .. وهل أنا غير غبى ! ؟ .. أكبر الظن أن أهل الفتاة جميعا : أباها ، وايلونا ، وجوزيف ، وبقية الخدم ، قد لاحظوا تعلقها بى وراقبوا شغفها المكتوم فى كثير من القلق ، وأنا وحدى الذى أعمتنى شفقتى الحمقاء عن ادراك الحقيقة ، فمضيت فى تعذيب هذه الروح الرقيقة .. دون أن أدرى !

وكما تضىء ومضة النور الخاطفة عشرات الأشياء التى تقع عليها ، فى آن واحد ، أضاءت قبلات الفتاة المحمومة عشرات من الأمور الصغيرة ، كانت غامضة على طيلة الأسابيع السابقة : **أدركت فجأة علة استيائها كلما ناديتها بقولى : « يا طفلتى العزيزة » ، فقد كانت تتوق الى أن أعتبرها امرأة ، وأهفو اليها كمعشوقة ! .. كذلك فهمت سبب ثورتها كلما لمست منى تصرفا ينم عن الشفقة ، فقد أدركت المسكينة بغريزة المرأة أن الشفقة شعور أقرب الى الأخوة منه الى الحب الحقيقى !** .. وكم تاقت المسكينة ولا ريب الى أن تسمع منى كلمة أو اشارة رقيقة تنبىء عن استجابتى لعاطفتها ، أو احساسى بها على الأقل .. ولكن دون جدوى ! .. وكم ألهبها القلق واللهفة ، وأضناها الانتظار .. ولكن بدلا من أن أروى ظمأها الطويل ، أو أبتعد من طريقها فأدع لها فرصة النسيان ، بقيت أغذى عاطفتها ـ من حيث لا أشعر ـ وأضاعف من قلقها وعذابها ، بزياراتى اليومية المتكررة ! .. اذن لم يكن عجبا أن تنهار أخيرا أعصابها ، وتنفجر عواطفها الكظيمة على تلك الصورة التى فوجئت بها !

وتتابعت مئات الصور والخواطر والكلمـات ، متسابقة الى ذهنى فى غير انتظام ، وأنا أجر سـاقى عبر الممر الطويل المعتم المؤدى الى الردهة الكبرى ، حيث تركت سيفى وقبعتى .. وخطر ببالى أن ألوذ بالفرار قبل أن يتنبه أحد الى خروجى من مخدع الفتاة ، خشية أن ترى على وجهى آثار الاضطراب .. لكن ما خشـيته وقع ، فقـد خرجت الى ((ايلونا)) من الصالون ـ وكأنما كانت تنتظرنى هنـاك ! ـ ولم يكد بصرها يقع ، على حتى ابتدرتنى فى جزع :

ـ ماذا حدث ؟ .. هل أصيبت اديث بمكروه ؟

فأجبتها بما وسعنى من جهـد : ((كلا ! بل هى الآن على ما يرام ، ولعلها قد نامت)) ، ثم أردفت قائلا : ((لا تؤاخذينى ! .. يجب أن أنصرف دون أبطـاء !)) .. لكنهـا لاحظت على ولا ريب ما أزعجها ، فقد استوقفتنى فى حزم ودفعتنى الى أقرب مقعد مريح ، وهى تقول : ((أجلس قليلا حتى تسترد هدوءك .. وتصلح من هيئتك .. ألا ترى شعرك المشعث ؟ .. سأحضر لك كأسا من الكونياك !))

واتجهت الى البار فملأت لى منه كأسا ، جرعت ما فيها مرة واحدة ثم وضعتها جانبا بيد مرتعشة .. وبقينا هنيهة صامتين ، وايلونا تختلس النظر الى فى حـذر وقلق ، كما لو كنت مريضا ! ثم قالت أخيرا : ((هل ذكرت لك اديث شيئا .. أعنى شيئا يتصل بك ؟)) .. وأدركت من لهجتها أنها فهمت كل شىء ، فغمغمت : ((نعم !)) . وعادت تسألنى بعد تفكير : ((ألم تلحظ ذلك حقـا قبل الآن ؟)) .. فأندفعت أجيبهـا : ((وكيف كان يمكن أن تكون لدى أدنى فكرة عن شىء مثل هذا ؟ .. شىء جنونى ، لا يقبله العقل ؟ .. كيف أمكنها أن .. ؟ .. ولم أكون أنا .. دون الناس جميعا ؟))

وعندئذ تنهدت ايلونا وقالت : ((يا الهى ! .. لقد طالمـا ظنت المسكينة أنك تأتى خصيصا من أجلها .. وكنت أنا أرجح

أنها على خطأ ، وأستنتج من تصرفاتك معنا ، فى بساطة وغير كلفة ، أنك لا تحس نحوها غير الشفقة . ولكنى ما كنت لأقوى على أن أقسو على طفلة مثلها فأحرمها من الوهم الجميل الذى يسعدها ، فى الوقت الذى خلت فيه حياتها من أسباب السعادة ! » .. وهنا وجدتنى أقول لها وقد بدأت أقدر خطورة الأمر : «ينبغى أن تبددى هذا الوهم قبل أن يستفحل ! .. انه جنون منها ، حمى ، نزوة صبيانية ! .. ولعله لا يعدو أن يكون شغفا بالسترة العسكرية .. ولو أنها صادفت غدا ضابطا آخر فسوف تتكرر القصة .. أوضحى لها ذلك .. وفى مثل سنها يمكن التغلب على هذه الأزمات فى وقت وجيز ! »

لكن ايلونا هزت رأسها فى اكتئاب وأسى قائلة : « كلا يا صديقى العزيز ! .. لا تخدع نفسك ! .. ان الأمر بالنسبة لاديث جد خطير ، وهو يزداد خطرا كل يوم .. ولو عرفت ما يجرى فى هذا البيت منذ حين لآمنت برأيى : انها توقظنا بجرسها مرات كل ليلة ، لكى تسألنا فى لهفة : « ألا تعتقدون أنه يحبنى ، ولو قليلا ؟ » .. ثم تطلب أن نأتى لها بالمرآة لترى وجهها ! .. لكنها لا تلبث أن تلقيها بعيدا ، وكأنها تنبهت فجأة الى مدى حماقتها .. ومع ذلك لا تنقضى ساعتان ، حتى تتكرر القصة !.. **وفى نوبات يأسها تستجوب أباها ، وجوزيف ، والخادمات .. وأمس أرسلت فى طلب تلك « العرافة » الدجالة التى قابلناها فى عرس القرية ، كى تستمع لأكاذيبها مرة بعد مرة .. بل لقد كتبت اليك خمسة خطابات ، ثم مزقتها قبل أن ترسلها ! .. وكم من مرة كلفتنى أن أذهب فأبحث عنك وأسألك : « هل تحبها ، والى أى مدى ؟ » .. ولم أكن أفرغ من ارتداء ثيابى ، ويعد السائق السيارة للخروج ، حتى أسمع جرسها اللحوح يدعونى مرة أخرى لتستحلفنى بكل عزيز ألا أذهب !** .. وفى كل ليلة ، لم تكن

أنت تنصرف حتى تعيد هى على مسمعى كل كلمة قلتها لها ، وكل اشارة بدرت منك ، وتسألنى رأيى فى مدلول هذه ، ومغزى تلك .. فاذا أيدت ظنونها الطيبة ، صرخت فى وجهى : « أنت كاذبة ! هذا غير صحيح ! انه لم يوجه الى اليوم أية عبارة رقيقة ! » .. ثم تتكرر أسئلتها واجاباتى ، وثوراتها ورضاها ، ويأسها وأملها .. كل ساعة من ساعات يقظتها فى النهار أو الليل ! .. ومنذ « أصيبت » بهذه الحالة بات « مرضها الجديد » شغل أبيها الشاغل ، وصار يصحبها كل ليلة الى مخدعها كى يجلس الى فراشها ساعات ، يهدئها ويلاطفها ، حتى يغلبها النعاس آخر الأمر .. وعندئذ يمضى الى غرفته ، كى يذرعها حائرا مفكرا أكثر الليل ! .. آه لو علمت كم يحبك التعس ؟ ! أنه يكاد يعبدك ! .. فهل تريد أن تقول أن هذا كله جرى دون أن تلحظ منه شيئا ؟ ! »

وهنا صحت قائلا فى نوبة يأسى البالغ : **« كلا ! .. انى لم أحس شيئا من ذلك مطلقا ! .. والا فهل تحسبيننى كنت أواصل زياراتى فى غير كلفة ، لو كانت فى ذهنى أدنى فكرة عن شيء كهذا يجرى فى البيت ؟ .. وكيف كان يمكن لمثلى أن يفكر فى « جنون » من هذا القبيل ؟ .. كلا ! .. وأقسم لك ! »**

.. وكدت أقفز من مقعدى حيرة واضطرابا ، لولا أن أمسكت ايلونا ذراعى قائلة : « أرجو أن تهدأ ، واخفض صوتك ، فان لاديث آذانا تخترق الجدران .. ثم عدنى بأن تكون رحيما بها .. لقد تفاءلت المسكينة بكونك أنت الذى جلبت نبأ العلاج الجديد .. وليتك رأيتها وأباها وهما يجهشان بالبكاء والشكر لله من أجل شفائها المرتقب ، ونهاية أيامها السوداء ! .. لقد كان أول ما فكرت فيه أنك ــ حين تشفى هى ــ لن تتردد فى .. انك تفهم قصدى ! .. لذلك ينبغى ألا تلقى بالتعسة فى هاوية اليأس ، فى هذا الظرف الذى هى محتاجة فيه الى كل قوتها النفسية كى تباشر العلاج الجديد ! »

.. لكنى صحت فى جنون اليائس ، وأنا أضرب ذراع المقعد بقوة : « **كلا .. كلا ! لا أستطيع ! .. لن أدعها تحبنى على هذه الصورة ، ولن أستطيع تجاهل الأمر والمضى فى مسلكى القديم .. هذا مستحيل ! .. انك لا تعرفين ما حدث فى غرفتها ، انها واقعة تحت تأثير خطأ شنيع فيمايتصل بى ! انى لم أشعر نحوها بغير الشفقة .. الشفقة وحدها ولا شىء غيرها ! »**

.. فتنهدت ايلونا ثم قالت : « هذا ما خشيته منذ البداية ! ولكن ، رباه ! .. ماذا عساه يحدث الآن ؟ .. كيف ننهى اليها الحقيقة ؟ »

وساد الصمت بيننا فترة ، وقد أدرك كلانا حرج الموقف .. وفجأة سمعنا صوت سيارة كيكسفالفا تقف أمام الباب ، فهتفت ايلونا : « يحسن الا تقابله الآن وأنت منفعل .. سأحضر لك سيفك وقبعتك كى تخرج من الباب الخلفى » .. وبعد لحظات كنت أغادر البيت متسللا ، كلص يستخفى فى الظلام !

الفصل الحادى عشر

جحيم .. الحب المرفوض !

● **كنت** فيما مضى من شبابى أعتقد أن أشواق الحب وآلامه أفظع عذاب يمكن أن يصيب القلب البشرى ! .. **لكنى فى تلك الليلة بدأت أدرك أن هناك عذابا أمر من عذاب الشوق والاشتهاء ، هو عذاب من يجد نفسه محبوبا برغم ارادته ، من امرأة تتلظى بنيران الرغبة ، وهو عاجز عن تخليصها من وسط النيران !** ان الشخص الذى يصاب بالحب قد يستطيع السيطرة على عاطفته فى بعض الأحيان ، وذلك لأنه هو نفسه خالق بؤسه ، وقد يعجز عن هذه السيطرة لكنه على الأقل يعرف أنه المسئول عن آلامه .. أما « المحبوب ، غير المحب » فضائع لا خلاص له ، لأنه لا يستطيع أن يضع حدا لعاطفة

عاشقه ، وحدة رغبته ! .. ولعل الرجل أقدر من المرأة على ادراك مدى قسوة هذه المأساة ، لأن المرأة التى تصد حبا غير مرغوب فيه ، انما تطيع قانون جنسها ، الذى يعتبر الصد أو الرفض أمرا غريزيا فى الأنثى ، لا يمكن أن تتهم من ورائه بمجافاة الشعور الانسانى ! .. أما حين يقلب القدر الموازين ، فتجرؤ امرأة على مغالبة جمودها الطبيعى الى حد التصريح لرجل بأنها تحبه ، قبل أن تستوثق من أنه يبادلها الحب ، بحيث نراها تعرض عليه حبها ، فيصدها هو بقلب بارد .. فان المسألة تتعقد وتصبح مأزقا يصعب الفكاك منه ! .. **لأن الرجل الذى لا يبادل عاشقته عاطفتها انما يمزق كبرياءها ، وهو حين يقابل تقربها منه وتوددها اليه ، بالنفور والأعراض ، انما يطعنها فى أعز مشاعرها وأنبلها .. وعبثا تكون عندئذ كل رقته وأدبه فى التنصل منها ، بل أنه ليهينها ان عرض عليها صداقته الخالصة ، بعد أن تكون قد كشفت له ضعفها .. فانها تعد ذلك منه جريمة خطيرة ، وقسوة بالغة !**

كيف لا وهو قد علم ان هناك امرأة تنتظره ، وتفكر فيه ، وتشتاق اليه ، وتتنهد من أجله ليل نهار ! .. بل علم أنها تريده وتشتهيه بكل خلية وعصب فى كيانها ، بجسدها ، بدمها ! .. تريد يديه ، وشعره وشفتيه ، ورجولته ، وليله ونهاره ، وعواطفه وحواسه ، وجميع أفكاره وأحلامه ! .. تريد أن تشاطره كل شيء ، وتأخذ منه كل شيء ، تنهله نهلا مع أنفاسها .. وسواء أكان يقظان أم نائما فهى يقظى محمومة ، تنتظره وتحلم به ! .. عندئذ يكون من العبث الظالم أن تحاول عدم التفكير فى المرأة التى تفكر دائما فيك ، أو تحاول الفرار ممن استوعبتك فى دمها ذاته ، **فانها تحملك معها ، بل فيها ، أينما ذهبت هى وحيثما ذهبت أنت ! تحملك سجينا فى أعماقها ، فاذا بك تحس تفكيرها فيك ، وحنينها اليك ، وعذابها بسببك ، كما لو كان ذلك كله نارا تلتهمك ، وتملؤك بغضا وخوفا ! ..**

انها لأفظع محنة ، لا فكاك منها ، يمكن أن تصيب رجلا : أن يجد نفسه محبوبا برغم ارادته !.. انه عذاب يفوق كل عذاب ، وعبء على الضمير لا يبرره أبشع اثم !

وهكذا وجدتنى أواجه هذا الحب اليـائس ، فأعانى من شفقة مزدوجـة : شفقة على الفتاة التى تقـاسى نار حب مرفوض ، وشفقة على نفسى التى تقاسى عناء صد تيار حب مفروض .. لكن نصيبى من هذا البؤس المزدوج المقسوم كان أثقل النصيبين ، فلئن كان اخلاف رجاء امرأة فى حبها بعد قسوة ووحشية ، فكم بالأحرى يكون رفض حب هذه الفتاة التعسة الكسيحة ، الملتهبة العاطفة ، وطعنى شعورها بعد أن طعنتها الحياة قبلى فى الصميم ، طعنة نجلاء ؟ !

وهكذا لم يخف على أنى ــ بالتنصل من حب هذه الصبية الغريرة ــ قد أعرض حياتها وعقلها للخطر .. وانى أن لم « أتظاهر » ، على الأقل ، بالاستجـابة لعاطفتها ــ ما دمت عاجزا عن الاستجابة لها حقا ــ فانى انمـا أرتكب بذلك ، برغمى ، جريمة بشعة نكراء !

على أنى ــ لسوء الحظ ــ لم يكن لى فى الأمر خيار !.. وفى اللحظة الرهيبة التى انتزعت فيها جسمى من بين ذراعى عاشقتى ، لأتخلص من عناقها العنيف ، أدركت بغريزتى ــ قبل أن أدرك بعقلى ــ أننى لن أقوى مطلقا على أن أحبها كما تحبنى ، بل لن أجد فى قلبى حتى من الشفقـة ما يكفى لكى أتحمل عاطفتها الثقيلة الوطأة .. ومن هنا قدرت منـذ البـداية أن لا مخرج من هذا المأزق الرهيب ، ولا حل لهذه المشكلة المعقدة ، وان أحدنا أو كلينا لابد سيشقى بذلك الحب العقيم !

● ●

● **وصلت** الى قلب البلدة فى ذلك الأصيل وأنا لا أدرى كيف وصلت ! .. **كل ما أعرفه أنى سرت فى طريقى مسرعا ، وفكرة واحدة تنبض فى عقلى مع كل نبضة من قلبى : بعيدا !**



« .. وفى اللحظة الرهيبة التى انتزعت فيها جسمى من بين ذراعى عاشقتى ، لأتخلص من عناقها العنيف ، أدركت بغريزتى - قبل أن أدرك بعقلى - أننى لن أقوى مطلقا على أن أحبها كما تحبنى .. »

بعيدا ، بعيدا عن هذا البيت ، بعيدا عن هذا المأزق ، لذ بالفرار ، أهرب ، أختف ! لا تطأن قدمك عتبة هذا المنزل ، ولا تعد لرؤية هؤلاء الناس .. اختبيء ، لا تدع أحدا يراك ، ولا تقيد نفسك بشيء ازاء أى مخلوق ، ولا تعط الفرصة لانسان كى يوقعك فى فخ ! .. بعيدا .. بعيدا ! .. بعيدا !

.. ومن الغبار الذى كسا حذائى ، والتمزقات التى أحدثتها الشجيرات الشائكة فى ملابسى ، أدركت فيما بعد أننى اخترقت حقولا وأحراشا ، ودروبا وأزقة .. حتى وجدتنى عند بداية الطريق الرئيسى والشمس الغاربة توشك أن تختفى خلف قمم المبانى .. فمضيت كالنائم الذى يسير فى نومه ، ثم اذا بى أفاجأ بيد تربت على ظهرى !.. وما كدت ألتفت حتى وجدت نفسى أمام أربعة من زملائى الذين اعتادوا قضاء الأمسيات معى فى المقهى .. وابتدرونى قائلين انهم بحثوا عنى فى كل مكان كى يبلغونى أن ضباط الفرقة جميعا مدعوون لتناول العشاء فى الساعة الثامنة والنصف على مائدة « بالنكاى » !.. وتذكرت أخيرا من يكون بالنكاى صاحب هذه الدعوة ! انه ضابط سابق من ضباط الفرقة كان مقامرا عربيدا فطرد من الخدمة العسكرية ـ بعد حادث يؤسف له ، لم أعرف تفصيلاته ـ ومضى يضرب فى الأرض .. حتى التقى فى فندق « اكسلسيور » فى القاهرة بأرملة هولندية ثرية تملك خطا للملاحة ، تسير عليه سبع عشرة سفينة ، ومزارع شاسعة فى جزر (جاوة) و (بورنيو) بالشرق الأقصى .. فخلب لبها وتزوجها !.. ومنذ ذلك التاريخ وهو لا يفتأ يرسل الهدايا لضباط فرقته القديمة ، فى الأعياد والمناسبات ، ويزور المعسكر كلما مر بالنمسا خلال رحلاته الطويلة لتفقد أملاكه ، فيقيم لزملائه القدامى مأدبة ينفق عليها ببذخ خيالى ، يظل حديث أهل البلدة بعد ذلك لأسابيع !

وحاولت أن أزوغ من حضور الحفلة ، ملتمسا لذلك

شتى المعاذير ، لكن زملائى الأربعة أخذوا بيدى الى حيث تقام ، فشاركت مضطرا فى اعداد العدة لاستقبال الضيوف الغرباء عن الفرقة ، من كبار الشخصيات ، حتى اقترب موعد وصولهم فتركنى الزبانية الأربعة كى أسرع الى غرفتى فأغسل وجهى وأبدل ثيابى ، ثم أعود قبل بدء الاحتفال .

وفيما أنا أصفف شعرى أمام مرآتى الصغيرة ، وقد تجردت الا من ثيابى الداخلية .. دخل تابعى يحمل فى يده خطابا لى ، فى مظروف سميك أزرق .. ولم أكن فى حاجة الى تأمل الخط الذى كتب به اسمى عليه ، كى أعرف شخصية كاتبه !

وهمس فى أعماقى صوت محذر : « فيما بعد ، فيما بعد .. لا تفضه الآن ! لا تقرأه الآن ! » .. لكننى ــ رغم كل تحذير عقلى الواعى ــ فضضت الخطاب وقرأته !.. كان مؤلفا من ست عشرة صفحة ، وقد كتب فى عجلة ظاهرة ، بيد مضطربة .. وهو من ذلك النوع الذى لا يكتبه المرء ، أو يتلقاه ، أكثر من مرة فى حياته !.. كانت عباراته متلاحقة فى استطراد فياض ، لا تتخللها فواصل أو نقط تقسمها الى عبارات وفقرات .. وكأنها الدم يتدفق من جرح مفتوح !.. وبرغم مضى سنوات وسنوات على ذلك التاريخ ، أستطيع الآن أن أذكر كل سطر من ذلك الخطاب ، بل كل حرف !.. أستطيع أن أتلوه عن ظهر قلب ، صفحة صفحة ، من البداية الى النهاية .. وذلك من كثرة ما قرأته واستعدته !.. حتى لقد بقيت شهورا أحمله معى أينما كنت : فى البيت ، والمعسكر ، والشارع ، والقطار ، وفى الخنادق أثناء الحرب .. حتى أصيبت فرقتنا فى احدى المعارك بهزيمة منكرة ، فاضطررت الى تمزيقه ــ وقلبى يتمزق ــ خشية أن يقع فى أيد غريبة !.. وكان نصه كما يلى :

« لقد كتبت اليك قبل الآن ستة خطابات ، مزقتها كلها قبل أن أرسلها .. فانى لم أرد أن أطلق العنان لنفسى كى أكشف سترى ، بل آثرت أن

أكتم ما بى ، ما بقيت لى قدرة على المقاومة !.. جاهدت أسابيع وأسابيع كى أخفى مشاعرى عنك .. وفى كل مرة جئت فيها تزورنا فى ود وبراءة ، كنت أقهر يدى على أن تجمدا ، ونظرتى على أن تظهر عدم المبالاة ، حتى لا أزعجك !.. بل لقد عاملتك فى بعض الأحيان بخشونة واحتقار ، كى لا تخالجك أدنى شبهة فى شىء مما ما أعانيه من أجلك ! .. حاولت كل ما فى وسع كائن بشرى أن يفعله ، وأكثر مما فى وسعه .. لكن الواقعة وقعت اليوم ، وأقسم لك أنها دهمتنى برغم ارادتى ، وفاجأتنى على حين غرة . أنا نفسى لا أعرف كيف أمكن أن أدع شيئا كهذا يحدث ، حتى لقد كدت بعد حدوثه أن أضرب نفسى ، عقابا لها ، من فرط الخجل اليائس الذى انتابنى !.. اننى أعلم يقينا مدى الجنون والحماقة فى أن أفرض نفسى عليك .. فان المخلوقة العرجاء الكسيحة ، مثلى ، لا حق لها فى أن تحب .. وهل يمكن أن أكون الا عبئا ثقيلا عليك ، أنا المحطمة التعسة التى ترى نفسها موضعا للاشمئزاز والكراهية ؟ !.. واذا كانت مخلوقة مثلى لا حق لها فى أن تحب ، فهى من باب أولى لا حق لها فى أن يحبها أحد !.. وما يخلق بها الا أن تزحف بعيدا الى ركن قصى لتموت ، وتكف عن أن تثقل على الآخرين بوجودها !.. نعم ، كل ذلك أعرفه حق المعرفة ، ولهذا أجدنى فى هذه الحياة روحا ضائعة !.. وما كان ينبغى لى أن أجرؤ على أن ألقى بنفسى عليك ، ولكن من سواك أدخل الى قلبى الأمل فى ألا أبقى حياتى كلها فى الحالة التعسة التى أنا فيها الآن ؟.. ومن غيرك أدخل فى روعى أن فى مقدورى أن أتحرك وأمشى ، مثل غيرى من الناس .. مثل الملايين من البشر الذين لا يدركون أو يقدرون أن كل خطوة يخطونها على أرجلهم بلا عائق ، انما هى نعمة مباركة مجيدة ! ؟ .. وكنت قد صممت تصميما صارما على أن ألوذ بالصمت ، حتى تحل حقا تلك اللحظة المرموقة التى أصير فيها مخلوقة بشرية حقة ، يحتمل أن تكون جديرة بك أيها الحبيب .. لكن لهفتى ، وظمئى الى الشفاء ، بلغا من القوة — فى تلك اللحظة التى انحنيت فيها على — بحيث اعتقدت حقا وصدقا ، بضمير خالص نقى ، وغباء مطلق أحمق ، انى قد شفيت ، وصرت تلك المخلوقة الاخرى ، الجديدة السليمة !.. ذلك لانى — كما تعلم — قد طالما أردت ذلك وحلمت به .. فلما لمستنى ، وشعرت بك قريبا منى فى تلك اللحظة ، كما لم تقترب منى من قبل ، نسيت ساقى المهيضتين ، لم أعد أشعر بنفسى الا كما أردت أن أكون من أجلك !.. ألا تستطيع أن تفهم كيف ينسى الانسان نفسه لحظة فى حلم من أحلام اليقظة ، اذا كان قد حلم به على التوالى دون غيره ليل نهار ، عاما بعد عام ؟ !.. صدقنى أيها الحبيب ، ان ذلك الوهم الأخرق بأنى تحررت من عجزى ، هو الذى صعد الى رأسى فأثملنى ..

وان شوقى الملهوف الى أن لا أبقى كسيحة منبوذة ، هما وحدهما اللذان جعلا قلبى ينساق معى فى هذا الجنون .. فهلا فهمتنى ، لقد اشتقت اليك طويلا ، شوقا بدا كأن ليست له نهاية !

« لكنك الآن تعرف ما كان ينبغى ألا تعرفه الا يوم أستطيع أن أقف على قدمى .. وتعرف من هو ذلك الذى من أجله وحده – دون سواه من سكان هذه الأرض – أريد أن أشفى . انه أنت وحدك لا سواك ! فاغفر لى يا حبيب قلبى هذا الحب !.. وقبل كل شىء ، استحلفك وأتوسل اليك الا تخشانى أو تنفر منى ! لا تحسب أنى – لانى كنت معك يوما ملحاحة ملحفة – سوف أزعجك مرة أخرى ، أو أحاول التشبث بك .. كلا ! أقسم لك أنك لن تجدنى يوما أفرض نفسى عليك ، بل سأسعى جاهدة كى أخفى عنك مشاعرى . ولست أبغى غير أن أنتظر ، وأنتظر صابرة ، حتى يرحمنى الله فيشفينى . ومن ثم أتوسل اليك يا أعز الناس على ألا تخشى حبى ، وأرجو أن تذكر – وأنت الذى أشفقت على كما لم يشفق على أحد قبلك – كم أنا عاجزة أبشع العجز ، مقيدة الى مقعدى ، محرومة من القدرة على أن أخطو خطوة واحدة ، بل من القدرة على أن أتبعك وأندفع وراءك حيثما تذهب !.. نعم أرجو أن تذكر أنى « سجينة » عليها أن تنتظر فى سجنها فى صبر نافد ، حتى تأتى أنت وتتفضل عليها بساعة من وقتك .. وتسمح لها بأن تنظر اليك وتسمع صوتك ، وتعلم أنك تتنفس الهواء الذى تتنفسه هى ، وتحس وجودك قريبا منها .. الى آخر مظاهر السعادة التى منحتها اياها !.. أذكر كل هذا وصوره لنفسك . أذكر أننى طالما انتظرتك نهارا وليلا ، وكانت كل ساعة تمتد وتطول الى ما لا نهاية ، حتى تثقل وطأة الانتظار على الأعصاب ، ويصير عسير الاحتمـــال .. فاذا ما جئت آخر الأمر ، لم أستطع أن أخف للقائك ، أو أعانقك وأحتضنك ، بل وجدت نفسى مضطرة الى أن أبقى فى مكانى وأسيطر على شعورى ، وألوذ بالصمت .. حذرة فى كل كلمة أقولها ، وكل نظرة أنظرها ، وكل نبرة من صوتى ، حتى لا ترتاب أنت فى أنى « أجترىء » على أن أحبك !.. ومع ذلك ، أيها المحبوب ، كنت قانعة بهذه السعادة المريرة المتواضعة .. وكنت أغبط نفسى كلما نجحت فى كبت مشاعرى .. وهكذا بقيت أنت حرا طليقا ، جاهلا بحبى ، غير مرتاب فى شىء .. بينما كنت أنا أتعذب بسبب تورطى اليائس فى الوقوع تحت تأثير سحرك !

« لكن المحظور قد وقع !.. ولم يعد فى امكانى الان أن أنكر أو أخفى شعورى نحوك أيها المحبوب ، فرجائى اليـــك ألا تقسو على ! ان أحقر المخلوقات – كما تعلم – لها كبرياؤها ، وأنا لن أتحمل أن تحتقرنى لكونى

عجزت عن قمع عاطفة قلبى !.. لكنى ـ وأقسم بالله ، القادر وحده على أن يضمد جراحى وينقذنى ـ اننى لا أنتظر منك ، أن تبادلنى الحب ، فلست أجرؤ على أن أتوقع منك ذلك ، حتى ولا فى أحلامى .. كما لا أبغى أية تضحية من جانبك ، أو شفقة !.. كل ما أسألك اياه أن تدعنى أنتظر ، فى صمت ، وألا تردنى عنك ردا عنيفا حاسما !

« وأنا أعلم أن طلبى هذا قد يكون مغالاة من جانبى ، وطمعا ، ولكن .. هل أنت حقا تستكثر على كائن بشرى أن تمنحه هذه الجرعة التعسة من السعادة ـ التى يمنحها الانسان راضيا لأى كلب ! ـ سعادة النظر بين حين وآخر ، فى صمت ومذلة ، الى سيده ؟.. وهل يلزم أن تدفعه بعيدا عنك فى عنف ، وتطرده بسوطك فى احتقار ؟ !.. ان الشىء الذى لا طاقة لى به على الاطلاق ، هو أن يكون افصاحى لك عن حبى ، مرغمة ، سببا فى نفورك واشمئزازك منى ، أو سببا لعقابك لى ـ (فيكفى عقابا لمثلى ، هذا الخجل الذى أستشعره من نفسى ، وهذا اليأس الذى أعانيه !) ـ والا فلن يبقى لى ، فى هذه الحالة ، غير مخرج واحد أنت تعرفه ، لأنى أريتك اياه !

« ولكن كلا ، لا تنزعج ، فلست أريد أن أهددك ، أو أخيفك ، فانتزع منك الشفقة بدلا من الحب ! وانما أريدك أن تشعر بأنك حر تماما ، لا يثقلك أى التزام . والله يعلم أنى لا أبغى أن أثقل عليك بالعبء الذى أحمله ، أو أحملك اثما أنت منه برىء .. وانما كل ما أطمع فيه هو أن تغفر لى ما حدث وتنساه ، بل تنسى كل ما بحت لك به ! ان كلمة واحدة منك تكفينى .. كلمة أفهم منها أننى لم أصبح كريهة فى نظرك ، ثقيلة عليك .. وانك ستظل تأتى لزيارتنا ، كأن شيئا لم يحدث !.. انك لا تتصور الى أى مدى أخاف أن أفقدك .. فمنذ تلك اللحظة التى أغلقت فيها الباب خلفك ، وأنا فى فزع مروع من أن تكون تلك آخر مرة أراك فيها !.. انك كنت شاحب الوجه ، وفى عينيك نظرة رعب أثلجت أطرافى فجأة ، وأنا فى قمة نشوتى !.. وقد علمت أنك غادرت البيت على أثر ذلك ـ أخبرنى بذلك جوزيف ـ فشعرت بأنك فررت منى ، كما يفر الانسان من وباء مخيف !.. ولكنى لا ألومك أيها المحبوب !.. لأنى أنا ذاتى أتراجع مذعورة من نفسى كلما رأيت الأثقال التى تنوء بها ساقاى ، ثم لأنى أعلم بشاعة الحالة التى أكون فيها حين تثور أعصابى ! نعم ، أنا أحق الناس بأن أفهم لماذا يفر الناس منى مذعورين !.. على أنى برغم ذلك أتوسل اليك أن تصفح عنى ، فلا ليل لى ولا نهار بغيرك ، وانما يأس مطبق !.. فلترسل الى كلمة قصيرة تطمئننى ، كلمة تكتبها على عجل ، أو حتى ورقة بيضاء ،

أو زهرة ، أو أى شىء أفهم منه أنك لن تنبذنى ، ولن تعافنى نفسك !.. ولا تنسى أنى فى خلال بضعة أيام سوف أسافر لأغيب شهورا ، وبذلك يبلغ عذابك نهايته ـ وان كان عذابى أنا سوف يتضاعف ألف مرة ! ـ لكنى أستحلفك أن تفكر فى نفسك فقط ، كما أفكر أنا دائما فيك وحدك !.. انك فى خلال أسبوع سوف يطلق سراحك ، فتعال مرة أخرى .. زرنا كما كنت تفعل .. وفى انتظار ذلك ، أرسل الى كلمة عاجلة ، أعطنى اشارة مطمئنة .. فلست أستطيع أن أفكر ، أو أتنفس ، أو أشعر ، حتى أعلم انك غفرت لى !.. ولن أستطيع أن أعيش ، اذا أنكرت على حقى فى أن أحبك ! »

● ●

● **قرأت** الخطاب ، وأعدت قراءته من البداية مرة ومرات ، ويدى ترتعش ، ونبضات قلبى تدق صدغى بقوة .. وقد نال منى الذعر ، بل الفزع من هـذا الغرام اليائس ! .. وفجـأة تنبهت على وقع يد تربت على ظهـرى . وكانت يد أحـد « الزبانية الأربعة » ـ زملائى فى الفرقة ـ وقد لحظ تأخرى فجاء يتعجل عودتى الى الحفلة ، وأبى أن يغـادر الحجرة الا وذراعى فى ذراعه ، بعد أن وضعت الخطاب فى جيب سترتى العسكرية ، لصق صدرى .

ووصلنا فى الموعد المناسب ، قبل حضور الرؤساء وكبار المدعوين ، وسرعان ما التأم الجمع حول مائدة العشاء الكبرى ، وارتفع الضجيج والثرثرة وصخب حركة الكؤوس والأطباق والملاعق والسكاكين ! .. **وجلست صامتا وسط زملائى المرحين ، أتحسس خلسة بين حين وآخر شيئا ينبض تحت سترتى ، كقلب ثان ، ويحدث مثل قرقعة النار التى أضرمت حديثا . نعم أنه هناك ، يتحرك وينبض على صدرى ، ككائن حى ! .. وفيما كان الآخرون منهمكين فى طعامهم وشرابهم فى مرح ونشوة ، لم أستطع أنا أن أفكر فى غير الخطـاب الراقد فوق قلبى ، والصرخة اليائسة التى أطلقتها كاتبته فيه !**

ولم آكل شيئا مما وضع أمامى . كنت كالنائم وعينـاه مفتوحتان ، وكانت أحاديث الجالسين الى يمينى ويسارى

تصل الى سمعى دون أن أفهم كلمة منها ، وكأنهم يتحدثون بلغة أجنبية ! .. ورأيت أمامى والى جوارى : وجوها ، وشوارب ، وعيونا ، وأنوفا ، وشفاها ، وسترات عسكرية .. لكنى رأيتها جميعا فى غير وضوح ، كما ترى الأشياء من خلال واجهة زجاجية لمتجر .. كنت هناك بجسمى فقط ، جالسا بغير حراك ، بينما ذهنى كله منصرف الى ذلك الخطاب ، وشفتاى تتمتمان فقرات من محتوياته ، كما يتمتم العابد دعاء أو صلاة !

ثم وقف قائد الفرقة خطيبا ، وبدأ يلقى خطابه المعد من قبل ، فأصغيت له بانتباه ، لكن وعيى أبى أن يشترك فى الاصغاء ، فلم أسمع غير عبارات متقطعة تدوى فى فضاء القاعة : « .. شرف الجيش .. روح سلاح الفرسان النمسوى .. الاخلاص للفرقة .. » ، **ولكنى خلال ذلك سمعت همس كلمات أخرى ناعمة ، متوسلة ، كأنها آتية من عالم آخر : « يا حبيب قلبى .. لا تخف .. لن اقوى على العيش اذا أنكرت على حقى فى أن أحبك ! »** .. ثم يعود صوت القائد يدوى : « لم ينس زملاءه الضباط القدامى .. من بعيد .. بلد آبائه .. النمسا وطنه » . **ومرة أخرى يهمس الصوت الآخر فى شبه نشيج أو صرخة مختلفة : « كل ما أرجوه أن تدعنى أحبك .. كل ما أطلبه أن تطمئننى بكلمة عاجلة ! »**

وفجأة تذكرت أنها سألتنى فى خطابها أن أجيبها برسالة قصيرة . وقلت لنفسى : « أما ينبغى لى أن أبادر بالاتصال بها ؟ .. وهل يليق أن يترك الانسان شخصا فى مثل هذه الحالة من القلق ؟ .. يجب أن أبعث اليها برسالة ما ، يجب أن .. » ، وكان الخطيب قد جلس ، وأعقبه زميل أخذ يلقى قصيدة فكهة ، تلقاها الحاضرون بعاصفة من الضحك نهشت قلبى ! .. كيف يضحكون هكذا وهناك شخص يئن أنين اليأس ويعانى عذابا مروعا ؟! كيف يطلقون نكاتهم الصاخبة فى حين

تحتضر نفس معذبة ؟ .. ثم لا شك أنهم بعد هذا سيغنون ويضحكون ، ويرقصون بغير حساب ! » .. وفجأة شعرت بأنى عاجز عن تحمل منظر أولئك الماجنين ذوى الوجوه المتألقة ، فانتهزت فرصة تصفيقهم للزميل ، وتسللت خارجا فى هدوء دون أن يلحظ خروجى أحد من الزملاء . أخيرا سوف أنفرد بنفسى !

وحين بلغت غرفتى ألقيت قبعتى وسيفى ، ثم أضأت المصباح واتجهت الى المنضدة كى أقرأ مرة أخرى – فى جو من الهدوء التام – ذلك الخطاب المفجع ، أول خطاب تلقيته – أنا الشاب الساذج – من امرأة ! ولم أكد أقترب من المنضدة حتى أجفلت ، اذ لمحت فوقهــا وسط دائرة الضوء التى يلقيهــا المصباح ، ذلك المظروف الأزرق الذى كان فيــه الخطــاب ، فأخذتنى الدهشــة لوجوده هنــاك ، مع علمى بأنه فى جيب سترتى ! .. وساءلت نفسى : كيف يمكن هذا ؟ هل أنا ثمل ، أو نائم أحلم ؟ أم هل فقدت وعيى ؟ ألم أسمع قرقعة الخطاب فى مخبئه بالسترة وأنا أخلعها منذ لحظة فقط ؟ .. وذهبت أفتش فى جيب السترة .. فاذا الخطاب فى مكانه ! وعندئذ فقط أدركت جلية الأمر : ان هذا الخطاب الذى فوق المنضدة .. هو خطاب « آخر » منها !

نعم : خطاب آخر منها ، فى خلال ساعتين ! .. وشعرت بأن حلقى جف ، غضبا وغيظا ! اذن فسوف يتكرر ذلك ، كل يوم ، وكل ليــلة ! خطاب فى أثر خطــاب .. ولو رددت على خطابها فسوف تلاحقنى بخطاب ثالث ! .. وهكذا لن تفتأ تطلب منى شيئا كل يوم .. ولسوف تلاحقنى بالرسـائل ، والتليفون ، والجواسيس الذين يتعقبون خطواتى ، وحركاتى وسكناتى ! .. انها لن تدعنى فى راحة بعد الآن ، لن أسترد حريتى من هؤلاء القوم الجشعين الأنانيين حتى يهلك أحدنا – هى أو أنا – ضحيــة هذه العاطفة العقيمــة المدمرة ! ..

وحدثتنى نفسى بألا أفض خطابها الجديد الا فى الصباح ، اذ لم تبق لى قوة تتحمل الشد والجذب اللذين يمزقان قلبى .. وخير لى أن أمزق الخطاب أو أرده اليها دون أن أفتحه ! .. الى الجحيم يا آل كيكسفالفا جميعا !

وسرعان ما خطر ببالى احتمال أن تكون الفتاة قد فعلت بنفسها مكروها حين لم تصلها كلمة منى !.. فمزقت المظروف بحركة عصبية عنيفة ، وحمدت الله اذ وجدته خطابا قصيرا : ورقة واحدة فيها عشرة سطور فقط ، تقول فيها : « مزق خطابى السابق فورا .. لقد كنت مجنونة ، مجنونة تماما ! كل ما كتبته لم يكن صحيحا ، فلا تحضر لزيارتنا غدا .. أرجو ألا تحضر . يجب أن أعاقب نفسى لكونى أذللت شخصى لك على تلك الصورة الفظيعة .. من أجل ذلك لا تحضر غدا بأية حال ، لا أريدك أن تأتى ، بل أمنعك .. ولا ترسل أى رد .. مزق خطابى السابق دون ابطاء ، وانس كل كلمة فيه . ولا تفكر فيه بعد الآن ! »

وساءلت نفسى : « كيف لا أفكر فيه ؟! .. ياله من مطلب صبيانى ! .. هل لارادة المرء دخل فى مثل هذا الحال ؟ .. **وكيف لا أفكر فيه وأفكارى تتلاحق حوله كجياد ضارية تركض فى المسافة الضيقة بين صدغى ؟ .. كيف لا أفكر فيه وذاكرتى المحمومة تلقى صورة بعد صورة منه على شاشة ذهنى ؟ وكلماته المتهبة قد وسم بها وعيى كما يوسم اللحم بميسم من نار ؟**

بل كيف لا أفكر فيه وأنا لا أستطيع أن أفكر الا فيه ، وفى البحث عن وسيلة للفرار .. للمقاومة .. لانقاذ نفسى من هذه اللجاجة النهمة ، من هذه العاطفة المتطرفة غير المرغوب فيها ؟! .. لا أفكر فيه ؟! .. ليتنى أستطيع ذلك !

وقمت فأطفأت النور ، بزعم أن النور يسبغ على الأفكار مزيدا من الحدة والعنف ، ويجعلها أقرب الى الوقائع ..

وحاولت أن أنأى بنفسى بعيدا ، أن أختبىء فى الظلام .. ونزعت الثياب عن جسدى كى أتنفس بسهولة أكثر ، وألقيت نفسى على فراشى ، محاولا أن أخمد كل مشاعرى .. **لكن الأفكار لا تهدأ هكذا بمجرد الرغبة فى التخلص منها ، وانما تنطلق فى اضطراب – كالخفافيش ! – بين جدران الذهن المتعب الكليل ، وتقرض الأعصاب كالجرذان المتوحشة ! ..** وكلما جمدت فى الفراش بلا حراك ، ازدادت هى حركة وثورة وهياجا ! .. وهكذا اضطررت الى أن أنهض فأضىء النور من جديد كى أطرد الأشباح ، لكن أول ما وقع عليه ضياء المصباح كان ذلك المظروف الأزرق لخطابها ، والسترة التى سكبت عليها الشاى بالأمس .. كل شىء يذكرنى ويوبخنى ! كيف لا أفكر فى الخطاب ؟ نعم أنا نفسى لا أريد أن أفكر فيه ، لكن هذا يخرج عن نطاق قدرتى ! .. وهكذا رحت أذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، وأفتح خزانتى ، ثم أدراجها ، واحدا بعد الأخر ، حتى عثرت على قارورة الدواء المنوم ، فتناولت منها جرعة ، ثم عدت أدراجى الى الفراش .. ولكن لا مفر ولا مهرب ! .. فان الأفكار السوداء ، تلك الفيران القلقة التى تقرض النعاس فى مخى ، تسللت حتى الى أحلامى !

وحين استيقظت فى الصباح ، أحسست كأن خفاشا من تلك الخفافيش قد أفرغ مخى ، وجفف مادة رأسى ! .. وكنت أعلم أن من أحسن وسائل العزاء والسلوان فى مثل هذه الحال أن يمضى المرء الى أداء عمل محتوم ، وعلى هذا غادرت غرفتى لكى أمتطى صهوة جوادى وأخرج الى الخلاء على رأس سريتى ، كى أتلقى الأوامر ، وأصدر الأوامر ، فأفر من نفسى ومن أفكارى ثلاث ساعات ، أو أربع ! .. وفى البداية ، سار كل شىء على ما يرام . كان اليوم لحسن الحظ حافلا بالعمل ، استعدادا للمناورات . وكان نصيبنا من التحضير لها يومئذ

يقتضى كل ضابط مزيدا من الانتباه وتركيز الفكر فى مراقبة كل جندى من جنود السرية ، بحيث أنسانى ذلك كل شىء عداه .. حتى حانت فترة العشر دقائق التى تمنح للجياد كى تسترد أنفاسها وتستريح ، فحامت نظرتى حول الأفق الممتد أمامى وراء الحقول الشاسعة .. واذا أنا ألمح على حين غرة برجا عاليا هو برج قصر كيكسفالفا ، ولاحت لى شرفته التى تجلس فيها اديث كل أصيل .. وهنا أحسست حافزا لا يقاوم يدفعنى الى التفكير فيها : الساعة الآن الثامنة ، الساعة التى تستيقظ فيها .. لتفكر فى ! .. لعلها الآن تحدث أهلها عنى ، وتستفسر منهم هل أرسلت اليها ردا ؟ .. أو ربما تكون قد صعدت الى الشرفة واتكأت على سورها لتطل على ، كما أرنو بنظرتى اليها ! وانتهت فترة الاستراحة وعادت الأوامر تتطاير من أفواه الضباط هنا وهناك ، ومختلف وحدات السرية تنفذ « التحركات » المرسومة بدقة ، والجياد تركض براكبيها فتتجمع وتتفرق حسبما توجهها أعنتها .. ولكنى وان استأنفت القاء الأوامر لجنودى ، **الا ان أفكارى كانت فى واد آخر بعيد .. كنت فى أعماق وعيى وخبايا ذهنى أفكر فى ذلك الشىء الذى أردت ــ وأرادتنى الفتاة ــ ألا أفكر فيه !**

وأقبل قائد الفرقة يركض بجواده ، وقد احتقن وجهه وراح يسب ويصخب ! .. لابد أن ضابطا قد أصدر أمرا خاطئا ، فان طابورين كان مفروضا أن يلتقيا ليؤلفا فيلقا واحدا ، قد اصطدما .. فجمحت بعض الجياد ، وأجفل بعضها الآخر ، وسقط جندى تحت الحوافر ، وساد الاضطراب والهرج وقعقعة السلاح صفوف الطابورين ، كما لو كانت قد نشبت معركة حقيقية ! وحين أقبل بعض الرؤساء لتدارك الأمر ، اقتضاهم ذلك بعض الوقت كى يعاد النظام الى الميدان .. وعندئذ ساد صمت مطبق ، وأقبل القائد على جواده

فتوسط المكان ، واحتبست الأنفـــاس فى انتظار مؤاخـــذة المسئول .. وفجأة ارتفع صوت القـــائد ، حادا كالسيف ، مناديا : « الملازم هوفميلر ! »

عندئذ فقط أدركت أننى ذلك المسئول ، وأننى أصدرت الأمر الخاطىء ، أثنـــاء تشتت أفكارى ! .. ولم يكن بد من مواجهـة الموقف المخزى ، فلكزت بركبتى جوادى وتقـدمت الصفوف نحو مكان القائد ، تحوطنى نظرات أصدقائى المشفقة الحائرة .. وساد سكون أشـــبه بسكون الموت الذى يسبق تنفيذ حكم الاعدام ! .. كان الكل يعرفون مقدما ما تدخره لى الدقائق التالية !

ويحسن الا أذكر نفسى بما حدث على أثر ذلك ، وبعبارات التقريع التى انهالت على من فم القـــائد فى مثل هدير الموج ، وقد شعرت بمئات النظرات المستهزئة تثقب ظهرى ، والرجل ماض فى حملته القاسية التى لم يتعرض ضابط منا لمثلها منذ شهور ! .. وارتعشت يداى المسكتان بعنان الجواد ، من فرط شـعورى بالمذلة ، ووددت لو أنطلق بجـوادى فارا من الميدان ، وبرغم ذلك اضطررت الى أن أبقى فى مكانى بلا حراك ، دون أن تختلج عضلة واحدة فى وجهى .. حتى أنهى الرجل « مهمته » وأصدر أمره للجنود بالتفرق .. وعندئذ كان على أن أرفع يدى بالتحية العسكرية قبل أن ألوى عنان جوادى عائدا الى مكانى ، وقد أطرق زملائى بأنظارهم خجلا منى — أو هكذا خيل الى وقتئذ ! — وانتهز صديقى « فيرنز » فرصـة مروره بجوارى أثناء تفرقنا ، فهمس لى مشجعا : « لا تلق بالا الى الأمر .. ان ذلك قد يحدث لأى واحد منـــا » . لكنى صحت به فى جفاء : « هل لك أن تهتم بشؤونك الخاصة ؟ » .. وفى تلك اللحظة أدركت ، لأول مرة ، كيف تكون الشفقـة التى تنقصها اللباقة جارحة موجعـة .. أدركت ذلك لأول مرة ، ولكن بعد فوات الأوان !

الفصل الثانى عشر

رغبة فى الفرار !

● « **ألا يئست** هذه الحال ! » .. ذلك ما كنت أحدث به نفسى وأنا أخب بجوادى عائدا من ميدان التدريب ! وددت لو أستطيع الرحيل بعيدا ، الى مكان لا يعرفنى فيه أحد ، لكى أفر بعيدا من هذا الجو الكريه ، ولا أدع أحدا يذلنى بعد الآن !

ولازمتنى هذه الفكرة ، وكأنما صارت نغما يصاحب وقع حوافر جوادى أثناء المسير .. فلما بلغت المعسكر سلمت زمام الجواد لأحد الجنود وسارعت الى الخروج ، معتزما ألا أتغذى فى مطعم الضباط ، حتى لا أدع مجالا لأحد كى يهزأ بى أو يرثى لحالى ! .. **لكنى لم أكن أدرى الى أين أذهب ؟! .. لم تكن أمامى خطة معينة أو هدف مرسوم ، سوى أن أفر بعيدا من المعسكر ، والبلدة كلها .. لقد غدا موقفى حرجا فى محيط عملى فى المعسكر ، وفى محيط صلتى بأسرة كيكسفالفا ! .. وهكذا مضيت فى طريقى على غير هدى ، مبتعدا عن المعسكر** .. وفجأة سمعت صوتا ينادينى بلهجة ودية ، من الجانب الآخر للطريق ، ولما التفت لأتبين صاحب النداء ، وجدت رجلا فى ثياب مدنية يشير لى ، وهو واقف بجانب سيارة معطلة ، رقد تحتها عاملان ميكانيكيان يصلحان ما بها . وكان ذلك الرجل هو « بالنكاى » ، زميلنا القديم !

وأقبل على مرحبا ! .. ولم أكد ألمس فى نظرته وتحيته فرحة الصديق المخلص ، حتى ومضت فى ذهنى فكرة أن ألتمس مساعدته .. وسرعان ما توالت على مخيلتى الخواطر المتسلسلة فى أقل من ثانية : ها هو ذا ضابط قد ترك الجيش وصار سيد نفسه ، ولقد مر بمرحلة مشابهة ، وهو يمد يد المساعدة لكل من ينشدها من زملائه القدامى وأقربائه ، فلم

لا يعينني فى محنتى ؟ .. وسرعان ما حزمت شجاعتى وسألته : « أتستطيع أن تمنحنى خمس دقائق من وقتك ؟ » .. فقبل مرحبا ، وقادنى الى غرفته .. وهناك صارحته برغبتى فى ترك الجيش لأسباب لا محل للخوض فيها ، وسألته : « هل فى وسعك أن تجد لى عملا مناسبا فى احدى شركاتك ومؤسساتك ؟ »

وبغت بالنكاى لقرارى المفاجىء ، وراح يحدثنى عن عواقب اقدامى على هذه الخطوة الطائشة ، وعن المصاعب التى صادفته ، والمذلة التى عاناها بعد تركه الخدمة العسكرية ، حتى قيضت له المقادير صفقة زواجه من الأرملة الثرية ، وهى صفقة لا تتاح لشخص من بين كل ألف شخص ! .. ثم **صارحنى بأنه حين تعرف الى زوجته – فى أحد فنادق القاهرة ! – لم يكن سائحا موقرا من نزلاء الفندق ، بل كان ساقيا ذليلا ، فى مرتبة الخدم!** .. وحين أفرغ « بالنكاى » ما فى جعبته من النصائح ، وجدنى ما أزال على اصرارى .. وحينئذ ذكر لى أنه بعد أن أراح ضميره من مسئولية تشجيعى على الخطوة الخطيرة التى اعتزمت اتخاذها بصدد مستقبلى ، يقبل عن طيب خاطر أن يطالب زوجته بايجاد عمل لى فى احدى مؤسساتها ، لكنه لا يستطيع أن يعدنى بغير عمل تافه فى البداية ، على أن أرتقى السلم تدريجا بكفاءتى ، لا أن أقفز فوق أكتاف الأكفاء بفضل صداقته لى !

وقبلت شروطه العادلة ، فأخذنى فى سيارة الى « فيينا » كى يعرض الأمر على زوجته ، وأنا فى شبه ذهول من تطور الأمور بهذه السرعة ، وانقلاب حياتى ومستقبلى هكذا رأسا على عقب فى أقل من ساعة ! .. وحين وصلنا الى الفندق الذى تقيم به زوجته فى العاصمة ، تركنى فى الردهة وصعد الى غرفتها كى يتحدث اليها فى الأمر .. ثم عاد الى بعد دقائق باسم الوجه ، يبشرنى بأن زوجته اختارت لى عملا مبدئيا على

احدى سفنها ، هو أن أكون مساعدا لأمين حسابات السفينة ، كى أتعلم اللغات اللازمة وأقف على سير الأعمال فى جزر الهند الشرقية الهولندية ، حيث مقر مزارعها وأملاكها الشاسعة .. وعندئذ يصبح فى الامكان أن تسند الى عملا أهم ، فى أحد المراكز الثابتة . ثم ختم « بالنكاى » كلامه مكررا لى نصيحته بأن أعدل عن قرارى الطائش وأبقى فى الاتجاه الذى رسمته الأقدار لمستقبلى .. وترك لى الخيار فى تسلم عملى الجديد فى أى يوم أشاء ! .. وهكذا لم يبق أمامى غير اجراء واحد بسيط هو أن أكتب استقالتى من الخدمة العسكرية وأسلمها الى الرئيس المختص .. وبعد ذلك أغدو حرا ، وفى الوقت نفسه أكون قد نجوت !

والآن ، أستطيع أن أذكر بوضوح أدق تفاصيل ما حدث فى الدقائق التالية لتوديعى لصديقى بالنكاى فى تلك الأمسية : لقد اتجهت الى أقرب حانوت سجاير ، فابتعت ورقتين من الأوراق المدموغة المخصصة للمكاتبات الرسمية ، ومظروفا مناسبا ، ثم عرجت على أقرب مقهى ــ ومقاهى « فيينا » هى المكان المختار الذى تتم فيه أخطر الأعمال وأتفهها ــ فجلست الى مائدة رخامية مستديرة الى جوار نافذة ، وشرعت أكتب ــ بخط جميل ، وفى شىء من العناية ــ الصيغة الرسمية للاستقالة ، وأنا أتخيل رد الفعل الذى سوف يحدثه وصول خطاب الاستقالة الى قائد الفرقة ، وبين زملائى الضباط ، الذين سيعجبون جميعا ولاشك بنخوتى وابائى قبول الضيم ، والاستكانة للمذلة والتحقير ! .. **وشعرت اذ ذاك بكثير من الزهو ، فقد كانت تلك أول مرة فى حياتى تتاح لى فيها فرصة الظهور ازملائى فى مظهر الرجل المعتز بكرامته ! .. والزهو من أقوى الدوافع التى تغرى ذوى الطبيعة الضعيفة بالاقدام على أى عمل يظهرهم فى مظهر الأقوياء الشجعان الحازمين !**

وحين فرغت من كتابة العشرين سطرا التى تتألف منها

صيغة الاستقالة التقليدية ، وقعت عليها ، ثم نظرت الى ساعة المقهى فاذا هى تشير الى انتصاف الساعة السادسة ، فقلت لنفسى وقد شعرت بأن حملا ثقيلا أزيح عن كاهلى : « فلأدفع الحساب للساقى ، ثم أخرج فأتمشى قليلا ــ ولآخر مرة ! ــ بسترتى العسكرية ، فى شوارع فيينا ، وبعد ذلك أستقل قطار المساء الى حيث تعسكر فرقتنا ، وفى الصباح أسلم الاستقالة لرئيسى .. وبذلك تبدأ صفحة جديدة فى حياتى ومستقبلى ! »

وتناولت الورقة فطويتها ، مرة ، ثم مرة ، كى أضعها فى جيب سترتى ، **وهنا حدث شىء عجيب ، اذ اصطدمت الورقة بشىء فى جيبى ، فلما مددت أصابعى أتحسس ما يعوق دخولها .. اذا أصابعى تجفل متراجعة ، كأنما أدركت قبل عقلى ماهية الأوراق المنسية فى جيبى : انها خطاب « اديث » ، بل خطاباها اللذان أرسلتهما الى أمس !**

ولست أستطيع وصف المشاعر التى تقاذفتنى عند ذاك ــ والتى كانت تمت الى الخجل أكثر مما تمت الى الفزع ! ــ ففى تلك اللحظة انجابت عن ادراكى السحابة التى كانت تحجب عنى الحقائق ، فتبينت زيف كل الأفعال والأفكار والمشاعر التى اكتنفت حياتى فى الساعات الأخيرة ، بما فيها حنقى على لوم القائد لى ، وزهوى بمشروع تركى خدمة الجيش ! .. وتبينت أن الحافز الأول الى تفكيرى ذلك لم يكن ثورة رئيسى على ــ فهى تحدث للواحد منا أو للآخر كل بضعة أيام ــ بل كان رغبتى فى الفرار من وجه أسرة كيكسفالفا ، أو بالأحرى الفرار من مسئولياتى !.. وكما ينسى المريض ــ بمرض قاتل ــ عذاب مرضه الأصلى ، مؤقتا ، اذا أصابه ألم عارض فى أسنانه مثلا ، نسيت أنا ــ أو حاولت أن أنسى ــ عذابى المتأصل الذى يغرينى بالفرار كالجبان ، وتوهمت أن ذلك الحادث التافه الذى وقع لى أثناء عملى هو الدافع لى على الاستقالة ، ذاهلا عن أن استقالتى لن تعد عملا من أعمال

البطولة أو الاعتزاز بالشرف ، كما توهمت ، بل هى ليست الا فرارا حقيرا من مواجهة عواقب حماقاتى !.. لكن الانسان متى اعتزم أمرا ، يصعب عليه أن يعدل عنه ، وهكذا وجدت من العسير على بعد أن كتبت استقالتى أن أرجع فيها ، فجعلت ألتمس لنفسى الأعذار التى تبرر مضيى فى طريقى ، والتخلص من كيكسفالفا وابنته : **وما ذنبى اذا أحبتنى امرأة غريبة على هذا النحو ؟ .. انها بملايينها الطائلة تستطيع أن تجد شخصا آخر تحبه ، واذا لم تجد فليس هذا شأنى .. يكفى أنى سأهجر عملى وأغامر بمستقبلى من أجلها ! .. ثم ما صلتى أنا بهذه التخمينات الهستيرية عما اذا كانت ستشفى من دائها أم لا ؟ .. ألا سحقا لكل ذلك .. وهل أنا طبيب ؟**

وكأنما ذكرتنى كلمة « طبيب » بالدكتور « كوندور » !

انها مهمته هو لا مهمتى أنا ، وتلك الفتاة الكسيحة مريضته لا مريضتى ! فليحصد اذن ثمرة ما زرع .. ولأذهب اليه فورا لأخطره بأنى نفضت يدى من المسألة كلها !

ونظرت الى الساعة فاذا هى لم تبلغ السابعة بعد ، بينما القطار لا يتحرك قبل العاشرة .. فأمامى اذن متسع من الوقت ! .. لكن أين يقطن هو ؟ .. لابد أن عنوانه مسجل فى دليل التليفون . وسرعان ما هرعت الى الدليل وأخذت أقلب صفحاته على عجل : « يا .. يو .. كا .. كو .. كوندور .. كوندور أنتون (تاجر) .. كوندور اميرمتشن (طبيب) شارع فلوريانيجاس رقم ٩٧ » . ولم يكن بالدليل طبيب آخر بهذا الاسم . واذن فلابد انه هو صاحب هذا العنوان !

وركبت أول سيارة أجرة صادفتها وذكرت العنوان للسائق ، وبعد دقائق كانت السيارة تتأهب للوقوف .. **ترى هل أخطأ السائق أم أخطأت أنا فى ذكر العنوان ؟ هل يعقل أن يقطن طبيب مثل كوندور فى حى حقير قذر مثل هذا ؟ انه يتقاضى من كيكسفالفا وحده ولاشك مكافآت ضخمة ..**

ولكن شكوكى تبخرت حين قرأت لافتة الطبيب على الباب ، فنقدت السائق أجره وصعدت سلما قذرا معتمـــا تآكلت درجاته وتصاعدت روائح الأطعمة الرخيصة من المطابخ المطلة عليه ، حتى بلغت الطابق الثالث الذى يقطنه صاحبنا ، وأنا أرثى لحاله حقا !

ولم يكن قد عاد من الخارج بعد ، فأجلستنى الخـادم فى حجرة انتظار متواضعة ــ تنم عن فقر طبقـــة المرضى الذين أعدت لهم ــ وبعد حين سمعت خطوات تقترب فى حذر ، ثم رأيت مقبض الباب يتحرك ببطء ــ كأن الذى يفتحه لص ! ــ وهتف صوت من ورائه : « هل يوجد أحد هنا ؟ » .. **ومات الجواب على شفتى ، فقد رأيت امرأة عمياء تتقـدم نحوى . وتذكرت فورا ما قاله لى كيكسفالفـا عن زواج كوندور من مريضته التى عجز عن شفائها من عماها ! .. ولكن ، يا الهى ! أبهذا القبح هى ؟ له الله ذلك المسكين !** وأجبتهـا وأنا أنحنى لهـا تأدبا دون وعى ، كأنما هى ترانى : « انى أنتظر الدكتور كوندور » . فقالت فى استياء ظاهر : « ان ساعات الاستشارة قد انتهت منذ الساعة الرابعة . ولابد لزوجى حين يعود من أن يتعشى ويستريح .. هل لك أن تأتى غدا ؟ »

وتذكرت ما قاله كيكسفالفا عن حدة المرأة وسوء طباعها ، فرأيت ألا أستفزها ، وقلت لها : « الواقع أنى لا أريد استشارة الدكتور فى هذه الساعة المتأخرة . وانما أردت أن أقول له بضع كلمات فى شأن احدى مريضاته ! » .. واذ ذاك انفجرت المرأة صائحة : « مريضاته ؟ مرضـاه ؟ .. دائما هـكذا ؟! فى الليلة الماضية أيقظوه فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ثم فى السابعة صباحا ! .. وها هو ذا مايزال فى الخارج حتى الساعة ! انه سوف يمرض يوما ، نتيجة لهذا الاجهـاد . أما ترحمونه ؟ . أما تدعونه فى سـلام ؟ .. ألا تستطيع أن تأتى غدا ، أو تذهب الى طبيب آخر ؟.. أتسمعنى ، أخرج ..

أخرج حالا .. دعه يأكل وينـــام مثل بقية النـاس ! » .. وتقدمت المرأة نحوى ، مادة قبضتيها فى وجهى كأنما تود أن تخنقنى .. **وفى تلك اللحظة سمعنـا صوت الباب الخـارجى يفتح ، فتغير وجه المرأة فى الحال ، وبدأت ترتجف من رأسها الى قدمها .. ثم ضمت يديها فى حركة توسل ، وهمست لى مستعطفة : « بربك لا تثقل عليه . لابد أنه متعب الآن .. ضع نفسك مكانه . أشفق عليه ! »**

وفتح باب الحجرة ، ودخل الدكتور كوندور ، وسرعان ما أدرك الموقف ، فقال فى صوته الرقيق الذى يخفى فى العادة انفعالاته العنيفة : « أوه ! أرى أنك كنت ترحبين بســيدى الملازم .. كم هو لطيف منك ذلك ياكلارا ! » ، واتجـــه الى زوجته العمياء فربت على كتفها فى رفق ألان ملامح وجهها ، فقالت معتذرة فى خجل : « عفـوا ، ولكن كان لابد أن أصارح هذا السيد بأنك فى حاجة الى أن تتناول عشاءك حالا ، فانك ولاشك جوعان .. وقد ذكرت له أنه يحسن صنعا لو حضر غدا .. »

فقطع كوندور كلامها ضاحكا وقال : « لقد أخطأت هــذه المرة ، فليس الملازم هوفميلر مريضا ، بل هو صديق طالمـــا وعدنى بأن يحضر لزيارتى ، وعمله لا يتيح له الحضور الا فى الليل . ولكن دعينا من هذا ، فالشيء المهم الآن هو : هل عندك عشاء لنا ؟ » .. فتدخلت أنا فى الحديث قائلا : « شــكرا ! اننى لن أستطيع البقاء ، لأن على أن أسافر بقطار الســاعة العاشرة .. ولن يستغرق حديثنا أكثر من دقائق ! » .. لكن الطبيب رأى – ارضاء لزوجتـــه ، وتخلصا من الحاحهـــا وازعاجها لنا – أن يتناول عشاءه معها أولا ، كى يفرغ للحديث معى بعد ذلك . ونصح لى بأن أنتهز تلك الفرصـة فاضطجع على أريكة فى الحجرة كى أريح جسمى من أثر الاجهـاد الذى يبدو واضحا على وجهى !

وكان مصيبا ، وان لم أتنبه أنا لمدى تعبى الا بعد أن تمددت على الأريكة ، وأطفأ هو لى النور .. ويبدو أننى أغفيت ، فانى لم أشعر الا ويده على كتفى ، بعد أن عاد الى الحجرة عقب تناول العشاء . واذ حاولت أن أنهض ، قال لى محتجا : « ابق حيث أنت ، وسآتى أنا لأجلس بجانبك . ان الحديث فى الظلام أيسر وأفضل ، وكل ما أرجوه منك أن تخفض صوتك ، فليس أحد من حاسة السمع عند فاقدى البصر ! .. والآن ، صارحنى بما عندك ولا تخجل ، فقد أدركت لأول وهلة أن عندك جديدا ! »

ولعل الظلمة أذابت قدرتى على المكر والتكلف ، وعزمى السابق على اخفاء بعض الحقائق ، فوجدتنى أصارحه بكل شىء : بثورة اديث المفاجئة .. وانهيارها .. وعناقها المحموم .. وانزعاجى أنا ، وخوفى ، ونفورى !.. فأنصت الطبيب للقصة صامتا ، وحين فرغت منها قال : « اذن فهذا كان سر ما اعترى الفتاة من تغير ؟.. يا لغبائى ! كيف لم أستنتجه فى حينه ؟ لقد ارتبت فى أن تكون لهفة اديث المفاجئة على الشفاء نتيجة تدخل طبيب آخر فى العلاج ، لكنى لم أفكر فى أكثر الاحتمالات بساطة وتمشيا مع المنطق : وهو أن الفتاة تمر بالسن الطبيعية الملائمة للوقوع فى الحب !.. لكن أسوأ ما فى الأمر أن يحدث ذلك فى هذا الوقت بالذات ، وبمثل هذا العنف !.. يا للفتاة المسكينة !.. انها لن تقنع الآن بأى تحسن طفيف فى حالتها ، لن تقنع بغير الشفاء التام .. يا الهى ، أية مسئولية رهيبة قد أخذناها على عاتقنا ! »

فقلت وقد تولانى حنق مفاجىء على الأقدار التى ورطتنى فى هذه المحنة : « أنا من رأيك : ينبغى أن نضع حدا لهذا الجنون فى الوقت المناسب ! يجب أن تكون حازما معها ، وأن تقول لها : ان عاطفتها هذه ليست الا حماقة صبيانية !.. نعم ، يجب أن تقنعها بالاقلاع عنها ! » .. فقال ساخرا :

« أقنعها بالاقلاع عنها ؟ ما هذا الذى تقول ؟ ! أأقنع امرأة بالاقلاع عن الحب ؟.. بأن لا تحس شيئا ، تحسه هى بالفعل ؟.. هل سمعت يوما أن المنطق يقوى على العاطفة ؟ أو سمعت أن شخصا استطاع أن يقول للحمى : « أيتها الحمى ، تراجعى ! » .. أو يقول للنار : « أيتها النار انطفئى ! » .. أو تريدنى أن أقول لفتاة كسيحة مقعدة : « لا يدورن فى خلدك أن فى وسعك أن تحبى مثل بقية الناس ، فانها لوقاحة منك وأنت مشلولة أن تظهرى شعورا ما نحو أحد ، وتنتظرى من أحد أن يظهر شعورا نحوك !.. وما على مثلك الا أن تنزوى فى ركن قصى ، وتهجر كل أمل فى الحب ! » .. أهذا ما تريدنى أن أقوله للفتاة ؟ وهل فكرت فى النتيجة الرائعة التى تترتب على مثل هذه الخطوة ؟.. ولماذا تطالبنى أنا بأن أقول لها ذلك ؟ ! »

فأجبته : « لأنى لا أستطيع أن أقوله لها ! »

فقال : « نعم ، أنت لا تستطيع ، وينبغى ألا تفعل .. ينبغى ألا تظهر للمسكينة ـ سواء بالقول أو الاشارة ـ أن شغفها بك يضايقك ، أو لا يجد منك ترحيبا !.. ان ذلك يكون بمثابة الانقضاض على رأسها بفأس حادة ! »

قلت : « ولكن لا مفر لى من أن يصارحها أحدنا بأن .. أعنى بأن .. » .. فقطع كلامى قائلا : « ان ترددك لا ينم عن ضمير خالص ! فهل تعتزم ـ بسبب هذا الخطاب الذى أرسلته المسكينة اليك ـ أن تقطع صلة الصداقة التى بينكما ؟ »

لم أجب ، ولم أرفع عينى اليه .. فاتخذ صوته لهجة المحقق المتحدى ، وقال : « هل تدرك عاقبة انسحابك المفاجىء فى هذه الظروف ، بعد أن أدرت رأس الفتاة بشفقتك الغالية ؟ »

ولما بقيت صامتا مطرقا ، واصل كلامه فقال : « ما دمت تلوذ بالصمت ، فدعني أصارحك برأيي الشخصي فى هذا المسلك الذى تعتزمه : **ان الفرار على هذه الصورة يكون جبنا ونذالة !.. لا تؤاخذنى اذا لجأت الى هذا التعبير ، فان الأمر يتعلق بسعادة فتاة أعتبر نفسي مسئولا عنها الى حد ما ، وفى ظرف كهذا لا تنتظر منى أن أكون مؤدبا فى كلامى .. بل دعني أقل لك - كى تقدر ضخامة العبء الذى تحمل ضميرك اياه لو لذت بالفرار - ان تصرفك هذا يكون جريمة بشعة ضد مخلوقة بريئة ، بل أخشى أن يكون بمثابة جناية « قتل » !.. نعم ، قتل مع سبق الاصرار ، وأنت تعلم ذلك !** .. والا فهل يدور بخلدك أن تلك المخلوقة الأبية ، المرهفة الاحساس ، تستطيع أن تواجه الحياة اذا كانت - فى أول مرة تفتح فيها قلبها لرجل - تصدم بفرار هذا الرجل منها مذعورا ، كما لو كان يفر من شيطان ؟ !.. ألم تقرأ خطابها ، أم أنك بلا قلب على الاطلاق ؟ !.. ان أية امرأة عادية ، سليمة الجسم والنفس ، لا تتحمل مثل هذه الاهانة ، وصدمة كهذه كفيلة بأن تودى بعقل الفتاة !.. وان لم تقتلها الصدمة قتلت هى نفسها !.. نعم ، أنا واثق بأنها لن تستطيع مواجهة مثل هذا المسلك « الوحشى » ، وأنت تعلم هذا كما أعلمه أنا بالضبط . ولأنك تعلم ذلك فان فرارك الآن لا يعتبر فعلا ينطوى على الجبن والضعف فحسب ، وانما هو أيضا « جريمة قتل » شريرة متعمدة ! »

وأجفلت برغمى .. ففى اللحظة التى نطق فيها بكلمة « قتل » ، تراءى لى منظر سور الشرفة التى فى أعلى البرج ، وقد تشبثت به الفتاة وأطلت على الفضاء السحيق ، وأنا أجذبها الى الوراء ، فى الوقت المناسب !.. ان ما يقوله الدكتور كوندور لا مغالاة فيه ، فقد تقدم الفتاة على تلك الفعلة فى لحظة يأس !.. وأغمضت عينى ، فخيل الى أن الحادث قد

وقع فعـــلا ، وأحسست كأنى أنا نفسى أهوى من الطابق الخامس على الأرض الحجرية !.. بينما استمر الدكتور فى كلامه فقال : « هل تستطيع أن تنكر ذلك ؟.. وهل تعد عملا كهذا متفقا مع الشجاعة التى تنسبها لنفسك كجندى ؟ ! »

.. ووجدت صوتى أخيرا لأقول له : « يا سيدى الطبيب ، ماذا تريدنى أن أفعل ؟ اننى لا أستطيع أن أقول كلاما لا أعنيه ، فكيف أتصرف كما لو كنت أشجع وهمها الجنونى ؟ كلا ! لست أطيق ذلك ، لست أطيقه .. لا أستطيعه ولا أطيقه ! »

ويبدو أنى صحت مكررا هذه العبارة الأخيرة بأعلى صوتى ، فقد أمسك كوندور ذراعى بقبضته القوية وهو يقول : « هدىء من روعك ، والا اضطررت الى أن أعاملك كمريض .. والآن دعنا نتفاهم فى صراحة وهدوء : ما هو الذى لا تستطيعه ولا تطيقه ؟ لا تخجل من الاعتراف بحقيقة شعورك .. **انى أستطيع أن أفهم استياء الرجل الذى يفاجأ بامرأة تعلن عليه الحب هكذا ، فى حرارة وعنف ، فان الأخرق وحده هو الذى يفرح ويزهو باعجاب النساء ! أما الرجل ، بمعنى الرجولة فى الأخلاق ، فهو خليق بأن يستاء اذ يعلم أن امرأة قد تورطت فى حبـــه ، بينما هو عاجز عن أن يبادلها عاطفتها !..** كل هذا أفهمه جيدا ، لكننى لا أفهم هذا الذعر الشديد الذى يصيبك !.. فهل هناك عامل خاص ـ أجهله ـ يؤثر فى مسلكك ؟ !.. ولأكن أكثر صراحة : أعنى هل توحى اليك عاهة اديث ، بشىء من النفور أو الاشمئزاز الجثمانى ؟ »

فأجبت محتجا : « كلا !.. كيف تفكر فى شىء من هذا ؟ »

فقال ، وقد انبسطت أسارير وجهه : « هذا يطمئننى الى حد ما .. والواقع أن الطبيب يشاهد كثيرا من الحالات التى ينفر فيها رجال ـ طبيعيون للغاية ـ من أبسط شذوذ جثمانى فى المرأة ، بحيث يستحيل عليهم أن يمارسوا معها أية

صلة جنسية . ومن سوء الحظ أن هذا النفور ، شأنه شأن كل شعور غريزى ، يتعذر معالجته .. لهذا يسرنى أن أسمع منك أن سبب نفورك من أديث ليس شلل ساقيها . وفى هذه الحالة أستطيع أن أرجح أن انزعاجك من وقوع الفتاة فى هواك انما يرجع الى ظروف خارجية محضة - لا تتصل بك أو باديث - مثل خوفك من « كلام الناس » ، أو من سخرية اخوانك الضباط منك بسبب زواجك من امرأة كسيحة ! »

وشعرت كأن الرجل قد طعننى فى القلب مباشرة ، بابرة حادة من ابره ، فقد طالما أحسست - فى عقلى الباطن - بهذا الذى يقوله ، دون أن أتنبه اليه بعقلى الواعى .. فمنذ البداية كنت فريسة رعب دائم من أن يكتشف زملائى صلتى بالفتاة ، فيوسعوننى زراية واستهزاء ، شأنهم كلما شاهدوا واحدا منهم فى صحبة امرأة قبيحة الخلقة ، أو وضيعة المظهر !.. نعم ، لقد صدق كوندور : فمنذ صارحتنى الفتاة بحبها ، خجلت منها أشد الخجل ، وخجلت مما قد يقوله الناس عنى حين يعرفون النبأ !

وفى غمرة شرودى ، سمعت صوت كوندور يستطرد ، وهو يضع يده فى رفق على ركبتى : « كلا ، لا تخجل .. فلئن كان أحد يستطيع أن يفهم رعب الانسان من سخرية الآخرين ، فأنا هذا الشخص !.. انك قد رأيت زوجتى ، أليس كذلك ؟.. أتدرى كم قاسيت بسببها من كلام الناس ؟ لقد أشاع زملائى أنى تزوجتها لأننى أنا الذى أفقدتها البصر بسوء علاجى !.. وأكد آخرون أنى تزوجتها لأنها تملك ثروة طائلة ، أو لأنها تنتظر ارثا ضخما !.. حتى أمى بقيت عامين ترفض استقبالها فى بيتها ، لأنها كانت قد أعدت لى زيجة مغرية من ابنة أحد كبار الأطباء ذوى النفوذ ، ولو كنت فعلت ذلك لعينت خلال أسابيع أستاذا فى كلية الطب ، وضمنت بذلك لنفسى مستقبلا باهرا !.. **لكننى كنت أعلم أن « كلارا »**

– زوجتى الآن – سوف تنهار تماما لو لم آخذ بيدها فى محنتها .. فقد كانت تؤمن بى ، وبى وحدى ، ولو أنى انتزعت ايمانها منها ، لعجزت عن مواجهة الحياة !.. وأعترف لك بأنى لم أندم على اختيارى قط ، فان الحياة يغدو لها طعم ومتعة خاصة حين يشعر الانسان بأنه كان السبب فى اسعاد انسان آخر ، أو تخفيف آلامه ! »

كانت لهجة الدكتور كوندور عميقة الأثر فى نفسى ، فشعرت بشفقتى القديمة على الفتاة الكسيحة التعسة تتمطى فى صدرى من جديد ، وتوشك أن تنتعش ، وتقهرنى !.. لكنى اعتزمت أن أقتل هذه الشفقة فى مهدها ، وأقطع على نفسى خط الرجعة ، فقلت فى لهجة حازمة : « اصغ الى يا سيدى الطبيب : كل رجل يعرف حدود طاقته وقوة احتماله ، ومن ثم أبادر الى مصارحتك بأننى لست الشاب الطيب المضحى الذى تحسبه ، واننى قد بلغت الآن آخر حدود قدرتى .. وأقسم لك بشرفى العسكرى أنى جاد فى قولى انك ينبغى ألا تعتمد على فى مساعدة اديث بعد الآن ، وألا تغالى فى احسان الظن بى أكثر من اللازم ! »

.. ويظهر أنى كنت حازما فى لهجتى ، فقد التفت كوندور الى واجما ، ثم قال : « يبدو لى أن عزمك قد استقر على اجراء حاسم .. والآن صارحنى بالحقيقة كاملة : هل اتخذت خطوة لا رجوع فيها ؟ » .. فقلت : « نعم .. اليك هذه الورقة فاقرأها بامعان ! »

ومددت يدى الى جيبى فأخرجت منه خطاب استقالتى وسلمته اليه .. فقرأه فى روية ، ثم طواه وواجهنى قائلا ، فى هدوء صارم : « **أعتقد أنك – بعد كل ما ذكرت لك – تدرك عواقب الأمر حق الادراك ، وتعلم يقينا أن قرارك على هذا النحو يعنى حكما بالموت – أو بالأحرى بالانتحار – على الفتاة التعسة ! »** .. ولما لم أجب ، أردف يقول : « لقد وجهت

اليك سؤالا يا سيدى الملازم ، وأكرره الآن : هل تدرك العاقبة المحتومة لفرارك ؟.. وهل تحمل ضميرك المسئولية كاملة ؟ » .. ومرة أخرى لم أجب .. فاقترب منى ، ومد يده الى بالخطاب قائلا : « هاك استقالتك . انى أنفض يدى من المسألة كلها ! » .. لكن ذراعى شلت ولم أقو على رفعها ، ولم أجد الشجاعة لمواجهة نظرات محدثى ، فقال لى : « اذن .. أنت لا تنوى المضى فى تنفيذ هذا الحكم بالاعدام ؟ ! »

وحين أمعنت فى صمتى ، قال : « هل لى أن أمزقه ؟ » . وحينئذ أجبته : « نعم .. أرجو أن تفعل ! » .. فاتجه الطبيب الى سلة المهملات ، ودون أن أرفع بصرى سمعت صوت تمزيق الخطاب ، مرة ، فاثنين ، فثلاثا .. وشعرت بارتياح عميق !.. ثم عاد الطبيب فجلس فى مواجهتى ، وقال : « أعتقد أننا قد حلنا دون وقوع كارثة فظيعة .. والآن ، فلنبحث عن حل عملى للموقف : لقد لمست من قلقلة عواطفك ، وتعجلك فى الانقياد لأفكارك ، انك شخص لا يعتمد عليه ، ولا ينبغى أن توكل اليه مسئوليات ثقيلة ، تتطلب مثابرة طويلة وعزما راسخا .. لذلك لن أطالبك بالكثير ، أو أكلفك بغير الواجب الجوهرى اليسير : لقد اعتزمت اديث - من أجلك - أن تجرب العلاج الجديد المزعوم ، وسوف تسافر الى سويسرا بعد أسبوع كى تدخل مصحة (انجادين) .. وكل ما أطلبه منك هو أن تعاوننى بصفة مؤقتة ، خلال هذا الأسبوع الباقى على موعد سفرها ، وبعد ذلك تستطيع أن تسترد حريتك كاملة فيما يتصل بالأمر كله !.. والآن عدنى بألا تظهر للفتاة - خلال الأيام السبعة القادمة ، سواء بكلامك أو تصرفاتك - أن شغفها بك يثقل عليك أو يضايقك أدنى مضايقة .. **ركز كل همك فى ضبط مشاعرك خلال هذه الفترة القصيرة .. قل لنفسك ليل نهار : « لم يبق غير أسبوع ، ستة**

أيام ، خمسة أيام ، ثم يصبح فى وسعى أن أفخر بأنى أنقذت حياة انسان ! »

فسألته : « لكن ماذا سيتغير من الأمر بعد هذا الأسبوع ؟ »

فقال : « قد يحدث أى شىء ، فلندع ذلك فى يد الله وعنايته الالهية .. قد تتحسن حالة الفتاة فعلا خلال الأشهر التى تقضيها فى المصحة ، أو قد تشفى من حبها لك .. الى آخر هذه الاحتمالات المتنوعة التى ينبغى ألا تشغل نفسك بالتفكير فيها . فلنمنح المسكينة هذا الأسبوع من السعادة الخالصة ، والاطمئنان الكامل ، اللذين لا تشوبهما شائبة !.. فهل تستطيع أن تأخذ على عاتقك هذه المهمة البسيطة ؟ »

فأجبته ، وقد أمدنى بقوة جديدة شعورى بأن مهمتى باتت موقوتة ، قصيرة الأمد : « بكل تأكيد .. أعدك بذلك ! » .. واذ ذاك تنفس الطبيب الصعداء ، وأردف قائلا : « بقى شىء واحد : لو حدث خلال هذه الفترة ما يعرقل خطتنا : لو خذلتك أعصابك مثلا ، أو استيقظت شكوك الفتاة ، لسبب ما ، فعليك أن تتصل بى فورا . زرنى أو كلمنى بالتليفون ، فى أية ساعة من الليل أو النهار ، وسوف يسرنى أن أخف لنجدتك بغير ابطاء ، فان أتفه اهمال قد يكلف الفتاة غاليا .. وحذار أن تتخذ خطوة حاسمة بغير علمى ، مهما يكن الثمن . **ولو بدرت منك غلطة أو حماقة ما ، فاياك أن تخجل من أن تصارحنى بها فى الحال ، فنحن الأطباء نرى من الأجساد العارية ، والنفوس العارية ، ما يجعلنا نتسامح فى مخازى الطبيعة البشرية !**.. والآن هيا بنا نلحق بزوجتى فى الغرفة المجاورة ، فقد ترتاب فى حديثنا . ان الذين امتحنتهم الأقدار بضربات قاسية ، يعيشون طيلة حياتهم مرهفى الاحساس ، سريعى التأثر ! »

ونهض الطبيب فأضاء النور ، وعندئذ تنبهت ـ لأول

مرة ــ الى الأخاديد العميقة التى تغضن جبينه ، من فرط التعب والاجهاد .. فقلت لنفسى : « انه دائما يعطى من نفسه للآخرين ، ويهب راحته ، بل حياته ، للمعذبين ! » .. وشعرت فجأة باحتقار شديد لنفسى ، ولرغبتى الدائمة فى الفرار من مواجهة الحقائق الموجعة .. وكأنما أدرك هو ما يجول بخاطرى ، فابتسم وقال لى : **« كم يسرنى أنك جئت تفاتحنى فى الأمر .. فكر فيما عساه كان يحدث لو عمدت الى الفرار من المشكلة ببساطة ، وبلا ترو .. كانت مسئوليتك تجثم على صدرك مدى حياتك ، فان الانسان يستطيع أن يهرب من كل شىء ، الا نفسه !..** والآن تعال يا صديقى العزيز نجلس بعض الوقت مع زوجتى ، حتى يحين موعد قطارك .. »

.. وأثرت فى نفسى حرارة لهجته ، وتلقيبه اياى بصديقه العزيز ، فقد وقف على مبلغ ضعفى وجبنى ، ومع ذلك لم يحتقرنى !.. لقد كان شيخا مجربا ، وكنت حدثا متهورا .. وقد رد الى بتلك العبارة ثقتى فى نفسى ، فشعرت كأن حملا ثقيلا .. قد أزيح عن صدرى !

الفصل الثالث عشر

شفقة حائرة

● **عاودتنى** ثقتى بنفسى منذ وضع كوندور حدا للمهمة الملقاة على عاتقى ، ولم يعد يمضنى غير التفكير فى اللحظة التى سوف ألقى فيها اديث لأول مرة بعد مكاشفتها اياى بحبها ! .. كنت أعلم عن يقين استحالة ألا يعترينى ارتباك ما حين ألقاها بعد ذلك العناق الحار ، فان نظرتها الأولى لى فى لقائنا المنتظر لا يمكن الا أن تكون محملة بتساؤل معناه : « هل صفحت عنى ؟ .. هل تتقبل حبى ؟ وهل تستطيع أن تبادلنى

حبا بحب ؟ » .. نعم ، ان اللحظة الأولى التى سترفع فيها عينيها الى فى لهفة وخجل ، ستكون هى اللحظة الخطرة الحاسمة ، **فان كلمة واحدة خرقاء ، أو حركة واحدة ينقصها التوفيق ، قد تكشف لها عن الحقيقة بكل قسوتها ــ الحقيقة التى ينبغى الا أكشفها لها بأى ثمن ! ــ فتصيبها تلك الصدمة الباغتة التى حذرنى منها الدكتور كوندور .. ولكن اذا مرت تلك اللحظة بخير فانى أكون قد نجوت ، وأنقذتها هى أيضا ! .**

وهكذا مضيت بعد ظهر اليوم التالى الى قصر كيكسفالفا ، فلم أكد أتقدم فى الردهة حتى أدركت أن اديث قد أعدت ــ مثلى ــ لتلك اللحظة الحرجة عدتها ، فدعت بعض من تعرف لزيارتها فى الساعة التى اعتدت أن أصل فيها ، كى يتم لقاؤنا الأول على غير انفراد ! .. وقدمتنى ايلونا الى الزائرتين ، وكانتا زوجة « مأمور » المنطقة وابنتها ، فجلسنا جميعا نتبادل الأحاديث .. وهكذا استطعت أن أتجنب النظر الى اديث ــ وان شعرت بنظرتها تستقر على بين حين وآخر فى قلق مكتوم ــ وحين نهضت الزائرتان آخر الأمر ، ذكرت ايلونا أنها ستتركنا نحو ساعة كى تعد بعض معدات السفر ، واقترحت أن نقضى هذه الساعة فى لعب الشطرنج .. فلما خرجت ، سألت اديث فى لهجة عادية : « هل تحبين أن نلعب ؟ » ، فأجابت وهى تخفض عينيها : « نعم ، يسرنى ذلك » .. وبدأنا نلعب ، وقد لاذ كلانا بصمت صارم . **كان كلانا يخشى أن تفضح كلمة منه مشاعره ، أو تقوده الى موقف حرج ، فاستغرقنا فى اللعب استغراق أساطين اللاعبين الذين يركزون اهتمامهم فى اللعبة وينسون كل ما عداها !** .. لكن اديث لم تلبث أن تورطت فى بضعة أخطاء متتالية نمت عن شرودها ، وأدركت من حركة أصابعها أنها لم تعد تحتمل الصمت المرهق للأعصاب .. و فى منتصف المباراة الثالثة دفعت منضدة اللعب عنها قائلة : « هذا يكفى .. أعطنى سيجارة ! » .. فمددت

اليها يدى بالعلبة المذهبة ، وأشعلت لها سيجارتها بعود ثقاب .. وفيما أنا أفعل ، لم أستطع تجنب النظر الى عينيها . كانت نظرتهما مركزة على لا شيء ، على الفضاء السحيق ، وقد تجمدت فيهما نظرة غضب باردة ، وارتفع حاجباها فى شبه قوس مختلج .. الأمر الذى دلنى على اقتراب عاصفة من عواصف انفعالها ، فهتفت بها مناشدا فى انزعاج : « كلا بربك .. كلا ! » .. لكنها مالت فى مقعدها الى الخلف ، وتشبثت يداها بمسندى المقعد فى عصبية ، وقد بدأ جسدها كله ينتفض ، وأسنانها تصطك ، فى شبه نوبة بكاء صامت مكتوم ! .. وعدت أناشدها فى فزع حائر وقد عجزت عن أن أجد ما أقوله لها ، فرحت أردد : « كلا .. كلا ! » ، ثم انحنيت نحوها مرتاعا ووضعت يدى على ذراعها ، كى أهدئها .. **فاذا بها وكأن تيارا من الكهرباء قد سرى من ذراعها الى جسمها كله ، فتوقفت رعدته فجأة ، وسكن ! .. وبدا لى كأن كل ذرة فيه قد انشغلت باستنباط مغزى هذه اللمسة منى : هل تدل على ميل ، أو حب .. أو مجرد شفقة ؟ .. لكنى لم أجد فى أصابعى القوة على تحويل تلك اللمسة الخفيفة الى القبضة العارمة التى أحسست أن جسد الفتاة الملتهب ينتظرها بصبر نافد ، فتركت يدى راقدة على ذراعها فى استكانة ، وكأنها ليست جزءا منى !**

.. ولا أدرى كم بقينا على هذا الوضع ، حتى تنبهت على يدها اليمنى تدفع يدى تلك فى رفق عن ذراعها كى تجذبها الى موضع قلبها ، ثم تطبق عليها بيسراها وتعتصرها بين يديها فى حياء رقيق ، وتهيب ، وهى تعبث بأصابعى بين حين وآخر عبثا حنونا ، خيل الى معه أنها باحتضانها هذا الجزء الصغير منى ـ الذى أسلمتها اياه ـ انما تحتضن جسدى كله ! .. ثم غاصت فى مقعدها وأغمضت عينيها ، كمن تحلم ، بينما انفرجت شفتاها قليلا وشاعت فى محياها اشراقة هادئة ـ

شأن من تنعم بسكينــــــة نفس كاملة ـ ويداها ماضيتان فى عبثهما الناعم بأصابعى وراحة يدى ! .. ولا أذكر أنى انتشيت يوما بعناق امرأة ، أيا كان عنفه ، مثلما انتشيت ساعتئذ بتلك المداعبة الرقيقة بالأيدى ، وذاك العبث الحالم .. حتى لقد خيل الى أن حواسى كلها قد تأثرت بمخدر سحرى أفقدنى القدرة على سحب يدى .. **وتذكرت وأنا أنعم بدغدغة أناملها لبشرتى ، فى شبه حلم ، هذه العبارة فى خطابهــــا : « كل ما أطلبه منك أن تدعنى أحبك فى صمت ! » .. فشعرت بخجل عميق ازاء هذا الحب العارم ، الذى لا أجد له فى نفسى صدى غير الاضطراب الحيى والنشوة الحائرة !**

.. وشيئا فشيئا بدأ جمودى يثقل على ! وأحسست بالحرج من تركى يدى هكذا بلا حراك ، وكأنها ليست منى !.. وكان لابد أن أفعل شيئا ، أصد به شغفهـــا الشــديد ، أو أستجيب له ! .. لكنى لم أجد فى نفسى القوة على هذا ، أو ذاك ! .. وحدثتنى نفسى بأن أضع حدا لهذه اللعبة الخطرة ، فبدأت أحرك عضلات يدى فى حذر ، كى أستردها من قبضة الفتاة اللينة ، فى رفق ولباقة .. لكن اديث سرعان ما أدركت ـ بحساسيتها المرهفة الحادة ـ أنى أوشك أن أسحب يدى ، فأتت بحركة مفاجئة أخلت بها سبيلى .. واذ ذاك لم أشعر الا وقد زال عن بشرتى دفء الملمس الناعم ، فاستردت يدى المهجورة فى شىء من الارتباك .. بينما غام وجه الفتـــاة وبدأ فمها يختلج برعشة الانفعال المكتوم ، فهمست لها منزعجا : « كلا . كلا بربك !.. لن تلبث ايلونا أن تأتى بعد لحظة .. » ، فلما لم تفلح كلماتى السخيفة الجوفاء فى تهــدئة ثائرتها ، تملكتنى نوبة من الشفقة المباغتة فانحنيت عليها .. **وطبعت** قبلة سريعة على جبينها !

ولكن عينيها ظلتا جامدتين ، تحدجاننى بنظرة فاحصـة نفاذة ! .. لقد فشلت فى أن أخدعها ، وأدركت المسكينة أنى

بسحب يدى قد تنصلت من عناقها ، وان قبلتى ((الطائرة)) لم تكن دليل حب حقيقى ، ولا تزيد على كونها دليل ((شفقة)) حائرة ! ●●

● وفى الأيام التالية ، تكررت منى هذه الحماقة التى لا سبيل الى غفرانها أو التكفير عنها ! لقد عجزت — برغم كل جهودى اليائسة — عن أن أحشد ما بقى لى من القوة والصبر للقيام بمحاولة ناجحة لاخفاء مشاعرى .. ولم يجد تصميمى على أن لا أفضح — سواء بالقول ، أو النظرة ، أو الاشارة — نفورى من حبها ! .. وكلما ذكرت نفسى ، مرارا وتكرارا ، بتوصيات الدكتور كوندور فى شأن خطر الموقف ، وفداحة مسئوليتى فيما لو خدشت مشاعر هذه المخلوقة التعسة ، رحت أحدث نفسى ملحفا : دعها تحبك ، وأخف شعورك الحقيقى أسبوعا واحدا ، كى تحفظ لها كبرياءها ، ولا تدعها ترتاب فى انك تخدعها .. حاول أن تكسب صوتك حرارة ، ولمساتك شغفا وحنانا !

.. على أن جو اللقاء بقى برغم ذلك مشبعا دائما بتوتر غامض خطر : فان العاشقة الوالهة كانت لا تفتأ تستشف ((حقيقة)) شعورى ، بعد أن باحت لى بحبها على ذلك النحو .. ثم ان الحب بطبعه لا يقبل الاعتدال ، ولا يقر الحدود والقيود ، ومن ثم راحت تفسر كل تحفظ أو تردد منى فى الاستجابة لحبها ، بأنه دليل مقاومة خفية ! .. **ولابد أن لهجتى قد وشت بشىء من الحيرة والاضطراب ، أو أن مسلكى قد نم عن ارتباك مكتوم ، فخرجت الفتاة من ذلك بنتيجة واحدة : هى أنى لا أبادلها الحب !**

.. وعلى هذا المنوال من فشلى فى مهمتى ، انقضت أيام ثلاثة من الأسبوع ، كانت عذابا متصلا ، لى ولها ! .. وكنت طيلة الوقت أحس بالترقب الأخرس ، الظامىء ، فى نظراتها

.. وفى صمتها ! .. وفى اليوم الرابع ، لاحظت على مسلكهـا معى أعراض عداء ، شبه صريح ! .. كنت قد توجهت لزيارتها بعد الظهر كعادتى ، وأخذت لها معى باقة من الأزهار ، تناولتها منى دون أن تنظر اليها ، ثم وضعتها جانبا فى غير اهتمـــام ، وتحصنت وراء ستار صارم من الصمت المتحدى ! .. ولما حاولت أن أستدرجها الى الحـديث ، فى شتى الموضوعات ، كانت تجيبنى اجابات قصيرة شاردة توحى — فى وضوح مهين — بأن وجودى يضايقها ! .. أو تتشاغل أثناء كلامى بتقليب صفحات كتاب ، أو العبث بأى شىء تجده فى متناول يدها .. ثم تثاءبت مرتين ، ونادت الخادم لتسـأله عن بعض اجراءات السفر ، وعادت تسألنى : « ماذا كنت تقول !؟ »

وبعـد ساعات قضيناها فى هـذا الجو من التوتر ، أقبل كيكسفالفا يدعونا الى مائدة العشـــاء . وجلست اديث فى مواجهتى كالعادة ، لكنها لم ترفع عينيها لحظة عن طبق الطعام الذى أمامها ، ولم توجه الى أحدنا كلمة واحدة .. فأحسسنا جميعا بمدى ما ينطوى عليه صمتها العنيد ! وحاولت أنا أن أزيل شيئا من حرج الموقف ، فجعلت أثرثر بقصص شتى عن قائد فرقتنا ، ومبلغ ما يرهقنا به من الأعمال فى الأيام الأخيرة. وفى أثناء كلامى ذكرت أننى وجدت صعوبة كبرى فى انهاء عملى يومئذ فى الوقت المناسب كى أزور الأسرة كعادتى ، وان من الرجم بالغيب أن أجزم بما اذا كنت سأتمكن من تأدية زيارة الغد أم لا ؟ ولم أكن أرمى بعبارتى هذه الى معنى معين ، بل كنت أوجه كلامى الى كيكسفالفا فى لهجة مزاح خالصة . ولكن حدث فجأة أن قطع حديثنا صوت حاد ، اذ ألقت أديث سكينها فوق طبقها فى عصبية ، وصاحت غاضبة : « اذا كان يضايقك أن تحضر ، فيحسن أن تبقى فى معسكرك أو مقهـاك ، فنحن نستطيع أن نعيش بدونك ! »

.. وأمسكنا جميعا أنفاسنا من هول المفـاجأة ـ وكأن

شخصا أطلق رصاصة من الخارج اخترقت زجاج النافذة ! ـ بينما هتف الأب منزعجا : ((اديث !)) .. لكنهـــا مضت فى كلامها قائلة : ((لعل من المناسب أن نعطيه ((أجازة)) ولو يوما واحدا ، نعفيه فيه من زيارتنا !)) .. وتبادل كيكسفالفا وايلونا نظرة فيها كل دلائل الحرج ـ ولعلهما أحسا أنى كنت ضحية بريئة لاحدى نوبات انفعال « اديث » الحادة ! ـ ثم نظرا الى فى لهفة توحى باشفاقهما من أن أرد على خشونة الفتاة بمثلها ! .. وحاولت أن أضبط مشاعرى ، فقلت بقدر ما وسعنى من هدوء : « أعتقد أنك على حق يا اديث ، فان ارهاقى بالعمل فى الأيام الأخيرة جعلنى شخصا لا تروق الناس صحبته . وقد شعرت اليوم ـ من مسلكك طيـلة الوقت ـ أننى أضجرتك وضايقتك ، ولكن لعلك تستطيعين أن تصبرى على زياراتى بضعة أيام أخرى . . أربعة أيام فقط ، أو بالأحرى ثلاثة أيام ونصف! »

وعند هذا أطلقت الفتاة ضحكة عصبية حادة ، وقالت : « اســـمعوا ما يقول : ثلاثة أيام ونصف .. هاها ! .. انه يحسب باليوم والساعة مدى الزمن الذى سوف يتخلص بعده منا ، آخر الأمر ! .. وأحسب أنه قد اشترى خصيصا أحد التقاويم ووضع علامة باللون الأحمر على يوم رحيلنا .. هاها ! .. ثلاثة أيام ونصف .. ونصف ؟ ! » .. وظلت تضحـــك وتضحك وهى ترمقنا بعينيها ، وجسدها يرتجف كالريشة ! وأحسست أنها لو لم يعقها شلل قدميها لقفزت من مقعـدها مندفعة ، تنفيسا عن ثورة انفعالهـــا ، فقـد كانت من فرط عجزها عن الحركة وهى غضبى أشبه بالوحش الحبيس فى قفص ! .. ثم أبدت لايلونا حركة تنم عن رغبتها فى الانصراف من المكان ، فأعانتهـــا وأبوها على الذهاب الى مخـدعها . وخرجت دون أن تتوجه الى بكلمة وداع أو اعتـذار ، تاركة اياى فى حالة ذعر ودوار ، شأن من سـقط من حالق .. فى هوة سحيقة !

.. وبعد لحظات ، عادت ايلونا لتهمس لى فى اضطراب : « ينبغى أن تحاول فهم حالتها ! انها لا تكاد تنام ساعة واحدة طوال الليل . ان فكرة السفر تسبب لها بلبلة رهيبة ، انك لا تعرف .. » .. فقاطعتها بقولى : « بل أعرف يا ايلونا .. أعرف كل شىء .. ولهذا سأحضر غدا أيضا ! » .. ثم انصرفت ليلتئذ وأنا أقول لنفسى : **« احتفظ بثباتك ولا تدع صبرك يخور ! .. قاوم بأى ثمن ! انك وعدت كوندور بذلك ، وبات شرفك معلقا فى الميزان . فلا تجعل نوباتها وثورات أعصابها تفسد مهمتك . واذكر دائما ان هذا العداء والتحدى هما نتيجة اليأس الذى تعانيه مخلوقة تتدله فى حبك ولا تجد منك غير فتور مثير ، وقلب مغلق ! .. قاوم حتى اللحظة الأخيرة** . لم تبق غير أيام ثلاثة ، ونصف يوم ، وتكون قد اجتزت الامتحان بنجاح ، وتعفى من عبئك الثقيل أسابيع أو شهورا طويلة ، وربما الى النهاية !.. فصبرا مرة أخرى .. ثلاثة أيام .. ونصف يوم ! »

وقد كان كوندور على حق ، فان الأعباء غير المحدودة بأجل هى التى تفزعنا .. ومن ثم شعرت وأنا آوى الى فراشى فى تلك الليلة أننى سوف أنجح فى تحمل عبئى خلال الأيام القليلة الباقية .. وأمدنى شعورى هذا بثقة مجددة فى نفسى ، فأديت عملى فى نهار اليوم التالى بنشاط كامل وجلد مثالى ، حتى أنى ظفرت بكلمة اعجاب من قائد الفرقة !.. وقبيل الظهر ، اقترب منى أحد الجنود وهمس فى أذنى : « مكالمة تليفونية لسيدى الملازم » ، فهرعت الى حجرة التليفون منزعجا وأنا أقول لنفسى : « أن مكالمات التليفون والبرقيات والخطابات صارت تعنى بالنسبة لى متاعب جديدة ، وأنباء سيئة .. ترى ماذا تريد منى فى هذه المرة ؟ ! » .. لكننى فوجئت بأن ايلونا هى التى تتكلم ، وقالت بصوت فيه مسحة من الاضطراب : « لعله يحسن ألا تحضر اليوم ، فان اديث ليست

على ما يرام !» .. فقلت لها : « أرجو ألا يكون توعكها خطيرا ؟ » .. فأجابت بعد تردد قصير : « ليس فى الأمر خطر .. ولكنى أرى من الأفضل أن ندعها تستريح اليوم ، سيما وأن يوما واحدا لن يقدم أو يؤخر ، فأكبر الظن أننا سنضطر الى تأجيل سفرنا ! » .. وهنا هتفت بها منزعجا ، أسألها دون وعى : « ماذا ؟ » .. فأجابتنى على الفور : « لبضعة أيام فقط ، فيما نرجو .. وعلى أية حال ففى وسعنا أن نتحدث فى الأمر غدا ، أو بعد غد .. وقد أتصل بك بالتليفون مرة أخرى .. وفى انتظار ذلك أرجو ألا تحضر اليوم ، اذا لم تر بأسا .. و .. و .. الى اللقاء ! » .. ثم وضعت السماعة حتى لا تتيح لى فرصة المضى فى المحادثة !

عجبا ! لم أنهت المكالمة بمثل هذه العجلة ، كأنما تخشى أن أوجه اليها مزيدا من الأسئلة ؟.. وما علة تأجيل السفر ؟.. لابد أن وراء ذلك سرا !.. والأسبوع الذى تنتهى بعده مهمتى ، هل معنى ذلك انه سوف يمد ، بعد أن كاد ينتهى ؟ مستحيل ! .. انى لن أتحمل ذلك ، فان لى أعصابا أنا الآخر ، ومن حقى أن أنال قسطا من الراحة !

وحين عدت بعد هذه المحادثة ، كانت ساعة الغداء قد حانت ، فجلست الى المائدة بين نفر من زملائى ، شاردا ، تدق صدغى مطارق متوالية تهتف فى وعيى : « تأجل السفر .. تأجل السفر .. تأجل السفر ! .. لابد من سبب لهذا التأجيل . لابد أن شيئا قد حدث .. هل اديث مريضة حقا ؟ .. لقد احتملت حرج موقفى نحوها أربعة أيام كاملة ، ووطنت نفسى على ثلاثة أخرى .. أما بعد ذلك فلن أستطيع صبرا .. لن أستطيع ! .. لن أدع القوم يلهون بى .. لن أدعهم يمزقون أعصابى أكثر من ذلك . كفانى ما قاسيت من عذاب بسبب تلك الشفقة اللعينة التى تكاد تقودنى الى الجنون ! »

وأحسست أننى يجب أن أفعل شيئا .. أقوم بحركة

عنيفة – مثلا – تخفف الضغط عن أعصابى ، أو أحطم أكواب الماء بين أصابعى ، أو أقذف بها فوق بلاط القاعة ! .. فنهضت وغادرت المكان دون أن أذوق طعاما ، خشية أن أرتكب حماقة على مرأى من اخوانى جميعا !

وفى الخارج سمعت بعض الزملاء يتراهنون على ترويض جواد جامح ، فتطوعت للقيام بالمهمة ، كى أشفى بعض غليلى .. وبعد أن أفرغت ثورة نفسى فى ركل الحيوان المتمرد مدى ساعة كاملة ، وسط صيحات الاعجاب من زملائى ، ركضت بالجواد الذى أسلست قياده ، منطلقا به فى نزهة طويلة قصدت بها أن أروح عن نفسى ! .. وكم كانت دهشتى حين التقيت فى الطريق المؤدى الى البلدة بسيارة كيكسفالفا ، تقل صاحبها وصديقه الدكتور كوندور الى وجهة مجهولة ! .. ولمحنى الاثنان فحيياني من داخل السيارة دون أن يأمرا السائق بالوقوف ! عجبا ! .. أيحضر الطبيب من فيينا دون أن يخطرنى أو يتصل بى ؟ ثم يرانى فى الطريق فلا يتوقف ؟ ! ثم كيف يحضر فى موعد عيادته ؟ لابد أنهم قد استدعوه لأمر عاجل .. **لابد أن شيئا قد حدث ، شيئا يحرصون على ألا أعلمه !.. ترى هل الحقت الفتاة اذى بنفسها ؟.. لقد بدت على وجهها ليلة أمس مسحة من التصميم على شىء ، ومن الاحتقار للجميع ، شأن من تدبر أمرا رهيبا !**

وسألت نفسى : « ألا ينبغى أن الحق بكوندور فى المحطة لأستفسر منه عن جلية الأمر ؟ .. ولكن لعله ترك لى رسالة فى المعسكر ، أو لعله ينتظرنى بنفسه هناك ، فانه لا يمكن أن يسافر ويتركنى فريسة لهذه البلبلة الفظيعة .. فلأسرع بالعودة !

● ●

● **وحين** وصلت ، استقبلنى تابعى قائلا ان هناك رجلا بملابس مدنية ينتظرنى فى غرفتى .. لقد صدق حدسى ولم يخلف كوندور ظنى ! .. لكننى لم أكد أفتح الباب ، حتى

وجدت نفسي وجها لوجه أمام : كيكسفالفا !

وابتدرني الرجل قائلا ، في أدبه المفرط المثير : « اغفر لي اقحامي نفسي عليك هكذا على غير انتظار يا سيدي الملازم ، لقد كلفني الدكتور كوندور أن أحمل اليك اعتذاره وأسفه الشديد لعجزه عن التوقف أثناء اسراعه الى المحطة ، خشية أن يفوته القطار ! »

كان محدثي واقفا أمامي وقد أحنى رأسه ، كأنما يثقله حمل غير منظور ! .. وأدركت من هيئته أن عنده شيئا آخر يود لو يفضي به الى ، سيما وأني لم أعقل أن شيخا مثله ـ ضعيف القلب والبنية ـ يجهد نفسه ويصعد السلم الى الطابق الثالث ، لمجرد ابلاغي تحية كان في وسعه أن يبلغني اياها بالتليفون ! .. لكني مع ذلك لم أشأ أن أستفسر منه عن شيء ، أو أبدأ الحديث ، فقد حدثتني نفسي بأن أكون منه على حذر ، فلا أقع في فخه كما وقع الشاب في فخ « الجني » في قصة (ألف ليلة وليلة) التي قرأتها منذ ليال .. فاكتفيت بأن قلت له :

ـ انه لطف كبير منك يا هر فون كيكسفالفا ، أن تجشم نفسك كل هذه المشقة من أجلي .. هلا تفضلت بالجلوس ؟

وجلس كيكسفالفا صامتا .. وبعد أن تشاغل هنيهة بتنظيف زجاج نظارته ، بدا كأنه يئس من أن أستدرجه أنا الى الحديث ، فأخذ يتكلم وهو ينظر الى قاعدة المنضدة التي بيننا ، متحاشيا عيني .. قال : « ليس من حقي أن أغتصب المزيد من وقتك أيها الملازم .. **ولكن ماذا في وسعي أن أفعل ؟ لم أعد أتحمل أكثر مما تحملت .. الله وحده يعلم ما أصابها في اليومين الأخيرين ! .. انها تأبى أن تصغي الينا ، وتزعم أنها مريضة . لكني لا أعلم ما بها !** .. انها مسكينة تعسة ، الى حد اليأس .. ويأسها هو الذي دفعها الى أن تعدل عن السفر ، وتصر على هذا العدول ، برغم اعدادنا العدة له

وحجزنا أمكنة لنا فى عربة النوم !.. والذى يدهشنى أنها كانت ـ حتى أمس ـ أكثرنا حماسة للسفر ، واستعدادا له . ولكن فجأة ، بعد العشاء ، ثارت وأعلنت أنها لن تسافر ، بأى ثمن ، ولو تهدم البيت فوق رأسها !.. وأنها فقدت اهتمامها بالعلاج الجديد ، بل يخيل اليها الآن أنه خدعة يراد بها ابعادها !.. انها تصرخ فينا قائلة : **« لن تستطيعوا خداعى وتعذيبى بعد الآن .. لقد سئمت كل هذه التجارب العقيمة .. سئمت هذه الأكاذيب . انى أفضل أن أظل كسيحة .. لست أريد أن أشفى .. ما فائدة شفائى الآن وهو .. لا يشعر نحوى بغير .. الشفقة ! »**

.. وسرى تيار كالثلج فى نخاعى حين نطق كيكسفالفا بالعبارة الأخيرة !.. لم يكن حتى تلك اللحظة قد أظهر لى ما ينم عن علمه بعاطفة ابنته اليائسة ، ربما من فرط خجله منى بعد أن رددتها خائبة !.. أما وقد أفصح الآن ، فقد انعقد لسانى ، وحرصت أنا أيضا على تجنب النظر الى عينيه !.. وانعقدت فى سماء الحجرة كلها سحابة من الصمت الثقيل المرهق !

ومن أنفاس الشيخ اللاهثة أدركت أن هذا الصمت يوشك أن يخنقه ، وأن شرايينه توشك أن تنفجر !.. وقبل أن أتنبه ، لمحته يسقط فجأة أمام مقعده ، وينقلب المقعد وراءه .. فكان أول خاطر ومض فى ذهنى أنه أصيب بنوبة قلبية ، كما توقع له كوندور منذ زمن .. فهرعت من فورى كى أرفعه وأرى مايمكن عمله لاسعافه .. وعندئذ فقط تبينت الحقيقة : انه قد انزلق من مقعده عامدا ليجثو على ركبتيه ! .. لم أكد انحنى عليه ، حتى تناول يدى وراح يناشدنى فى توسل : **« يجب أن تنقذها .. انك الوحيد الذى يستطيع انقاذها .. حتى كوندور يقول ذلك !.. أنت ولا أحد غيرك .. أتوسل اليك ، ارحمها !.. لا يمكن أن تستمر الحال على هذا**

المنوال . انها سوف تقضى على نفسها فى نوبة من نوبات اليأس ! انها تقسم على ذلك وهى تشهق بالبكاء ، زاعمة أنها بذلك تريحك وتريحنا جميعا .. وهى ليست هازلة .. فلقد حاولت الانتحار مرتين من قبل ، ابتلعت مرة أقراصا منومة ، وقطعت فى المرة الأخرى وريدا فى رسغها . وهى متى اعتزمت أمرا ، لا تتراجع عنه !.. أنقذها بربك .. أقسم لك أن المسألة باتت مسألة حياة أو موت ! »

وكنت قد رفعت الشيخ المحطم حتى أوقفته على قدميه ، وهو ماض فى توسلاته .. ثم قال له آخر الأمر : « ولكن قل لى ماذا تريدنى أن أقول لها .. وماذا ينبغى أن أفعل ؟! » .. وعندئذ أفلت ذراعى من يديه وحدق فى كالمأخوذ قائلا : « ماذا ينبغى أن تفعل ؟ أأنت لا تفهم حقا ؟ أم أنك لا تريد أن تفهم ؟!.. ألم تفتح هى قلبها لك ، وتعرض نفسها عليك ؟.. ان المسكينة تكاد تقتل نفسها خجلا من أجل الخطاب الذى أرسلته اليك فلم ترد عليه !.. انها تعتقد أنك تبغى الخلاص منها ، وانك تحتقرها !.. ألا تدرك أن الموت أهون على مثلها من هذا الشك القاتل الذى تتركها ــ بصمتك ــ فريسة له ؟.. لم لا تقول لها كلمة تبث فى نفسها شيئا من الأمل ؟.. **لماذا تعامل المسكينة بهذه القسوة ، وتعذبها هذا العذاب الفظيع ؟.. انك تكاد تقودها الى الجنون بجمودك ، فى حين أنها لا تعيش الا فى انتظار شىء واحد ، بل كلمة واحدة .. هى الكلمة التى تنتظرها كل امرأة من الرجل الذى تحبه !** .. وهى ما كانت لتأمل شيئا عندما كان شفاؤها مشكوكا فيه ، أما الآن ــ وقد بات مرتقبا فى خلال أسابيع ــ فلم لا تطمع المسكينة فيما تنعم به غيرها من النساء ؟.. لقد أذلت نفسها لك ، وأنت تضن عليها بالكلمة الوحيدة التى يمكن أن تسعدها !.. فهل تزعجك الفكرة الى هذا الحد ؟.. انك تستطيع أن تنال كل ما يحلم به انسان على هذه الأرض ،

اذ لا يخفى عليك أنى رجل مريض ، طاعن فى السن ، وسوف أترك كل ما أملك : الضيعة والقصر ، والستة أو السبعة ملايين التى شقيت فى جمعها طيلة أربعين عاما .. **كلها ستكون لكما ، غدا اذا أردتما ، أو اليوم ، فما عدت أطمع فى شىء !.. كل ما أتمناه شخص طيب القلب يعنى بطفلتى ويرعاها بعد أن أموت .. وأنا أعلم أنك تستطيع أن تكون هذا الشخص ! »**

وخذلته قواه ، فمال برأسه على المنضدة وأخفى وجهه بيديه ، حتى لقد أحسست نحوه بعطف بالغ .. فقلت وأنا أنحنى فوقه : « هر فون كيكسفالفا : لا تضن على بثقتك . سوف نتدبر الأمر كله فى هدوء ، وأنى أضع نفسى تحت تصرفك .. سأفعل كل ما فى وسعى .. لكن الشىء الذى أشرت اليه الآن .. مستحيل ، مستحيل اطلاقا !.. ضع نفسك مكانى : من أنا ؟ ضابط بسيط يعيش من مرتبه الضئيل الذى لا يكفى شخصين بحال .. أعلم ما تريد أن تقول .. انك غنى .. وأستطيع أن أحصل منك على ما أريد .. ولكنى لهذا السبب بالذات لا أستطيع تحمل مجرد التفكير فى الأمر ! **سوف يقول الناس جميعا أنى تزوجتها طمعا فى مالها .. واديث سوف تعيش حياتها معذبة بهذا الشك ذاته ! .. وستشعر أنى قبلتها من أجل ثروتها وحدها ، وغضضت الطرف عن الاعتبارات الخاصة الأخرى .. صدقنى يا هر فون كيكسفالفا أنى لا أستطيع ، برغم تقديرى واعجابى بابنتك !.. انك تقدر موقفى ، أليس كذلك ؟ »**

وبقى الرجل صامتا لا يتحرك ، ثم تحامل على نفسه ووقف ، وبعد أن لبث فترة يترنح ــ كمن به دوار ــ قال لى أخيرا بصوت كأنه آت من بعيد :

ــ اذن .. فقد انتهى كل شىء !

ودون أن يخفض بصره الشارد ، أخذت أصابعه تتحسس مكان نظارته على المنضدة ، حتى اصطدمت بها فتناولتها ،

لكنه بدلا من أن يثبتها على عينيه ، وضعها فى جيبه بغير مبالاة .. ما فائدة النظر بعد الآن ، وما جدوى العيش كله ؟ .. ثم التقط الشيخ الفانى قبعته — بالطريقة نفسها — واستدار ليذهب ، وهو يغمغم ، دون أن ينظر الى : « اغفر لى !.. انى أزعجتك .. » .. ثم كأنما تذكر شيئا ، فخلع قبعته وانحنى لى ، وكرر العبارة ذاتها !

.. وكانت هذه الحركة من التأدب البالغ ، برغم اليأس القاتل ، هى التى قلبت موازين قلبى .. فوجدت نفسى — مرة أخرى — فريسة مستضعفة لشفقتى !.. وشعرت بتيار دافق حار من الرحمة الحانية ينبثق فى أعماقى ، فيرسل الدمع المحرق الى عينى .. **بل شعرت بقلبى يذوب ، وعزمى يضعف وينهار .. ولم أستطع أن أدع الرجل المسن يذهب كسير القلب ، وهو الذى جاء ليهبنى ابنته ، أعز مخلوقة عليه فى الأرض !..** لم أستطع أن أنتزع حياته من جسده ، وأسلمه لليأس والموت .. بل وجدت من واجبى أن أقول له شيئا يرد له بعض أمله ، فاندفعت خلفه هاتفا :

— هر فون كيكسفالفا ، لا تسىء فهمى .. لا تذكر لها انى .. ان هذا سوف يضرها أبلغ الضرر فى حالتها الراهنة .. ثم انه .. غير صحيح أيضا !

لكن الرجل بدا كأنه لا يسمعنى !.. كان اليأس قد أحاله الى شبه عامود من الملح ، الى جثة حية !.. فازدادت لهفتى على تخفيف ما به ، وأردفت قائلا :

— أقسم لك أنى لم أقصد أن أهين اديث ، أو أجعلها تعتقد أننى غير مشغوف بها ، فلا أحد يكن لها مثل العاطفة التى أكنها لها .. وكل ما قصدته أن من غير المجدى أن أصرح لها بشىء من ذلك الآن ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن ينحصر اهتمامها فى العناية بنفسها ، وفى أن تحصل على الشفاء المرجو !

وهنا استدار الرجل وقد دبت الحياة فى عينيه ، اللتين كانتا خامدتين ، وسألنى : **« وماذا بعد أن تشفى ؟ ! »** .. فأجبته ، وقد تذكرت أن آمالها فى الشفاء ليست غير أضغاث أحلام : **« حين تشفى .. سوف آتى بلا شك وأسألك .. »** .. وحدق الرجل فى هنيهة ، وقد هزت جسمه رعدة قوية ، ثم قال : **« هل أبلغها ذلك ؟ »**

وأحسست بالخطر التى تنطوى عليه اجابتى ، لكنى لم أقو على رد نظرته المتوسلة خائبة ، فأجبته بصوت حازم وأنا أمد اليه يدى : **« نعم ، أبلغها ذلك ! »** .. واذ ذاك لمعت عيناه وامتلأتا بدموع الشكر والعرفان ، وارتجفت يداه فى يدى بقوة ، ثم أحنى رأسه بحركة مريبة ، وتذكرت فورا أنه فى مناسبة سابقة قبل يدى .. فسحبتها هذه المرة فى الوقت المناسب ، وأنا أسمعه يقول : « لست أستطيع أن أشكرك ، فليكافئك الله ! »

ولم أقدر خطر الوعد الذى بذلته فى لحظة ضعفى ، الا بعد ساعة كاملة من انصراف كيكسفالفا ، حين جاء تابعى يحمل الى مظروفا أزرق ، فضضته فوجدت فيه هذه الكلمات : « سنسافر غدا .. اغفر لى مسلكى فى الأيام الأخيرة ، فقد كان ينتابنى الخوف من أن أكون حملا ثقيلا على نفسك . **أما الآن فانى أعرف لماذا ومن أجل من يجب أن أشفى ! لم أعد أخاف شيئا . تعال غدا مبكرا ما استطعت .. فما انتظرتك يوما بمثل هذه اللهفة !.. المخلصة لك دائما .. اديث »**

وارتجفت وأنا أقرأ الكلمة التى تربطنى الى الفتاة : « دائما » ! .. أى « مدى الحياة ! » . وشعرت بأنى لم أعد أستطيع التراجع ! .. لقد تغلبت شفقتى مرة أخرى على ارادتى ، فلم أعد أملك التصرف فى نفسى !

الفصل الرابع عشر

اللقــاء الأخـير

● **تناولت** ثلاث كؤوس من الخمر قبل أن آخذ طريقى الى القصر بعد ظهر اليوم التـالى . أردت أن أستمد منهـا الشجاعة على مواجهة الموقف العسير الذى ينتظرنى ، والتغلب على خوفى ـ أو خجلى ، لست أدرى ! ـ ولكن الأمـور جرت بأسهل مما توقعت : استقبلنى « جوزيف » بوجـه بشوش ، قائلا : « ان الآنسة تنتظر سيدى الملازم فى الصالون منذ زمن » ، ثم أسلمنى الى ايلونا التى شدت على يدى بحرارة لم أعهدها منها ، وقالت ووجهها يشع اشراقا وودا : « شكرا لك ياسيدى الملازم . انك لا تعرف مدى ما أديت لنا جميعا من جميل ، انك قد أنقذتها ! .. ولكن تعال مسرعا فانها تنتظرك ملهوفة ! » .. ثم فتح الباب وأقبل كيكسفالفا مشرق الوجـه ، فابتـدرنى قائلا : « انك ستدهش للتغير الذى طرأ عليها .. انها منـذ مرضت لم تبد يوما مرحة سعيدة مثلما تبدو اليوم . حقا انها لمعجزة ! »

واكتسحت هذه الموجة من الشكر والترحيب كل خوفى وخجلى ، فأسعدنى أن أكون السبب فى اسعاد الآخرين على هذا النحو . وهكذا دخلت عليها بقلب هادىء وجنان ثابت ، فوجدتها تكاد تطفر من مقعدها فرحـا ومرحا ، وقد ارتدت ثوبا من الحرير الأزرق الفاتح ، ووضعت على رأسها بضـع أزهار بيضاء . وبقدر ما كانت لهجتها صبيانية ، كان جمالها أكثر أنوثـة من ذى قبل ! ولم تكـد ترانى حتى هتفت بى : « أخيرا ، أخيرا ! .. تعال واجلس بجانبى ، ولا تقل شيئا ، فعندى الكثير الذى ينبغى أن أقوله لك ! »

وحين فعلت ، استطردت قائلة بلهجة من تزن كل كلمة

تفوه بها : « اصغ الى ، ولا تقاطعنى : لقد عرفت كل ما قلته لأبى ، وما اعتزمته من أجلى . **والآن صدقنى حين أعدك بأنى لن أسألك يوما أو أسأل نفسى : هل فعلت ذلك من أجل أبى أم من أجلى ، وبدافع الشفقة أم بدافع .. كلا ، لا تقاطعنى ، فانى لا أريد أن أعرف جواب هذه الأسئلة ، لا أريد أن أستمر فى تعذيب نفسى وغيرى بهذه الشكوك .. ويكفى أن تعلم أنى لم أعد الى الحياة ولن أقوى على الحياة الا بفضلك ، بل انى أحس أن حياتى لم تبدأ الا أمس !** .. ولتثق بأنى سوف استسلم لما يريده الأطباء منى استسلاما مطلقا ، وسأناضل فى سبيل الشفاء - وقد عرفت ما يتوقف عليه - بكل عصب وكل ذرة من جسمى ، وكل قطرة من دمى . ويخيل الى أن الانسان حين يريد شيئا بمثل هذه الاستماتة الملحة ، فان الله لا يضن عليه به ! .. كل هذا سوف أفعله من أجلك ، كى لا أحملك تضحية ما فى سبيلى . ولكن اذا لم تسر الأمور على ما يرام ، أى اذا لم أحصل على الشفاء التام وأصبح مثل بقية الناس ، فلا تخشى شيئا .. **فانك لن ترانى بعد ذلك ، أو تسمع عنى .. ولن أصبح عبئا عليك ، لأنى لن أصبح عبئا على أحد على الاطلاق !** .. هذا ما أقسم لك عليه . والآن لا تعلق على قولى بكلمة ، اذ لم تبق أمامنا غير ساعات معدودات نقضيها معا قبل سفرى ، وأنا أريدها أن تكون ساعات هنيئة حقا ! »

وعلى غير شعور منى ، وجدتنى أدنو بمقعدى من اديث ، وأتناول يدها فى يدى .. ثم مضينا نتحدث ونثرثر فى غير تكلف ، فى كل موضوع خطر ببالنا .. ثم انتقلنا الى غرفة المائدة ، حيث كان الشمعدان الفضى يعكس أضواء الشموع ، والأزهار تشرئب بأعناقها من آنيتها كالشهب الملونة ، والمرايا تعكس أنوار الثريات البللورية .. والأشجار فى الخارج تتنفس فى هدوء ، والهواء الدافىء يعبث بالمروج العطرة ، ثم يعود محملا بأريج عذب خفيف ! .. كل شىء كان يبدو أبهج من المألوف

.. فأكلنا وتحدثنا وشربنا نخب شفاء اديث « من أجلى » ! ـ كما قالت وهى ترفع الكأس الى شفتيها ـ بينما طافت الدموع بمقلتى أبيها وهو يرفع عينيه الى السماء مبتهلا .. ومضى الرجل يرحب بى محييا محتفيا ، حتى استخفنى التأثر فقمت وعانقته ! .. وحين لمحت عينى اديث تتبعاننى ، وشفتيها تختلجان شوقا ، أسرعت فانحنيت عليها وطبعت قبلة .. على فمها ! .. لكنها لم تلصق صدرها بى كما فعلت فى المرة الأولى ، بل تلقت قبلتى هذه المرة فى وقار ، كما تتلقى هدية ثمينة ! **.. وسمعنا صوتا مكتوما صادرا من أحد الأركان .. كان جوزيف يبكى فرحا لفرحة سيدته ، فخلنا دموعه تنحدر ساخنة من أعيننا نحن ! .. وفجأة شعرت بيد اديث فوق يدى ، وقالت لى : « أعطنى يدك لحظة » .. واذا شىء بارد ناعم ينزلق فى خنصرى : كان خاتما من الذهب ! .. ثم همست لى فى لهجة المعتذرة : « كيما يذكرك بى حين أكون بعيدة ! » .. فتناولت يدها وقبلتها !**

وطيلة السهرة كان جبين الفتاة يلمع بندى الانشراح ، وعيناها تعكسان أشعة من السعادة الخالصة .. وتملكنى زهو من يشعر بأنه صاحب الفضل فى كل هذا الحبور ، والبهجة ، والانشراح الذى ساد الجميع ! .. وعندما حان وقت الانصراف ونهضت ، خيم على جو المكان ظل من الكآبة والأسف لانقضاء الليلة الرائعة .. ولأول مرة شعرت بضيق من فكرة مفارقة اديث ـ وكنت قد أجلت انصرافى وأطلت البقاء ، عزوفا عن توديع هذه الفتاة التى تحبنى ـ فلما لم يعد مفر من الرحيل ، صافحتها ثم ألقيت ذراعى حولها معانقا ، وقبلتها فى فمها ! واذ ذاك شعرت بها تحبس أنفاسها ، كأنما لتحتفظ بحرارة أنفاسى أطول مدة ممكنة ! .. وأخيرا صافحت الباقين وغادرت الحجرة ، يغمرنى شعور الارتياح الذى يخامر المرء بعد أن يفرغ من تأدية مهمة ناجحة !

لكننى لم أبلغ الباب الخارجى ، وأتهيأ لتنـــاول قبعتى وسيفى من جوزيف ، حتى لحق بى كيكسفالفا وكأنه لا يقوى على أن يفارقنى ، وراح يكيل لى عبارات الامتنـــان والمديح ، وحيائى يعوقنى عن أن أقطع حديثه لأنصرف .. ولو فعلت ، لنجوت من رؤية المشهد الفظيع الذى وقع على الأثر : اذ لم تمض لحظات حتى سمعنا صوت اديث وايلونا تتجادلان جدلا عنيفا . كانت الأولى تصر على شيء والثانية تحاول أن تمنعها ، دون جدوى .. ثم بلغت آذاننا طرقات العكازين على الأرض ، وأقبلت اديث تتوكأ عليهما حتى بلغت باب الردهة التى كنا فى أقصاها ، فتوكأت عليه فى حركة من تستجمع قوتها للقيـام بمجهود أكبر .. **ثم أقبلت فى اتجاهى تترنح على ساقيها دون سند من عكازيها ! ــ مستعينة على حفظ توازنهـا بحركات ذراعيها ــ حتى لم تبق بينها وبينى غير خطوتين ، ثم خطوة واحدة ! .. واذ كادت تتم المعجزة ، فاضت بها نشوتها ولهفتها على احتضانى ، فمدت ذراعيها نحوى قبل الأوان .. وعندئذ ، اختل توازنها فسقطت عند قدمى ، مهيضة الجناحين !**

حدث ذلك كله فى لحظات ، أقعدتنا الدهشة خلالها عن أن نحول دون وقوع الحـادث ! .. فلما وقع ، أجفلت أنا الى الخلف مذعورا ــ بدلا من أن أنحنى على الفتاة فأقيل عثرتها ! ــ بينمـا خف كيكسفالفا وايلونا وجوزيف الى المســكينة فحملوها ، وهى تنشج بالبكاء كمدا ويأسا ، وخجلا .. منى ! .. وفى لحظة انزاح عن عينى ضباب الوهم الذى سيطر على مشاعرى طيلة السهرة ، فتجلت الحقيقة أمامى سافرة ، بكل بشاعتها : ان الفتـــاة لن تشفى ! ستظل كسيحة على هذه الصورة مدى الحياة ! .. وأنا الذى حسبت نفسى آلها يزهو على مخلوقاته بالسعادة التى افاءها عليهم طيلة السهرة ، عدت فجأة مخلوقا ضئيلا ضعيفا ، فى أمس الحـاجة الى من يرثى لحـاله !

وفى ظل هذه الصدمة النفسية المروعة ، وجدتنى عاجزا عن أن أبقى الى جانب الفتاة كى أشجعها فى محنتها ، وأقوى فى نفسها ايمانها وأملها فى الشفاء : بالكذب ، والباطل ، والخداع المرير ! .. فاختطفت قبعتى وسيفى وفررت من البيت - لثالث مرة - كالجرم الأثيم ! .. ومضيت فى الطريق أستجدى الهواء لأنفاسى ، وبى احساس من يوشك أن يختنق .. هل كان الهواء محملا بالغبار ، أم كان النبيذ يغلى فى عروقى ، أم كان حنقى هو الذى يكاد يخنقنى ؟ .. لست أدرى سوى أنى فتحت ياقة سترتى ، وقد أحسست كأن دمى الحار يريد أن يطفر من جلدى من فرط ما كان يتدفق فى رأسى ويدق أذنى ، وكأنه وقع عكازى اديث !

وجف حلقى من الانفعال والظمأ ، فهرعت الى أقرب حانة صادفتها فى طريقى ، غير عابىء بحقارتها ، وتخصيصها لطبقة الجنود وتحريمها على الضباط . كنت أعتزم أن أتناول قدحا من الصودا المثلجة ثم أنصرف ، لكنى تبينت عجز ساقى عن أن تحملانى ، من فرط الدوار الذى أصابنى ، بتأثير الخمر والانفعال والهواجس المحمومة التى تناهبتنى ، فأشعلت سيجارة واعتمدت رأسى بين كفى ، محاولا تهدئة ثائرة نفسى ..

ولكن كيف السبيل الى الهدوء ، وطرقات العكازين تلاحقنى ، وسلسلة الأحداث التى تتابعت تتخبط فى رأسى ؟ ! ألم يربطونى الى الفتاة برباط أقوى من الخطبة ، فيضعونى فى موضع المسئول عن حياتها أو موتها ؟ .. لكنى قبلت الفتاة فى فمها باختيارى ، فورطت نفسى أكثر مما ورطونى ! .. رباه ! كيف حدث ذلك ؟ كيف انتهت الأمور الى هذا الوضع ؟ كيف يمكن أن أتزوج امرأة كهذه ؟ .. انها ليست امرأة حقيقية .. انها ! .. كم كان بشعا منظرها وهى « تتكوم » عند قدمى كجوال من الحنطة ! .. اننى أرفض الزواج من مثلها ولو أعطيت مال الأرض كله ، وما قيمة المال ، فى رفقة حطام بشرى

كهذا ؟ .. ولكن كيف السبيل الى الفرار من هذا المأزق ؟ غدا سوف تقف البلدة كلها على النبأ ، قد يعلنونه فى الصحف ، وعندئذ يستحيل على التراجع ! .. ثم هناك أسرتى أيضا : ترى كيف تتلقى خبر زواجى من كسيحة ، ومن أصل يهودى أيضا ؟ .. وهناك زملائى فى الفرقة ؟ ماذا يقولون عنى ؟ لسوف يؤكدون ساخرين أنى بعت نفسى لبقرة عاجزة تدر ذهبا ! .. وسيطلبون جميعا منى ــ امعانا فى الاستهزاء ــ أن أقدمها لهم ، نعم أقدمها لهم بعكازيها ومقعدها ذى العجلات ! .. فلا يقع بصرهم عليها حتى ينفجروا ضاحكين ، متصايحين : « ها هاها .. هذا يفسر سر السبعة ملايين .. لقد أعطوه العكازين ضمن المهر ! »

يا للهول ! .. أين أنا ؟ .. نظرت حولى متعجبا . لابد انى أغفيت بعض الوقت ، ترى هل لاحظ رواد الحانة فى مسلكى شذوذا ؟ .. انهم سيسخرون منى بعد خروجى .. وغدا سوف تسخر البلدة كلها منى وراء ظهرى .. ولن يشفق أحد على الغبى الأحمق الذى صار عبدا ذليلا لشفقته !

الى أين أذهب الآن ؟ الى أى مكان عدا غرفتى الخاوية ، التى تنفرد بى فيها هواجسى المروعة ! .. خير ما أفعل أن أتناول مزيدا من الخمر ، شيئا باردا لاذعا يزيل هذه المرارة من فمى ، وهذه الأفكار من رأسى ! .. يكتسحها ، يحرقها ، يقتلها ، يبيدها !

وقادتنى قدماى دون أن أشعر الى المقهى المشرف على الميدان الكبير ، وكانت أنواره ما تزال مضاءة .. آه ، الى الشراب ، الى الشراب ! .. ولم أتذكر الا بعد دخولى أننى قد سعيت بقدمى الى حيث تكمن « العصابة » كلها ، عصابة الزملاء والأصدقاء : فيرنز ، وستاينهوبل ، وجوسى ، وطبيب الفرقة .. وبقيتهم !

ولكن لماذا يحدجنى جوسى هكذا بنظرة دهشة ، بل فزع ؟

ثم لماذا يومىء اليهم بعينه فيقطعون نقاشهم الحامى فجأة ويستديرون بأبصارهم نحوى ؟ .. وكان محالا أن أنسحب بعد أن رأونى ، فحزمت شجاعتى وحييتهم ثم جلست .. لكن الجو ظل ملبدا ساكنا برهة ، كأنما قد عكرت عليهم خلوتهم .. وأخيرا قطع جوسى حبل الصمت فسألنى : « هل نستطيع أن نهنئك ؟ » .. فأجبته من فورى قبل أن أدرك مغزى سؤاله : « تهنئوننى بماذا ؟ » .. فانبرى يقول ، متشبثا بالفرصة التى أتاحها له تساؤلى : « ان صديقك الصيدلى — وكان هنا منذ هنيهة — ذكر أن كبير خدم كيكسفالفا قد أنبأه بالتليفون منذ قليل — نيابة عن سيده — انك قد خطبت الـ ... فلنقل الآنسة التى هناك ! »

وتركزت الأبصار كلها على فمى .. وخشيت أن يسخر الجميع منى اذا اعترفت .. فأجبت متنصلا من التهمة : « هذا هراء ! » .. لكن جوابى لم يشف غليلهم ، فقال فيرنز وهو يربت على ظهرى : « اذن فأنا على حق ، والخبر غير صحيح ، أليس كذلك ؟ » .. وزادنى هذا السؤال تورطا فى النفى ، وشعرت بسخف محاولتى أن أوضح — فى مقهى — أمرا شائكا عجزت عن ايضاحه وأنا فى خلوة مع نفسى .. فقلت محتجا ، دون ترو : « غير صحيح على الاطلاق ! » .. واذ ذاك ساد الصمت برهة ، وتبادل الجميع نظرات الدهشة .. حتى أفاقوا منها على صوت فيرنز يدق المنضدة بيده ويصيح بلهجة المنتصر : « ألم أقل لكم أنى أعرف هوفميلر حق المعرفة ، وأن هذا النبأ لابد أن يكون اكذوبة ، اكذوبة قذرة من جانب الصيدلى اللعين ؟ .. آه ، سوف ألقى على التعس درسا لن ينساه ، كى يكف عن تلويث سمعة الناس بالباطل ! .. **ولكن أرأيتم صدق ما قلت لكم ، من أن هوفميلر ليس بالشخص الذى يبيع نفسه من أجل حفنة من المال ؟ »** .. **ثم استدار صديقى نحوى وضربنى على ظهرى بيده الثقيلة مازحا ، وهو**

يقول : « لكم أنا مسرور لأن الخبر غير صحيح .. والا للوثك ولوثنا جميعا ، بل لاوث الفرقة بأسرها ! »

.. ثم أضاف ستاينهول قائلا : « كلنا مسرورون بنجاتك من قبضة ذلك المرابى ، الذى دمر بحيله القذرة « نيوندورف » المسكين . وانه لمن سوء الحظ أن يسمح لأمثال هؤلاء بجمع الثروات وشراء الضياع والألقاب ! » .. وهنا قال ثالثهم : « الواقع أنى منذ البداية لم أكن مستريحا الى كثرة ترددك على أولئك القوم ، لا لأنى أعرف عنهم شيئا يشينهم ، بل لأننا نحن الضباط يجب أن نكون متحفظين فى الاختلاط بالناس ، فنعرف كل شىء عنهم قبل أن نشرف بيوتهم بزيارتنا .. يجب أن نحتفظ بأيدينا دائما نظيفة ! »

.. وتتابعت تعليقات الزملاء اللاذعة على هذا النمط ، وتباروا فى التعريض بكيكسفالفا وابنته « البشعة » ! .. بينما جلست أنا كالأخرس بلا حراك ، وان وددت لو أصرخ فيهم معترفا بأنى أنا الكاذب الجبان ، وليس الصيدلى ! .. لكنى أدركت أن فرصة التراجع عن انكارى قد فاتت ، كما أدركت فظاعة الخيانة التى أرتكبها بسكوتى هذا فى حق اديث البريئة المسكينة ، فوددت لو تنشق الأرض وتبتلعنى ! .. ولم أدر الى أى جهة أنظر ، ولا ماذا أفعل بيدى اللتين قد ترتجفان فى أية لحظة فتفضحاننى .. وانتهزت أول فرصة فخلعت خاتم « الخطبة » من أصبعى وأخفيته فى جيبى ، قبل أن أمد يدى لأصدقائى مصافحا مودعا ! .. وخرجت الى الميدان الغارق فى ضياء القمر ، وقد أفقت تماما من سكرتى وبلبلة أفكارى . أدركت حقيقة ما فعلت ، وما بات واجبا على أن أفعل .. ففى الساعة العاشرة مساء ارتبطت بخطبة فتاة .. وبعد أقل من ثلاث ساعات تنصلت من تلك الخطبة فى جبن ونذالة ! .. **وأمام سبعة شهود سمحت لنفسى ــ وخاتم الخطبة فى أصبعى ــ بأن أتلقى المديح والاطناب من أجل اكذوبتى المرذولة ..**

وامتهنت ـ امتهانا غادرا ـ شرف فتاة أخلصت لى الحب ، مخلوقة عاجزة مسلوبة الحول والطول ، لا ترتاب فى شىء ! .. بل تركت أباها يهان أمامى ويثلم شرفه ، دون أن احتج أو أدافع ، وقبلت أن يرمى شخص بالكذب على مسمع منى ، وهو لم يقل الا الصدق !

.. وهكذا لن يطلع الصباح حتى تكون الفرقة بأسرها قد وقفت على عارى ، والذين كالوا لى الليلة المديح سوف يتنكرون لى غدا ! .. ومتى افتضح كذبى فلن ألبث أن أجرد من رتبتى ، ويتعذر على أن أعود لرؤية الذين غدرت بهم غيلة ! .. وحتى العمل الذى وعدنى به « بالنكاى » ، فى مؤسسات زوجته ، سوف يأباه على بعد افتضاحى .. وهكذا دمرت تلك الدقائق الثلاث التى جبنت خلالها ، حياتى كلها .. فلم يبق أمامى غير مخرج واحد : « المسدس ! »

واذ أدركت بوضوح أن لا سبيل يحفظ لى شرفى غير ذلك السبيل ، انتقلت الى التفكير فى الطريقة التى أنفذ بها عزمى ، فجعلت وأنا أذرع الشوارع المقمرة أدبر أدق تفصيلات الساعتين أو الساعات الثلاث الباقية لى على قيد الحياة ! .. قررت أن أكتب أولا خطابا الى والدى أعتذر اليهما فيه من أجل الألم الذى سوف أسببه لهما .. ثم خطابا الى « فيرنز » أرجو فيه أن يعدل عن الاشتباك مع الصيدلى بسبب ما قاله ، ما دامت المسألة سوف تسوى بموتى ! .. وخطابا ثالثا الى قائد الفرقة ، أستحلفه فيه أن يسدل على الموضوع كله ستارا من السرية ، ما أمكنه ذلك ، وأوصيه بدفنى فى فيينا ، دون جلبة أو مشهد عسكرى .. ثم أختم رسائلى بخطاب أخير الى كيكسفالفا أسأله فيه أن يؤكد لاديث عواطفى الحارة نحوها ، ويطلب منها أن لا تفكر فى كثيرا ! .. أما ثيابى وساعتى فتؤول الى تابعى ، وأما خاتمى وعلبة سجائرى الذهبية فتعود الى كيكسفالفا ... **وماذا أيضا ؟ آه ، لابد من حرق خطاب اديث ،**

بل جميع الخطابات والصور التى فى حوزتى ، كى لا أترك ورائى شيئا ما ، ولا أخلف أثرا أو ذكرى ، وانما أختفى ـ كما عشت ـ دون أن أثير انتباه أحد ! .. فاذا ما أتممت هذه الاجراءات ، فسوف أتمدد على فراشى وأغطى جسمى ورأسى بكل الأغطية التى عندى ، وفوقها اللحاف السميك ـ كى يحجب صوت الطلق النارى عن الأسماع ـ ثم أضع فوهة المسدس على صدغى .. وأطلق الرصاص !

وكنت قد وصلت الى باب المعسكر ، بعد أن تجولت على غير هدى حوالى ساعة ، أعددت فيها برنامج موتى ـ بدقة وصفاء ذهن لا أذكر أنى أعددت بهما أى تدبير فى حياتى ! ـ ولم يبق الا أن أعبر الفناء وأصعد طوابق المبنى الثلاثة ، ثم أخلو الى نفسى كى أبدأ ـ وأتم ـ كل شىء !

.. لكنى لم أكد اقترب من الباب ، حتى برز لى فى الظلام شبح ، سرعان ما تبينت فى ضوء القمر أنه .. قائد الفرقة ! .. ترى بماذا سيعلق على عودتى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ .. ولكن الى الجحيم به وبالفرقة ، فانى فى الصباح سوف أمثل بين يدى من لا يقاس هو به ! .. ونادانى الكولونيل بصوته الصارم : « ملازم هوفميلر ! » ، فوقفت أمامه وأديت التحية ، بينما أردف هو قائلا : « لعل أحدث زى ألحظه عليكم أنتم الضباط الشبان فى هذه الأيام أنكم تتركون ستراتكم نصف مفتوحة ! .. هل تحسبون أننى أسمح لكم بالتجوال بعد منتصف الليل على هذه الصورة ؟ كلا ! لن أقبل هذا ! ان ضباطى يجب أن يحتفظوا بأناقة هندامهم فى كل وقت ، أتفهمنى ؟ » .. ثم تركنى ومضى دون أن يحيينى ! .. رباه ، أتكون آخر عبارة أسمعها فى حياتى عبارة لوم وتوبيخ ؟ **كلا ! لابد أن ألحق به كى أبرر له مسلكى وأشرح عذرى ، بمثل الحرص التقليدى المألوف من جانب المنتحرين على أن يلقوا حتفهم بصحيفة بيضاء ناصعة ، حتى ليعمد الرجال منهم الى**

ارتداء ثياب نظيفة ـ والنساء الى التزين بالأصباغ والعطور ـ قبل أن ينهوا حياتهم ، بدقائق معدودات !

وهكذا هرعت خلف القائد .. حتى لحقت به على السلم ، فسألته أن يسمح لى بالتحدث اليه ببضع كلمات . وبرغم دهشته ، دعانى الرجل الى الصعود معه الى غرفته ، وكانت فى بساطة حجرات ضباط « أسبرطة » القدامى المتقشفين .. وهناك ابتدرنى متسائلا : « أهى مشكلة مالية ، تلك التى تبغى أن تحدثنى فيها ، أم نسائية ؟ » .. فشرحت له أمرى باختصار ، وما انتهى اليه عزمى ، حرصا على شرفى وشرف الفرقة التى أنتمى اليها ! .. واذ ذاك راح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، فى هيئة من يجهد ذهنه فى البحث عن مخرج ، ثم وقف تجاهى وسألنى : « من هم زملاؤك الذين سمعوا انكارك ؟ » .. فأمليت عليه أسماء الشهود السبعة . وبعد أن كتبها فى مفكرته ، التفت الى قائلا : « الآن اسمع الحل الذى اهتديت اليه : سوف أدعو هؤلاء السبعة لمقابلتى ، كلا على حدة ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، وأجعلهم يقسمون بشرفهم العسكرى أن ينسوا كل كلمة فهت بها أمامهم ، مبررا مسلكك بأنك كنت فى حالة سكر بين لم تفقه معه حرفا مما قلت .. وكذلك سوف أقنع الصيدلى ـ بطريقتى الخاصة ـ بهذا العذر ، والزمه الصمت ! .. أما أنت ، فينبغى الا تبقى فى هذه البلدة يوما واحدا بعد الآن ، والا تعرضت للأسئلة والاستفسارات والمضايقات المحرجة أينما ذهبت ، الأمر الكفيل بافتضاح حقيقة أمرك .. لذلك سأصدر فى الصباح أمرا بنقلك الى معسكر (شازلاو) ، فعليك أن تحزم الليلة أمتعتك وأمتعة تابعك كى تمثلا أمامى فى الساعة الخامسة والنصف من فجر الغد ـ أو بالأحرى : اليوم ـ لتتسلما أمر النقل .. هل فهمت ؟ .. وهكذا لا يبقى من ذيول حماقتك غير ما يتصل

بتأثيرها فى صلتك بكيكسفالفا وابنتـــه ، وهذا أمر أترك لك تصريفه كما تشاء ! »

وحاولت أن أعترض على هذا الحل ، بحجة أنه لا يزيل غير أثر حماقتى بالنسبة للآخرين ، أما أثرها فى نفسى وفى قرارة نفوس الشهود السـبعة فسوف يظل كما هو ، وسوف تظل لوثة تصرفى المخزى عالقة بشرفى ما بقيت على قيد الحيـاة !

.. لكن القـائد لم يقرنى على مغالاتى « السـاذجة » فى توهم الأمور .. وحين تظاهرت بطاعته ، وأنا أبيت النية على تنفيذ ما اعتزمت ، أدرك بحصـــافته أنى أضمر لنفسى شرا .. فاستوقفنى بعد أن هممت بالانصراف ، ليقول لى : « لاتعجبنى نظرتك أيها الفتى ، بحيث يخيل الى أنك تنوى أن تهزأ بكلامى، وانك تدبر شرا .. لكنى لن أسمح لك بمعالجة الأمر فى تهور وجنون ، سواء بمســدس أو بأى شىء من هذا القبيل .. أتفهمنى ؟ »

فقلت : « نعم يا سيدى القائد ! »

قال : « لا تحسب أنك تستطيع خـداعى ، فلست من مواليـد الأمس القريب .. أعطنى يدك .. **والآن ، أقسم لى بشرفك العسكرى يا « هوفميلر » أنك لن ترتكب حمـاقة فى حق نفسك الليلة ، وانك ستمثل أمامى عند الفجر ثم ترحل الى شازلاو » !**

فقلت : « أقسم بشرفى على ذلك »

قال : « حسنا ! لقد خشيت أن تقدم – فى حمى انفعالك الوقتى – على فعلة نزقة طائشة ، فانكم معشر الشباب تميلون فى هذا السن الى تعجل انهاء الأمور ، ولو باستعمال المسدس ! .. لكنكم حين تتقـدمون فى السن ،سـوف تتعلمون كيف تعالجون الأمور فى روية وتعقل .. والآن تستطيع أن تذهب ! »

● ●

منذ اللحظة التى تلقيت فيها أمر القائد « بالتعقل » ،

كففت ـ بحكم نشأتى العسكرية التى تقدس طاعة الرؤساء طاعة عمياء ـ عن أن أفكر فى أمرى باستقلال فى الرأى ، بل صار همى أن أطيع ، وكفى ! .. وهكذا لم تشرق شمس الصباح حتى كنت وتابعى فى القطار الذاهب الى فيينا ، ومنها الى شازلاو .. لكن الشلل « المغناطيسى » الذى أصاب ارادتى وأنا بين جدران المعسكر ، تبخر بمجرد تحرك القطار ، فألقيت عن ذهنى سباته وأفقت على الصورة التى يفيق بها شخص ألقاه انفجار عنيف على الأرض ، فلما وقف على قدميه .. أدهشه أن يرى نفسه سليما من كل أذى ! .. **وهكذا كانت أول صدمة تلقيتها مدهوشا ، أنى وجدت نفسى ما أزال حيا ! أحسست كأن شخصا قد انتزع المسدس من يدى فى آخر لحظة ، كى أعيش وأواجه .. ماذا ؟** .. لقد وعدنى القائد أن يسوى آثار حماقتى فيما يتصل بزملائى وأهل البلدة . ولكن ماذا يكون من شأن كيكسفالفا واديث ؟ من الذى سيشرح لهم جلية الأمر ، ويفسر لهم غيابى ؟ .. لن تحين ساعة زيارتى المألوفة ، بعد الظهر ، حتى تجلس المسكينة فى انتظارى ، تضنيها اللهفة المحمومة .. لكنى لن أحضر ، ولن تتلقى منى أى نبأ فى رسالة أو بالتليفون .. واذا استفسرت عنى فى المعسكر فسوف يذكرون لها أنى نقلت الى جهة أخرى بعيدة ! لكنها لن تفهم شيئا .. بل انها ستفهم الحقيقة الرهيبة ، وعندئذ .. ! ؟

.. وفجأة خيل الى أنى أرى عينى كوندور تهددانى من وراء نظارته ، وصوته يصيح بى : « انها تكون جريمة قتل ! قتل متعمد ! » .. وتلت هذه الصورة فى خاطرى صورة أخرى محتها : صورة اديث وقد رفعت جسمها من مقعدها ، وانحنت على سور الشرفة ، المطل على الهاوية السحيقة ! .. فحدثت نفسى فى انزعاج : ينبغى أن أفعل شيئا على عجل !.. أرسل اليها برقية من أقرب محطة ، أحول بينها وبين الاقدام

على فعلة طائشة .. ولكن كلا ، أنا الذى ينبغى ألا أقدم على أى تصرف طائش ، هكذا أوصانى كوندور ، ملحا على فى أن أبادر بالاتصال به قبل أن أخطو أية خطوة ! اذن فلأفعل ! .. من حسن حظى أن أمامى ساعتين أقضيهما فى فيينا ، بين موعد وصول قطارى ورحيل القطار الذاهب الى شازلاو ! وهكذا لم يكد القطار يقف فى محطة فيينا حتى تركت أمتعتى فى حراسة تابعى وركبت سيارة أجرة نهبت بى الطريق الى منزل كوندور . وقطعت الطريق كله وأنا أصلى وأبتهل ، راجيا أن أجده فى البيت .. ولكن رجائى خاب ! فاضطررت أن أكتب اليه خطابا تسلمه اليه زوجته عند حضوره .. وفيه رجوت منه أن يهرع من فوره الى كيكسفالفا ، بقطار الساعة الثانية ، كى يصل قبل موعد زيارتى المنتظرة ويشرح لاديث كل شىء !.. ورويت له تفاصيل حماقتى الأخيرة ، راجيا منه أن يصارح الفتاة بها على حقيقتها ، **كى لا ترانى فى صورة تفضل الواقع .. لا ترانى بريئا وأنا المذنب !.. فاذا استطاعت - برغم ضعفى - أن تصفح عنى ، فسوف أعتبر خطبتناأكثر جدية وقداسة منها فى أى وقت مضى - فانها لم تصبح فى نظرى مقدسة حقا الا الآن ! - واذا سمحت لى بأن أصحبها الى سويسرا فأنا على استعداد لأن أعتزل الخدمة فورا وأذهب معها ، وألازمها فى المستقبل ، سواء شفيت بعد مدة وجيزة أم طويلة ، أو لم تشف على الاطلاق !..** ذلك لأنى أبغى أن أفعل كل ما فى وسعى للتكفير عن جبنى وأكاذيبى ، وقد صار هدف حياتى الوحيد الآن أن أثبت لها أنى لم أخنها هى بحماقتى ، بل خنت الآخرين وحدهم .. كل ذلك ينبغى أن يقوله كوندور لها بصراحة تامة ، **فانى لم أتبين الا اليوم كم هى أثيرة عندى ، أكثر من أصدقائى ، ومن عملى ، ومن خدمتى العسكرية !.. هى وحدها التى تملك أن تقدر موقفى وتصفح - أو لا تصفح - عنى .. وفى يدها**

وحدها مصيرى !.. لذلك فاننى ألح عليه فى أن يدع كل شىء ويستقل قطار الساعة الثانية بغير ابطاء، كى يصل قبل الرابعة والنصف، موعدى المألوف.. والا تعرضت حياة الفتاة للخطر!»

.. ولم أشعر الا حين وضعت القلم، بما أنا مدين به للقائد الذى أنقذ حياتى، كما شعرت بأنى منذ تلك اللحظة مرتبط مدى الحياة بشخص واحد ليس غير، بالمرأة التى أحبتنى!

وسلمت الرسالة لزوجة الطبيب، ثم انحنيت على يدها فقبلتها.. وحين رفعت بصرى اليها لم أستطع أن أفهم كيف بدت لى هذه المرأة العمياء فى البداية قبيحة الخلقة!.. **فقد أشرق وجهها الآن بنور المحبة والعطف الانسانى، حتى لقد أحسست أن تينك العينين اللتين لم تعكسا غير الظلمة الأبدية، تعرفان من حقائق الحياة أكثر من كل العيون المبصرة، المفتوحة على الدنيا بأسرها!**

وغادرت البيت وبى احساس من شفى من مرض طويل! .. لم أعد أرى أن ثمة أية تضحية منى فى ارتباطى مدى الحياة بمنبوذة مستضعفة، عديمة الحيلة!.. كلا، فليس الانسان السليم، الأبى، الفرح، السعيد، هو الذى ينبغى أن نحبه، فمثله ليس فى حاجة الى حبنا! انه فى غطرسته وعدم مبالاته يتقبل هذا الحب منا على أنه واجب علينا، نؤديه له صاغرين.. والحب المتفانى من جانب شخص آخر نحوه يكون بمثابة زخرف، لمجرد الزينة.. حلية للشعر، أو سوار للمعصم.. وليس نعمة حياته كلها، وسر وجوده!.. **ولا يستحق الحب وينتفع به غير الذين قست عليهم الحياة، فأذلتهم وحرمتهم نعمة الحواس، أو الجمال، أو الاطمئنان، أو اليقين!.. والذى يكرس حياته لمثل هؤلاء انما يعوضهم بعض ما سلبتهم الحياة.. وهم وحدهم الذين يعرفون كيف يحبون ويتلقون الحب، كما ينبغى للانسان أن يفعل، فى تواضع وامتنان!**

ووجدت تابعى ينتظرنى حيث تركته ، فمضيت به الى قطار (شازلاو) ، وقد غمرنى شعور بالارتياح لا يوصف . لقد أنقذت نفسى وأنقذت حياة انسان آخر ، ولم أعد نادما على حماقتى الأخيرة ، بل انها ـ على العكس ـ هيأت لمن كانوا يثقون بى أن يعلموا أنى لست بطلا أو قديسا ، أو آلها تنازل فرفع الى سمائه مخلوقة مريضة بائسة !.. **فلئن تقبلت اليوم حبها فما عاد الأمر ينطوى على تضحية أو شبهها .. كلا !.. بل أنا الذى يستجدى الغفران الآن ، وهى التى تمنحه !**

ولكن ، ماذا لو لم يعد كوندور الى بيته فى الوقت المناسب لأن يلحق بقطار الساعة الثانية ؟.. ومرة أخرى مثل فى خاطرى مشهد الشرفة المطلة على الهاوية ، فانتظرت بصبر نافد وقوف القطار فى المحطة التالية وهبطت منه الى مكتب « التلغراف » المقام على الرصيف ، حيث أرسلت منه البرقية التالية : « اديث فون كيكسفالفا ـ ضيعة كيكسفالفا : ألف تحية وأطيب التمنيات . انتدبت لعمل بعيد . سأعود قريبا . كوندور سيوضح لك كل شىء . سأكتب حال وصولى ـ محبك المتفانى : هوفميلر » .. وعندئذ فقط استراح بالى وسكنت مخاوفى ، فشعرت بمدى الاجهاد الذى أعانيه بعد يومين شاقين وليلتين مسهدتين .. وحين وصلت فى تلك الليلة الى (شازلاو) اقتضانى الأمر أن أتحامل على نفسى كى أبلغ غرفتى فى الطابق الأول من الفندق ، حيث غرقت فى النعاس من فورى ، كما يغرق الانسان فى بئر عميقة !

وأعتقد أننى أغفيت فى اللحظة التى لمس فيها رأسى الوسادة . وبعد فترة ليست بالقصيرة رأيت فيما يرى النائم أنى واقف وسط حجرة الانتظار بمنزل كوندور ، **وفجأة تناهى الى سمعى ذلك الصوت الخشن المروع الذى ما فتىء منذ أيام يطرق صدغى ، صوت طرقات العكازين على الأرض :**

تاك ، تاك ، تاك !.. أخذ الصوت يقترب ويزداد وضوحا حتى خلته قد بلغ حجرتى ، فهببت من نومى مذعورا ، لأسمع طرقا على بابى !

.. حملقت هنيهة فى ظلام الغرفة حتى استوثقت من أنى لم أعد أحلم ، وعندئذ قفزت من فراشى وفتحت الباب .. فاذا خادم من خدم الفندق ينبئنى بأن هناك من يطلبنى بالتليفون من فيينا !.. وطار النوم من عينى ! لا بد أنه كوندور !.. وفى مثل لمح البصر ، تبعت الخادم وأنا أكاد أعدو .. لكننى حين تناولت السماعة لم أسمع غير أزيز متقطع كأزيز أسراب من البعوض .. فصحت ، وصحت : « ألو .. الو » ، ولكن بلا جواب !.. لا شىء غير الأزيز المتقطع !.. ولم أدر هل سرت الرعدة فى أوصالى بسبب ثيابى الخفيفة ، أم ان خوفا مفاجئا اعترانى فجعل أسنانى تصطك ؟.. ترى ماذا حدث حتى جعلهم يطلبوننى بعد منتصف الليل ؟.. وعدت أصيح ، وأهتف ، وأنتظر .. وأخيرا سمعت صوتا يقول : « القيادة العليا فى (براج) تتكلم .. هل أنت وزارة الحرب ؟ » . فصرخت حانقا : « كلا ..! » .. وبعد حين خاطبنى العامل قائلا : « آسف ، لقد أخلى الخط لمحادثة حكومية مستعجلة ، سأدق لك الجرس حالما ينتظم الخط مرة أخرى ! » .. **ولبثت أنتظر على مقعد خشبى صغير ، وأنا أنتفض من البرد والخوف ، وجبينى يتفصد بعرق الانزعاج .. وانقضى نصف ساعة ، وتبعه نصف ساعة آخر !.. ما معنى هذا ؟ لماذا يتركوننى أنتظر كل هذا الوقت الطويل ؟.. هذا اجرام !.. هذا جنون !.. فى مدى ثانية واحدة من الزمن يمكن أن يموت انسان ، ويتقرر مصير ، أو ينهار عالم بأسره !..** وأخيرا دق الجرس ، ليقول لى العامل فى غير خجل : « لقد ألغيت المحادثة ! » .. ألغيت المحادثة ؟ ما معنى ذلك ؟.. أيطلبوننى بعد منتصف الليل ثم يلغون الطلب ؟..

لا بد أن شيئا قد حدث ، شيئا يجب أن أعرفه فورا ! ما أفظع أن يعجز الانسان عن أن يخترق الزمن والمسافة !.. ولكن ماذا فى وسعى أن أفعل ؟

لست أستطيع أن أصف كيف قضيت تلك الليلة ، ولا أن أصف بشاعة الأفكار والهواجس التى تنازعتنى خلالها ، وأنا أنتظر وأنتظر ، بكل عصب فى جسمى .. وأنصت وأتسمع لكل صوت على السلم ، وفى الممر ، والشارع ، عسى أن تتجدد المحادثة .. حتى انتزعنى النعاس والارهاق من وعيى ، نعاس شبيه بالموت والعدم !

وحين صحوت ، كان نور النهار يملأ الفضاء ، فنظرت فى ساعتى ، يا الله ! العاشرة والنصف ؟.. كيف هذا ؟ لقد كلفنى القائد أن أمثل أمام رئيسى الجديد فى الصباح الباكر !.. ومرة أخرى ، وقبل أن يتسع لى الوقت للتفكير فى أمر شخصى ، بدأ الجانب العسكرى من عقلى يعمل بطريقة آلية ، فارتديت ثيابى فى لحظات وطرت الى مقر عملى الجديد .. ووجدت الفرقة بأسرها قد اصطفت فى الفناء الفسيح ، فسارعت الى احتلال مكانى على عجل . وبعد دقائق أقبل القائد يسير بخطوات بطيئة صارمة ، ثم نشر ورقة كانت مطوية فى يده ، وشرع يقرأ بصوت مفجوع : « **لقد وقعت جريمة قتل مروعة أشاعت الذعر والأسى فى النمسا وهنغاريا وكل بلاد العالم المتمدن .. هى الاغتيال الآثم لولى العهد المحبوب صاحب السمو الامبراطورى الأرشيدوق فرانز فرديناند ، وصاحبة السمو الامبراطورى الأرشيدوقة !.. وان الجيش الامبراطورى ليشعر ...** »

لكنى لم أسمع حرفا من بقية المنشور ، فان كلمتى « جريمة » و « قتل » كانتا بمثابة طعنة وجهت الى قلبى !.. حتى لكأننى كنت أنا القاتل !.. انهما الكلمتان اللتان استعملهما كوندور فى حديثه !.. وتذكرت فجأة تليفون

الأمس : لم لم يتصل بى كوندور هذا الصباح ؟ ترى ماذا حدث ؟.. وانتهزت فرصة الهرج الذى ساد المعسكر بعد فراغ القائد من اعلان النبأ فتسللت عائدا الى الفندق . وهناك استقبلنى الحارس وفى يده برقية لى ، أو بالأحرى اخطار من مكتب البريد يفيد أن برقيتى المرسلة من محطة (...) فى الساعة ٨٥ر٣ من يوم أمس لم يتيسر تسليمها . عجبا ! كيف ذلك ؟.. هل يوجد فى كيكسفالفا من لا يعرف اديث فون كيكسفالفا ؟.. ولم أطق صبرا ، فطلبت الاتصال بكوندور فى بيته بصفة عاجلة ..!

وجاءت المحادثة بعد عشرين دقيقة ، وكان كوندور فى البيت ـ ويا للعجب ! ـ بل كان هو الذى رفع السماعة . وفى ثلاث دقائق سمعت القصة بحذافيرها : لقد تدخل القدر بنشاط عجيب فأفسد كل تدبيرى ، وتدبير قائد الفرقة : فان فيرنز وبقية الزملاء قد التقوا بالصيدلى فى تلك الليلة المشئومة ذاتها بطريق المصادفة ، فاتهمه صديقى علنا أمام الملأ بأنه يذيع أكاذيب مختلقة عنى ، وحدثت مشادة كبيرة بينهما على الأثر . وفى الصباح كان الحادث موضع ثرثرة أهل البلد جميعا ، وتوجه الصيدلى محنقا الى المعسكر كى يستشهد بى على صدق أنبائه ، **فلما فوجىء باختفائى قصد الى قصر كيكسفالفا حيث اقتحم على الأب التعس مكتبه واتهمه بأنه جعله موضع سخرية البلدة كلها بسبب تلك الرسالة التليفونية السخيفة .. ثم أضاف أنه لن يقبل أن يوسعه نفر من الضباط الشبان اهانة واستهزاء .. وانه يستطيع أن يستنتج سر فرارى الموصوم بالجبن ، ولن يسكت حتى يقتص منى بنفسه ، ولو اقتضاه ذلك أن يسعى لدى السلطات المسئولة فى وزارة الحرب .. الخ !**

.. وبعد عناء استطاع كيكسفالفا أن يهدىء من ثائرة زائره ويصرفه ، وكان كل أمله خلال المناقشة المحتدمة

ألا يصل طرف منها الى سمع اديث .. ولكن شاءت الأقدار أن تخترق كلمات الصيدلى الصاخبة ، الفضاء الفاصل بين حجرة المكتب الواقعة فى الحديقة وبين الصالون ، حيث كانت تجلس اديث ، **فسمعت الحديث كله بوضوح تام !.. لكنها تظاهرت خلال الساعات القليلة التالية بأنها لم تسمع شيئا ، فضحكت وتندرت مع أبيها وايلونا فى مرح ظاهر ، وطلبت أن تعرض عليها أثوابها الجديدة ، واستفسرت عن مائة تفصيل وتفصيل مما يتصل بالرحلة** .. وفى أثناء ذلك كلفت جوزيف سرا بأن يستفسر من المعسكر بالتليفون عن موعد عودتى ، وهل تركت رسالة ما ، فكان الجواب أنى نقلت من البلدة ولم أترك أية رسالة !

وكانت هذه هى الطامة الكبرى التى رجحت فى ذهن اديث كفة الاسراع بتنفيذ مشروعها ، فأبت فى ثورة انفعالها أن تنتظر يوما آخر ، أو ساعة واحدة !.. لقد خيبت أملها خيبة مريرة ، وأنزلت بها ضربة قاتلة لا طاقة لها بعدها على أن تولينى مزيدا من ثقتها !.. وأمدها ضعفى بقوة جبارة وعزم وطيد ، فطلبت بعد الغداء أن تحمل الى الشرفة .. وكأنما أوحى انشراحها الزائد الى ايلونا بشىء من التوجس ، فلم تفارقها طيلة الوقت .. حتى كانت الساعة الرابعة والنصف — موعد زيارتى المألوفة — فطلبت من ايلونا أن تحضر لها كتابا معينا .. وكما يحدث عادة حين تشاء الأقدار ، استجابت هذه لذلك الطلب البادى البراءة .. **فانتهزت التعسة تلك الفرصة القصيرة لتنفيذ فكرتها المشئومة ، بعد اذ عجزت عن ترويض قلبها الملتهب .. نفذتها على الصورة التى استعرضتها يوما أمامى ، والتى طالما رأيتها فى أحلامى المزعجة ، فى يقظتى ومنامى !**

ووصل كوندور بعد دقائق ، ليجدها ما تزال على قيد الحياة .. وكانت ظاهرة خارقة لكل تقدير ألا يحمل جسمها

أثرا خارجيا للصدمة القاتلة !.. وحملوها فى سيارة اسعاف الى فيينا وهى فاقدة الوعى .. وحتى ساعة متأخرة من الليل ظل الأطباء يأملون أن يستطيعوا انقاذها ، ومن ثم طلب كوندور - فى الساعة الثامنة - محادثة عاجلة معى بالتليفون ، من المصحة . ولكن فى تلك الليلة - ليلة التاسع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩١٤ - كانت جميع خطوط التليفون مشغولة بلا انقطاع بمحادثات السلطات العسكرية والمدنية ، بسبب مقتل ولى عهد الامبراطورية .. فلبث كوندور أربع ساعات ينتظر الاتصال بى ، دون جدوى .. **حتى قرر الأطباء ، بعد منتصف الليل ، ألا أمل فى انقاذ المصابة ، فألغى المحادثة .. وبعد نصف ساعة أسلمت اديث روحها !**

●●

بين مئات الألوف من الرجال الذين جندوا للقتال فى شهر أغسطس من ذلك العام ، لم يكن سوى ثمة عدد ضئيل مضى الى ساحة الحرب فى غير مبالاة ، ان لم أقل فى لهفة ، مثلى !.. كانت الحرب بالنسبة لى مخرجا ، وبابا للفرار ، ففررت اليها كما يفر المجرم الأثيم الى قلب الظلمات !.. وكنت قد قضيت الأسابيع الأربعة السابقة على بدء القتال فى حال من اليأس ، والحيرة ، والبغض لنفسى ، ما زلت أذكرها حتى اليوم بفزع لا يقاس اليه فزعى من ذكرى أشأم مآزق الحرب !.. ذلك أنى كنت مقتنعا تمام الاقتناع بأنى - بضعفى وشفقتى المرذولة اللعينة - قد قتلت مخلوقا بشريا ، بل المخلوق الوحيد الذى أحبنى أصدق الحب وأخلصه !

وفى حمى حيرتى اليائسة كتبت الى كيكسفالفا أواسيه - مواساة كانت بمثابة الاعتراف باثمى ! - فلم أتلق منه أى رد !.. وأمطرت كوندور بالايضاحات التى حاولت بها تبرير نفسى ، فلم أتلق منه أى رد !.. وكذلك لم أتلق أية رسالة من زملائى فى المعسكر السابق ، ولا حتى من أبى

ـ ولعله كان مرهقا بعمله الحربى فى تلك الأيام الحرجة ـ **ومن ثم شعرت ، مطعونا ، كأن هذا الصمت المريب بمثابة اتهام اجماعى لى !.. خيل الى أنهم جميعا يدينوننى ، كما أدين نفسى ، ويعتبروننى قاتلا ، لأنى هكذا اعتبرت نفسى !.. وفيما كانت أوربا كلها تعانى حمى من الانفعال ، وتجند جيوشها للقتال ، لم يكن لى هم غير التفكير فى خيانتى ، ونذالتى ، وجبنى !.. وهكذا كان استدعائى للحرب بمثابة الانقاذ لى من نفسى ، ومن يأسى !..** وأنا من الذين يمقتون المغالاة ، والعبارات العنيفة ، لهذا فلن أزعم أنى لم أخش الموت ، لكننى على الأقل خشيته أقل مما فعل غيرى .. فقد مرت بى ساعات كان فيها تفكيرى فى العودة من الحرب حيا ، الى حيث ألقى أولئك الذين يشاركوننى العلم بجرمى ، يسبب لى ذعرا يفوق ذعرى من كل أهوال جبهة القتال !

.. ثم الى أين أذهب ، لو عدت ؟.. من بقى هناك فى حاجة الى ؟.. من بقى يحبنى ؟.. ولماذا ـ ومن أجل من ـ ينبغى أن أعيش ؟.. واذا كانت الشجاعة لا تزيد على كونها محض « عدم الخوف » ، فانى أستطيع أن أزعم أنى كنت شجاعا فى الميدان !.. بل أنى لم أخش أن أصير كسيحا ، أو تقطع ساقاى ، أو غير ذلك من العاهات !.. **بل لعلنى رأيت فيها عقابا عادلا وانتقاما آلهيا ، القصد منه أن أغدو فريسة لرثاء الناس وشفقتهم العاجزة ، الموصومة بالجبن والضعف ، مثل شفقتى !**

ولئن كان الموت لم يعبر طريقى ، فليس الذنب ذنبى .. فلقد ذهبت عشرات المرات لألقاه ، بعين الاستخفاف وعدم المبالاة ، متطوعا لكل مهمة خطرة ومغامرة مميتة .. فكان فى كل مرة ينحرف عن طريقى ، وأعود محملا بأكاليل الغار ، وأوسمة المجد والشرف ، تقديرا لبسالتى الزائفة !.. فلما انتهت تلك الأعوام الأربعة الرهيبة ، اكتشفت مدهوشا أنى

مازلت حيا ، وأنى عدت من « حمام الدم » ، يثقل ضميرى وزر عدد لا حصر له من الأرواح التى قتلتها بيدى فى الميدان .. فكان لذلك بعض الأثر فى تخفيف وطـأة اثمى الأول الشخصى ، الذى استغرقته موجة الاثم العـام !.. **وزادنى ارتياحا ــ الى حد ما ــ ان هذا العالم المغاير الذى عدت اليه لم يبق فيه أحد من شهود جريمتى القديمـة ، يستطيع أن يتهم البطل المحمل بأوسمة البسالة ، بأنه كان فى الماضى جبانا رعديدا ، أو يصيح فى وجهى بأنى كاذب نذل !**

.. وكان كيكسفالفا قد لحق بابنته بعد أيام معدودة من موتها .. وصارت ايلونا زوجة لمحام بسيط فى احدى قرى يوغوسلافيا .. وأطلق قائد الفرقة رصاصة على صدغه أنهى بها حياته ، حزنا على هزيمة وطنه .. وتبعثر زملائى القدامى من ضباط المعسكر : فمات منهم من مات ، والذى بقى على قيد الحياة نسى كل شيء عن ذلك الحادث التافه ــ فان كل شيء يمت الى ما قبل الحرب صار بعدها يعد تافها لا وزن له !

.. لم يبق من يتهمنى أو يديننى !.. وهكذا صرت أشبه بالقاتل الذى دفن جثة ضحيته فى الغابة ، اعتمادا على أن الجليـد لن يلبث أن يتساقط بكميات هائلة تطمر معـالم جريمته .. وحين يذوب الجليد بعد شهور ، يكون كل أثر للجريمة قد اختفى .. الى الأبد !

وحزمت شجاعتى أخـيرا ، وبدأت أواجه الحيـاة من جـديد .. ولما لم يعد أحـد يذكرنى باثمى ، فانى كنت قد أوشكت أن أنساه !

.. حتى أقبل شبح من « العالم الآخر » أعاد الى وعيى الذكرى المروعة : كنت جالسا فى دار أوبرا « فيينا » ذات ليـلة ، أصغى الى موسـيقى « جلوك » ، وحين انتهت « افتتاحيـة » الأوبرا فتحت الأبواب ــ وان ظلت الأنوار

مطفأة ـ ليدخل الى القاعة أولئك الذين جاءوا متأخرين .. وأقبل شبحان يتلمسان طريقهما الى مقعديهما ، بجانبي : رجل وامرأة .. ولحظت من مشيتهما ان الرجل يقود مرافقته من يدها فى رفق ـ بحيث لم يبق لدى شك فى أنها عمياء ! ـ ثم أجلسها ، وجلس هو فى المقعد الملاصق لمقعدى .. وعندئذ تبينت ـ لفرط دهشتى .. وذعرى ! ـ أنه ليس سوى الدكتور كوندور !.. **الرجل الوحيد الذى يعرف كل شىء ، حتى عمق أعماق روحى ، وأخفى خفايا جريمتى !.. الرجل الذى لم تكن شفقته ضعفا قاتلا ـ مثل شفقتى ! ـ بل كانت قوة مضحية ، منكرة للذات !.. الانسان الوحيد الذى يستطيع أن يديننى .. والذى ينبغى أن أحس أمامه بالخجل !**

انه يجلس بجوارى ، حتى لأكاد أسمع أنفاسه ، وحين تضاء الأنوار لن يلبث أن يعرفنى !

وبدأت أرتجف ، وقلبى يدق صدرى كالمطرقة .. ووضعت يدى على وجهى ، خشية أن تحين منه نظرة فى الظلام فيعرفنى !.. **وكما لو كنت عارى الجسم من الثياب ، وسط كل هؤلاء النظارة الوقورين ، ارتعدت أوصالى فرقا من اللحظة التى سوف تضاء فيها الأنوار ، فتمزق أستار الظلام .. الذى يحمينى !**

وهكذا انتهزت فرصة اللحظات القليلة السابقة لانتهاء الفصل الأول ، والتى تفصل بين فتح الأبواب واضاءة الأنوار . فدفنت رأسى بين كتفى مطرقا ، ومرقت من مكانى متسللا الى الخارج ، قبل أن يدركنى النور !

.. لكنى ، منذ تلك الساعة ، تبينت أنه ما من اثم يمكن أن يطويه النسيان .. ما دام ضمير صاحبه يذكره ..!

((تمت))

مسابقة « أنا كارنينا »

نشرنا فى العدد ٩٨ من « كتابى » فقرات من رواية العدد التالى من « مطبوعات كتابى » ـ دون اشارة الى اسم الرواية ـ وجعلنا معرفة هذا الاسم موضوع مسابقة بين القراء ، جائزتها اشتراك سنة فى « مطبوعات كتابى » .

وقد تلقينا عددا كبيرا من الردود ، بعضها توصل أصحابه الى معرفة اسم الرواية (وهو : « أنا كارنينا » ، التى نشرت بعد ذلك فى العدد ٧٤ من مطبوعات كتابى) ، وبعضها الآخر ذكر أصحابه أسماء غير صحيحة للرواية التى اخترنا منها تلك الفقرة موضوع المسابقة . وقد اضطرتنا كثرة الردود الى اجراء قرعة بين أصحاب الاجابات الصحيحة ، لاختيار المستحق للجائزة ، كما رأينا ـ ازاء كثرة الردود التى تلقيناها ـ ان نهدى تسعة آخرين من أصحاب الاجابات الصحيحة ، بالقرعة أيضا ، نسخة من رواية « أنا كارنينا » ونسخة من الرواية الحالية (حب .. أم شفقة) لكل منهم .

وقد أسفرت القرعة عن النتيجة الآتية :

اشتراك سنة فى (مطبوعات كتابى) ، للسيدة حرم المرحوم الدكتور شوقى تادرس ، ٢ شارع عثمان غالب باشا ، شقة ٧ ، مصر الجديدة .

نسختان من : أنا كارنينا ، وحب أم شفقة لكل من السادة : محمود عبد القادر الزمايدى . ص.ب (٣٠) ـ عمان . محمد بهاء الدين مختار طرابية ، ڤيللا ٤ شارع ٤٧ سموحة الاسكندرية مدام عصمت أمين المصرى ٨ شارع اسماعيل الفنجرى (منديس سابقا) شقة ١٣ (كامب شيزار ، اسكندرية) ـ ماهر البطوطى ٥ شارع محمد شكرى بالعجوزة القاهرة . وفاء عبد الخالق عبد المجيد عطية ، ڤيللا ٢٤ قطعة ١٠٩ شارع ١٠٣ المعادى القاهرة . حسن حامد عطا ، ٥٤ شارع المنيل القاهرة . فاروق طهبو ، بنك بور سعيد ، طلعت حرب اسكندرية . المهندس عصمت وديع سمعان ٤٢ شارع مصطفى صادق الرافعى مصر الجديدة . ادور توما شعانا كلية الطب جامعة الموصل . العراق .

مطبوعات كتابى

صدر من هذه المجموعة حتى الان :

الكتاب	المؤلف
١ ـ قصة مدينتين	تشارلز ديكنز
٢ ـ ذات الثوب الأبيض	ويلكى كولينز
٣ ـ الخـالدون	ديل كارنيجى
٤ ـ الخاطئة	سومرست موم
٥ ، ٦ ـ حياة امرأة (جزءان)	جى دى موباسان
٧ ـ الخطيئة الأولى ، وفتاة من الأقاليم	البرتو مورافيا
٨ ـ أوديب (ترجمة الدكتور طه حسين)	سوفوكليس واندريه جيد
٩ ، ١٠ ـ مدام بوفارى (جزءان) ...	جوستاف فلوبير
١١ ـ عاشقات فى الخريف ، و ٢٤ ساعة فى حيـاة امرأة	ستيفان زفايج
١٢ ـ قلوب ضـالة	رابندرانات طاغور
١٣ ـ ديكاميرون (ألف ليـلة وليـلة الايطـالية)	بوكاشيو
١٤ ـ الظمأ للحب (قصة فنلندية) ...	ميكا والتارى
١٥ الى ١٧ ـ جين اير (٣ أجزاء) ...	شارلوت برونتى
١٨ ـ فاتنـات الرجال	مارجورى كورجين
١٩ ـ رجال ونساء	مكسيم جوركى
٢٠ ـ الثـأر للوطن	جون شتاينبك
٢١ ـ فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	ادوين جون ديفيز
٢٢ ـ الابن الضال (أسرة روكفيار) ...	هنرى بوردو
٢٣ ـ أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
٢٤ الى ٢٦ ـ بيللا دونا (سائحـة فى الأقصر) ٣ أجزاء	روبرت هتشنز
٢٧ ـ بوشكين (الشاعر العاشق) ...	ليديا لامبير
٢٨ الى ٣٢ ـ اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء)	ليديا لامبير
٣٣ ـ قصص من الصين	لطائفة من المؤلفين
٣٤ ـ ليـالي بلزاك (ألف ليلة وليلة الفرنسـية)	بلزاك

الكتاب	المؤلف
٣٥ الى ٣٧ ـ الالياذة (٣ أجزاء) ...	هوميروس
٣٨ ـ قصص من روما	البرتو مورافيا
٣٩ ، ٤٠ ـ المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلى
٤١ ـ سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٤٢ ـ دم .. وخمر !	تولستوى
٤٣ ـ تحت ظلال الليلا ! (قصة تركية طويلة)	مبرورة سامى
٤٤ ـ أرواح هائمة	سومرست موم
٤٥ الى ٤٧ ـ القلعة (٣ أجزاء) ...	دكتور ا.ج. كرونين
٤٨ ـ هل تحبين « برامس »	فرانسواز ساجان
٤٩ الى ٥١ ـ مرتفعات ويذرنج (٣ أجزاء)	اميلى برونتى
٥٢ ، ٥٣ ـ مدموازيل جوفر (جزءان)	مرسيل بريفو
٥٤ ـ العذراء المفتونة	هنرى باتاى
٥٥ ، ٥٦ ـ مياه الربيع (جزءان) ...	ايفان ترجنيف
٥٧ ـ ضحكة فى الظلام	فلاديمير نابوكوف
٥٨ ـ ماريا ايفا نوفنا	الكسندر بوشكين
٥٩ ـ لوكريشيا بورجيا	جوان هاسليب
٦٠ ـ كلهم أبنائى ، ومن فوق الجسر ...	أرثر ميللر
٦١ ، ٦٢ ـ نيتوتشكا (جزءان) ...	دستويفسكى
٦٣ ـ السحب الرائعة	فرانسواز ساجان
٦٤ ، ٦٥ ـ الآلهة العطشى (جزءان) ...	اناتول فرانس
٦٦ ـ قصص من تولستوى	تولستوى
٦٧ ـ مارى ستيوارت	فريدريك شيللر
٦٨ ـ ألف ليلة وليلة الهندية	لطائفة من المؤلفين
٦٩ ـ فاتنة الكونغو	شارك ميرسيه
٧٠ ـ قاتل بلا أجر	اوجين يونسكو
٧١ ـ قصص من « ابانيز »	بلاتسكو ابانيز
٧٢ ، ٧٣ ـ الطريق الى بئر سبع (جزءان)	ايثيل مانين
٧٤ ـ أنا كارنينا	تولستوى
خارج السلسلة : دكتور جيفاجو (جزءان)	باسترناك

محتويات الكتاب

كتابى
تصدر عن
الشعب
مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون فى المطبوعات العاجلة
عضو إتحاد المذاعات
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب
المطابع قصر العينى ت ٣١٨١ ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩ دير النواس - ٨٤٤٨١٠
رئيس مجلس الإدارة
السيد ابراهيم